

١

٥ من يونيو عام ١٩٦٧

السقوط

صبحي محمد عبد الله البيطار

إهداء

إلى روح أمي..

التي منحتني الحنان..

فعلمتني.. صدق الكلمة..

مراسلات المؤلف:

الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع
٣٣٩ ش بور سعيد - السيدة زينب
القاهرة
ت: ٣٩٢٧٣٦١

مقدمة الكتاب

لقد كتبت تلك المقدمة ألف مرة.. وفى كل مرة أمزقها..

إن هذا الكتاب كتب عشرات المرات.. مزقته.. أحرقته.. لعنت صفحاته ألف لعنة..

خطت سطوره الأولى.. ولم تزل دماء الشهداء ساخنة.. وأنين الجرحى المحتضرين تملأ أجواز الفضاء لتصل إلى الله تشكو إليه.. يتردد صداها فى أذنى كالمطارق الجبارة العملاقة.. فأمضى قلقاً عصبياً لا يقر لى قرار ولا أستريح فى مقام..

كتب هذا الكتاب أول مرة على ضوء [لمبة جاز] ضياؤها شحيح.. يتراقص فى ارتعاش مريض.. داخل خندق صغير أثناء حرب الاستنزاف.. فى منطقة كبريت.. على البحيرات المرة.

ومن كان يهتم بالأدب أو التسجيل..! والتذكير بهول المأساة وقتئذ.. لا أحد.. فقبعت الأوراق كعظام الموتى أكلت أطرافها الأيام.. وإنمحت أحرفها..

وبعد وقف إطلاق النار.. وللغرابة زادت آلامى الجسمانية حتى احتار أطباء القوات المسلحة فى تشخيص الحالة.. وامتدت بى ليالى العذاب والاغتراب بين مستشفى ومستشفى.. ليقرر الجيش أخيراً عدم صلاحيتى الطبية للعمل كضابط..

لتشتعل نيران حرب أكتوبر ٧٣.. وأنا لازلت أتوكأ على عصا.. ولسبب خارج حدود المنطق والعقل والتعليل.. ألقيت عصاتى.. توجهت إلى حيث قائد القوات لأعتصم أمام باب مكتبه لا أغادره إلا إذا سمح لى بقيادة كتيبتى التى عشت بها عمرى وشهدت فى رحابها مأساة ٦٧.. ومعاناة حروب الاستنزاف.. ثم يُطلب منى كتابة إقرار بمسئوليتى الكاملة عن حالتى وأى تبعات أو آثار صحية من جراء قيادتى كتيبة وقت الحرب.. وكتبت ذلك الإقرار.. ليسند لى قيادة هذه الكتيبة فى أتون النار والدمار.. والدخان.. كنت أول.. وآخر ضابط فى تاريخ الجيش المصرى يقوم بهذا العمل.. يلقى بنفسه طائعاً مختاراً فى أتون حرب الجيش ذاته أبعده عنهما..

هل كنت بطلاً.. هل كنت يائساً أنشد الانتحار.. أو ممثلاً هزلياً ينشد دور البطل وهو عاجز.. حقيقة الأمر لم أكن شيئاً من كل ذلك.. ولم أدع يوماً.. ولن أدع أننى بطلاً مغواراً.. كان الآلاف غيرى يجرون ويمرحون.. ويسوقون الأسباب والمعارف لنيل معاش كبير.. أو تعويض مادى.. وكنت رب أسرة وأباً لطفلتين ولم أفكر لثانية واحدة فى كل ذلك..

سلوكى آنذاك لم يكن مبرراً.. لم يكن وليد تفكير منظم.. أو مرتب.. أو وفق خطة مسبقة كان تحت ضغط طاقة من الألم والحزن والرغبة العارمة فى الثار.. رغبة تتضائل أمامها كل أمنية.. أو أمل.. أو مطمع مادى دنيوى زائل.. زائل فعلاً.. فأين راح الأحباب أين ذهب محمود.. وشكرى.. وإبراهيم عثمان.. ورأفت عطية.. وفيصل.. وحازم.. أين كل هؤلاء الزملاء.. لقد ماتوا.. ماتوا دون سبب.. كان أملى أن أقتص من القتلة.. أو أصعد إلى الزملاء..

وضعت الحرب أوزارها.. بين شد وجذب.. انسحاب.. وحرب.. ولم أصدق يوماً.. يوماً واحداً.. [ولن أصدق] أن إسرائيل تنشد السلام فعلاً.

حملت أوراقى إلى جهات الدولة المسئولة عن الطبع.. وبعد شهور طويلة قيل لى.

-.. ماهذا الذى كتبته ونحن نسير فى مسيرة السلام.. إنك تكدر صفو السلام المنشود..

رجعت إلى دارى وحملت النسخ كلها وألقيت عليها البنزين وأحرقتها النيران.. وتقدمت للالتحاق بكلية القادة والأركان.. ورغم أنف القوانين والذين يطبقونها.. تقدمت لامتحان المسابقة وقد سمحوا لى بدخول الامتحان على أمل.. أن أرسب.. وللأسف ظهرت النتيجة وكنت الأول على سلاحى كله..

الحرب أنستنى المرض والمستشفى والعصا.. أصبحت سليماً قوياً واقفاً على قدمى رشيقاً أعمل عشرون ساعة يومياً.. وتخرجت.. وأصبحت دارساً مؤهلاً.. مثقفاً من أعلى أكاديمية عسكرية عربية على الإطلاق..

ولأسباب عسيرة النشر.. لم أكن أرضى إلا بما هو صحيح.. فتذكر القادة مرضى القديم وأحالونى إلى المعاش.. محروماً من كل مزايا الزملاء.. التى يقررها القانون بل صدر قانوناً كأنه يحاربنى وحدى ويحرمنى من العمل لأقيم أود أسرتى.. وأيضاً.. لست نادماً.. لست نادماً على شىء أبداً..

تخلصت من خدمة القوات المسلحة أو تخلصت منى.. وعدت إلى دارى.. أعيد كتابة مخطوطى القديم.. وأكتب.. وأكتب.. وأكتب..

لأجد الدنيا من حوالى قد تغيرت.. حتى بدوت أمام أسرتى وأهلى وأصدقائى كالمومياء التى تتجلى للناظرين.. وتنتمى إلى ماضى نساه الناس.. التكالب على المال ملأ

على الناس وجدانهم.. و.. و.. انهيار.. انهيار..

حملت أوراقى مرة أخرى لدور النشر.. التى رفضت كلهـا التمويل.. وقالوا لى: إدفع التكاليف!!.. وأنا لا أملك شيئاً.. غير.. أوراقى.. وثقافاتى.. وفنى..

والحقيقة.. حقيقـة المأساة.. جذور المجزرة وأبعـادها.. إيقاعهـا المميت الرتيب.. ألا تستحق شيئاً.. قيل لا.. التمويل..

عـدت أدراجى إلى جهـات الحكـومـة.. ولما قـرأ النـاس.. قيل هل يمكن أن يكـون الإسرائيليين بهذه الوحشية.. إنك تدمر مسيرة السلام.. فلا يمكن أن يقتلوا الأسرى..

وأخيراً اعترف أحد القتلة الإسرائيليون.. وأخبر العالم بتفاصيل كيف ذبحوا الأسرى المصريين العزل من السلاح.. والأمل.. والسكينة.. حين يقـول ضابط مصرى لقد قتلوا الأسرى.. يكذبه.. المسئولين.. ويكون معوقاً لمسيرة السلام..

وحين يقر بالحقيقة العدو.. ذاته.. فإنه عدو جدير بالاحترام.. والتصديق.. وهاأنذا.. أبعث الميت من الأدراج.. وأنفـض الغبـار عن الصفحـات.. وأشهـر أوراقى بين يـدى المصريين.. حتى لا ينسى مصرى ماحدث..

قـد تكـون تلك أول مـرة.. يكتب فيهـا عن المأسـاة.. مـن السفح.. سفح التنظيم العسكرى المصرى.. لمقـاتل بدء حيـاته بين النار.. والـدم.. والدخـان.. وصرخات الألم المفزع الملتاع..

لقد كانت حرب ٦٧ هى نقطة الانقلاب فى حياتى بصفة خاصة.. وللمصريين بصفة عامة.. وللعرب والعالم..

قبل الحرب كنت أعيش أيـامى.. منفتحـاً على الـدنيـا أنهل منهـا حظى.. وأسرف فى دقائقها وثوانيها فتوتى وعنفوانى وشبـابى.. بعدها دهشت لما حدث.. كزلزال عظيم.. مـازالـت الأرض المصريـة يتحـرك منهـا البنيـان الاجتماعى والثقـافى والسيـاسى والاقتصـادى.. كتـوابع مهـولة.. لهذا الـزلـزال المروع.. ولازالت الـدهشـة تتملكنى والتسـاؤلات تعصف فى رأسى كـالأعـاصير.. فـاقـرأ التـاريخ.. والفلسفـة.. والفن.. والسياسة.. وكل علوم الإنسانية عسـانى أفهم وأستوعب.. وأستقر.. ولا أنا أستقر.. ولا وطنى يستقر..

إننى كمـواطن يحب هذه الأرض.. ويعشق هـذا الوطن.. وينتمى إلى هـؤلاء البشر.. أعظم ما خلق الله من عبقرية يجسـدها المصرى لو أتيحت له الفرصة.. واجب على نشر

هذا الكتاب.. غير نادم وغير آسف على شيء قد حدث لى شخصياً أو قد يحدث.. راجياً من الله.. أن يكون تذكره.. ورده.. وعودة إلى تصور المأساة..

كنت أتساءل فى غيظ وكمد عن كنه بعض قيادات مصر فى تلك الفترة السوداء بالقوات المسلحة أو الوزارات والمجلس التشريعى.. أولئك الذين هم فعلاً أشباه رجال ومارجال.. أقارن بينهم وبين قادة هزمت دولهم فى حروب شرسة كاليابان وألمانيا.. انتحر القادة العظام انتحاراً جماعياً.. لشعور كل منهم بأنه خذل بنى وطنه ولم يظفر بالنصر لهذا الوطن فلا يستحق الحياة..

أما أشباه الرجال من قادتنا أصحاب الحناجر الحميرية والأكف الغليظة والأعناق الأغلظ.. فقد هربوا من أتون الحرب آخذين معهم أبنائهم وأقاربهم.. وراحوا يتقلدون المناصب الرفيعة.. يتقلبون فى الحرير والكراسى الوثيرة..

ترى؟؟.. هل كان العيب فى هؤلاء النفايات البشرية؟؟..

بعد رحلة الحياة.. وجدت أن هؤلاء هم النتاج الطبيعى لنظام الحكم السائد.. ولم يكن وارداً فى خاطرهم يوماً خوض غمار حرب جدية.. ناهيك عن التخطيط والتنظيم لها ثم قيادتها.. فهم بحكم التكوين والتلوين.. منسلخون تماماً عن مواقعهم شاخصه أبصارهم دوماً إلى ولى نعمتهم الذى تعطف عليهم بالمنصب والجاه والنفوذ.. يحققون له إيماءاته.. يشنفون آذانه بما يحبه ويرضاه..

..وبالتالى فلم تؤثر فيهم المأساة ولم تزلزل كيانهم.. فلم يروا زميلاً مقتولاً ولا صديقاً مبقور البطن يلفظ أنفاسه.. فقط سمعوا عنها.. كالمشاهدين فى قاعات السينما. سكت عنهم النظام الذى أفرزهم فلم يقدمهم إلى المحاكمة.. وأكاد أقسم بأن تلك المجزرة المأساة لو وقعت فى دولة أخرى.. لصلب الشعب قادته فى الميادين العامة..

إن شخوص ووقائع هذا الكتاب.. حقيقية.. حقيقية تماماً.. لازال يعيش بيننا كثيرين ممن وردت أدوارهم.. لكن الأسماء مستعارة.. فقد تمس سطور زميلاً يعيش.. أو استشهد ووراه التراب..

والله ولى التوفيق

صبحى محمد عبد الله البيطار

١٩٩٠/٣/٢٥

الفصل الأول

الطريـــق إلـــى الفـــخ..

متهدج الانفاس مشتت العقل بالكاد استطاعت اقدامى أن تحملنى إلى حجرة الاستراحة الصغيرة.. بالكاد استطعت أن أمد أطراف أصابعي لاقبض على أكرة الباب..

فتحت الحجرة الصغيرة التي تتسع فقط لسريران معدنيان صغيران لا يتجاوز عرض كل منهما الـ ستون سنتميراً... موضوعان إلى جوار الحائط متقابلين فلم يتركا بينهما فراغاً الهم ممر بعرض خمسون سنتيمتراً وبطول الحجرة..

انبعث شيء كالغناء من جهاز راديو عتيق ربط حوله زوج من حجارة البطارية بواسطة خيط مطاطى أكبر حجماً من الراديو ذاته..

القى إبراهيم المجلة من يده ورمانى نبظرة متسائلة..

-.. إيه الزعيق ده.. كان التسبيح ده ليك إنت؟؟..

لازالت رأسى تطن.. فلا أكاد أسمع إلا صدى التقريع الذى نلته من الرائد ظريف قائد الكتيبة الذى لم أراه مذ جاء إلينا.. هززت رأسى موافقاً إبراهيم.

-.. ليه.. عملت إيه؟؟..

-.. أبداً.. دخلت عظمت.. ولسة هاأقول ملازم محمود مختار.. وراح طالع فى طلعة رهيبة يا اخى.. خلانى مش قادر انطق..

أخذ إبراهيم فى الضحك.. ضحكات متواصلة.. أدمعت عيناه.. وصدره يعلو ويهبط.. قائلاً بين الشهقات:

- إضرب المربوط.. يخاف السايب..

من خلال الضحكات استطرد.. وأنا وإنت يا بنى المربوطين فى الكتيبة دى..

أنا بقالى أربع شهور غايب.. ولسة مابقاليش دقيقة..

ألقيت بنفسى على السرير المواجه لإبراهيم.. ارتطمت رأسي بالحائط.. فارتكزت على مرفقى.. وساقاى مدلاه من السرير..

-.. عشان تبقى تسمع كلامى.. أهو لو سمعت كلامى ماكانش ده حصل..

صحت معترضاً: .. يا بنى إنت قلت حاجة..

ده أنا يا دوب لسة حاطط شنطتى وواخدك بالحضن.. وعلى طول قلت أروح أقدم

نفسى للقائد الجديد..

-.. يا أخـى الغريبـة إننا دفعة واحـدة.. وأصحاب.. وجينـا الوحـدة دى مع بعض ورغم كده.. اللى حصلك ده من شوية.. حصل معايا برضه.. وبنفس الشكل تقريباً..

-.. يا أخى الواحد بقى فى نص دومه.. صمت قليلاً ثم استطردت:

اتمسح بأخوك الأرض يابو خليل..

-.. ولا يهمك يا مخ.. كلنا لها..

شردت بعيداً.. أصبحت كلمات إبراهيم تـداعب حافـة شعورى.. ووعيى.. فـلا أنا منصرف عنه كلية.. ولا منتبهاً لـه انتباهاً كاملاً.. شىء إنتابنى كـالملل.. وما هو بالملل.. وكلما زادت كلمات إبراهيم تـدفقاً.. كلما زادت المسافة بينى وبينـه.. ارتدت رغما عنى إلى القـاهرة.. صـور كومضـات البرق تملأ صفحـة الخيال.. تشـدنى.وما بين لحظـة وأخرى تصطدم عيناى بالحائط الكالح أمامى.. فارتد بسرعة..

-.. من يوم ما جه الرائد ظريف وهـو على الحال ده.. كل حاجة غيرها.. قائد السرية الأولى نقله الثانية.. العسكرى محمدين.. بدال العسكرى حسنين.. صول الأفراد.. خلاه صول التعيين.. عـامل رعب للكل الضباط قبل العسـاكر.. بس يـا خى اللى مجننى.. إنه مابيديش جزاءات..

اختفى صوت إبـراهيم فجأة.. تنبهت على صوت ارتطام كعب حـذاؤه الثقيل ببلاط الحجرة.. شاخصاً إلى الباب.. جولت رأسى إلى حيث ينظر.. كان النقيب سمير واقفاً يسد فتحة الباب الضيقة.. وقد يكون من المناسب وصف النقيب سمير..

قصير القامة بالنسبة لحجمه العـام.. قمحى اللون.. يمتاز بكتلة شحم أسفل ذقنه.. ذى رقبة غليظة تحملها كتفان ضيقتـان.. لا يتناسبا مع امتلاءه ردفيه.. وتلك الأرداف لا تتناسب أيضاً مع نحول ساقيه وذراعيه.. فى الثلاثين من عمره.. غزت جيوش الشعر الأبيض رأسه مبكـراً.. حليق الذقن دائماً.. يفوح من خـلاياه عطر (الأولـدسبايس..).. كـان مرجعـاً لا يأتيـه الخطـا من أمـامه أو من خلفــه فى أسعـار كل شىء قـابل للبيع والشراء.. وقد تكون أشهر صفاته على الإطلاق هى الصبر.. وطولة البال..

ألقى على النقيب سمير نظرة متهكمة.. فقفزت واقفاً إلى جوار إبراهيم.. متزاحمين فى

الحيز الضيق.. فأشار بيده أن أقترب.. وما أن اقتربت مواجهاً له. حتى ابتدرنى موبخا..

-.. إيه يا ح الضابط محمود.. كده تكسفنا وتقصر رقبتنا قدام القائد الجديد؟.

-.. يا فندم.. عاوز أعرف.. أنا عملت إيه؟؟.

أشار بيده أن أصمت بشكل رتيب كسول.. وأخذ يفتح عيناه ويغلقهما مع رفع يده اليمنى وخفضها فى تتابع آلى..

-.. عيبك يا ح الضابط محمود.. إنك تبقى غلطان وتحاول تبرر غلطك.. كنت أعلم أنه إذا ما بدأ النقيب سمير فى الكلام مع ضابط صغير.. فلن يتوقف أبداً.. وكنت متعباً.. مهدوداً من السفر.. ستة وثلاثون ساعة بلا نوم.. استعداداً للسفر ثم رحلة القطار من القاهرة إلى العريش.. ثم السير حاملاً حقيبتى الثقيلة على الأقدام من محطة العريش إلى معسكر الوحدة.. فقررت أن أتكلم أنا أولاً.. وليكن.. مايكون..

-.. أنا عملت إيه.. يزعل الرائد ظريف بالشكل ده؟!..

ألقى النقيب سمير علينا موعظة طويلة.. بينما إبراهيم يقف متململاً ضجراً وكلما أحس سمير بقلقنا انبسطت أساريره.. ورويداً.. رويداً.. بدأت أنسى وجودى.. ووجود سمير وإبراهيم.. وأخذت أركز تفكيرى فى لا شىء.. ومن خلال الانفصام عن الوجود خيل إلىّ أنه توقف عن الكلام.. فبادرته بنفس السؤال:

- يا فندم عاوز أعرف بالضبط.. أنا.. عملت إيه؟؟..

رفع يده اليسرى مفرودة الأصابع وبيده اليمنى أخذ يحصى أخطائى..

-.. أولاً.. حضرتك دخلت مكتب القائد دون التسلسل القيادى..

-.. بس يا فندم حضراتكم كنتم كلكم فى اجتماع..

-.. ثانياً.. دخلت مكتب القائد بدون كاب.

كانت ثانياً هذه كصاعقة وقعت على رأسى.. فى لمحة سريعة نظرت خلفى فوجدت الكاب اللعين قابعاً يكاد يسقط مابين السرير والحائط.. وحينما وجدنى صامتاً انبرى منتصراً قائلاً:

-.. شفت.. سكت إزاى.. غلطان.. غلطان مش كده؟؟..

زادت ابتسامته اتساعاً مع صمتى فاستطرد.. رد.. غلطان ولا.. لأ؟؟..

-.. غلطان يا فندم..

-.. ليه؟؟..

ليه؟؟.. سؤال غـريب.. مهما انتحلت من أعذار فمصيرها المناقشـة الدائرية التى لن تنتهى.. والحقيقـة إننى أول من يعلـم أنـه لا يمكـن تبريـر ذلـك الخطأ إلا بسبب واه ضعيف.. فهذا الكاب يزن ثلاثة أرباع الكيلو جرام.. وحرارة الجو لا تطاق.. وأنا مجهد مكدود.. حضرت تواً من بين أهلى بعدما مكثت بينهم أربعـة أشهر متصلة.. بعدما غبت عنهم خمسة أعوام.. فكنت حزيناً غير قادر على التركيز.. فرددت باستسلام..

-.. غلطة..

-.. ثالثاً.. رفعت إيدك بالتحية العسكرية دون لبس الكاب..

مرة أخرى الكاب.. استطرد النقيب سمير.. رد.. غلطان ولا لأ..

-.. غلطان..

وعلى غير العادة أو التـوقع كان اليـوم مشغولاً.. رغم إنفـاقه سـاعـة كاملـة فى هذه «الداخلية المركزة».. فانهى المحاضرة قائلاً:

-.. القائد بيحذرك يا محمود.. غلطة كمان.. والعـواقب إنت مش قدها.. ما تنساش إنك لسة ملازم.. يعنى ضـابط كده.. وكده.. اسمك مكتوب فى كشـوف الضباط بالقلم الرصاص.. هزة واحدة كده.. باستيكة.. هوب.. تطيرك..

-.. حاضر.. آخر مرة يا فندم..

استدار النقيب سمير.. فتنفسنا الصعداء.. إلا أنه دار على عقبيه قائلا: ..

- على فكـرة.. النهـاردة بس تنـام هنـا.. ومن بكـرة الصبح تـروح تستلم سريـة الرشـاشات الثقيلة.. وقعت على الجملة وقع ثقيل.. فلقـد أنفقت أربعة أشهر بالقـاهرة أدرس المواصلات السلكيـة واللاسلكية.. لأصبح ضـابط إشارة واستطـلاع الكتيبة.. فلماذا كانت الدراسة إذن؟؟..

-.. بس يا فندم أنا أخذت فرقة إشارة ولسة راجع النهاردة..

-.. دى أوامر القائد..

****

رددت الردهة الضحكات المنتشية الخارجة من أعماق جمع مبتهج..

-.. عن إذنكم أقوم.. أحضر العشاء..

قالت عنايات تلك الكلمات ورفعت جسداً مترهلاً.. يبرز فى مؤخرته ردفان ضخمان قويان.. والآن.. قد يكون مناسباً أن نلقى نظرة عامة على هذا الجمع الذى لا يحمل للدينا هماً..

عنايات هانم فى أواخر الثلاثينيات.. بيضاء البشرة.. شقراء الشعر.. ذات عينان خضراوتان ووجه أملس به مسحة من جمال أخذ فى الرحيل.. وجسد كما سبق القول بدين.. وإن كانت رشيقة الحركة كالغزال.. رحل عنها زوجها منذ بضع سنوات ورثت وابنتها عنه قطعة صغيرة من الأرض الزراعية بإحدى قرى الوجه البحرى.. وإن كان أخ للزوج الراحل الأستاذ كمال هو المتولى شئون تلك التركة المتواضعة.. ولما كانت عنايات هانم لا تفقه شيئاً فى إدارة أعمال المزارع.. فلقد آلت التركة عملياً إلى الأستاذ كمال.. مقابل دفع مبالغ دورية كريع إلى أرملة أخيه.. وبالتجربة تعلمت عنايات أن المبلغ الذى تجود به الأرض لا يتوقف على أسعار الحاصلات وأسعار الكيماوى والبذور.. بقدر ما يتوقف على رضا كمال.. لذلك فقد كان دوماً يقابل من أسرة شقيقه الراحل بأسمى آيات الترحاب..

ورغم ابتسامة عنايات هانم الدائمة.. وضحكاتها التى تزلزل الجدران.. إلا أن هناك شيئاً فى بريق عينيها.. يشع فيقع بين الناس مواقع شتى.. ولم يستطع أحد قط من معارفها الكثيرين تأويل ذلك الإشعاع بشكل قاطع.. النائم أحياناً.. والناعم أحياناً أخرى.. ربما كان حزن عميق على الفقيد الراحل.. أو على أيام العز التى ولت ولن تعود لكنه كان شيئاً أعمق وأدق.. حزن مشوب بالسخط.. سخط على ذلك الراحل العزيز والذى كان عليه ألا يرحل.. ويتركها فى زهرة الشباب..

أما الأستاذ كمال.. أو أونكل كمال.. كما تناديه ابنة أخيه سحر.. فهو جد مختلف أسمر الوجه.. غزير الشعر.. أجعده.. حليق الشارب متأنق إلى أبعد حد.. خفيف الحركة.. ذى عينان سوداوتان.. تتحركان فى محجريهما تعويضاً عن حركة رأسه.. بينما تشعان بريقاً يلخص حياة الفلاح النازح إلى المدينة لتلقى العلم والتحصيل.. بما فى

ذلك من الطيبة المشوبة بالدهاء.. المختلط بالمكر الفطرى..

كان يتمنى أن يكـون ضابطاً للشرطة.. إلا أن إصـابته بعمى الألوان كـانت سبباً فى رسـوبه طبيـاً حينما تقـدم.. للكلية.. ولقـد تحول إلى كليـة الحقوق ومع ضآلـة راتب مـوظفى الحكومـة.. فقـد تضاءل أيضـاً اهتمامـه بالتخـرج منهـا.. وكرس كل وقتـه للإشراف على الأراضى الزراعيـة.. والسفر إلى القاهرة لقضاء حـوائجه البريئة.. وغير البريئة..

أما عن علاقته بعنايات هانم فهى جديرة بالتأمل..

تزوج الشقيق الـراحل من عنايـات هانم رغم أنف الأهل بالبلـدة هناك.. لـذلك فقد ترسب فى أعماقه ضرورة رفضـه لها.. رفضه لانتسابها إلى أسرته المحافظة.. ولقد اتهم الفقيد بالبلـة والسذاجة..لوقوعـه فى حبائل عنايات هانم ومن ثم زواجـه منها.. ولقد تداولت الشـائعات قصة فحواها أنها غـررت به.. فورطته.. فلـم يجد مفراً غير الزواج منها.. ولقد كانت –فى زعمهم– سحر هى ثمرة هذا التغرير..

وعلى الرغم من أن عنـايات أبدت الاهتمام بكمال أثناء حياة أخيـه.. وتأكده من حب أخيه لها.. ورغم أنـه يكاد يقسم بأنه لم يـرى عليها ما يشين.. إلا أن هناك حـاجزاً غير مرئى بين كمال من جهة.. وبين عنايات هانم وسحر ابنة أخيه من جهة أخرى.. وحينما مات الشقيق.. سقط هذا الحاجز سقوطاً جزئياً.. مع سقوط تركة أخيه كلها بين يديه.. الأرض.. والزوجة.. وابنة الزوجة.. ورغم ذلك لم يغادره إحسـاسه بأنه يقطع جزء من لحمه مع كل دفعة نقود يدفعها إلى عنايـات.. مع شعور دائم بالدهشة حينما تقع عيناه على سحـر.. وقـد تحولت إلى زهـرة ربيعيـة المفـروض أن تكـون فى محل ابنتـه ذلك الإحساس بالبنوة المشوب بالحنان والإيثار.. ابداً لم يتغلغل إلى وجدانه..

أما ثالثهما فقد كان حسن بك أو أونكل حسن..

رجل نـاهز الخمسين من العمـر.. تزوج شقيقـة عنايـات.. شوشـو ذات الخامسة والعشرين ضدان تلاقيا ضد قانون الطبيعة.. إلا أن قوى التجاذب بينهما كانت شديدة لدرجـة حولتهما إلى وجهى عملة.. إن كـانت شوشـو هى الوجه.. كـان حسن بك هو خلفية الصورة.. التى تعطى لها الظلال والمعنى..

حسن بك طويل القامة.. فارع الطول.. شديد النحافة.. خفيف الشعر.. غائر العينان

يصبغ شعيرات رأسه بصفة مستمرة.. وبصفة مستمرة أيضاً.. يظهر فى منبت الشعيرات اللون الأبيض.. شديد الثراء.. وصل فى عمله إلى درجة المدير العام.. خدوم يبذل أقصى جهد فى خدمة الآخرين.. بشرط معرفة الطريق إلى إقناعه.. ولم يكن هذا الطريق.. إلا شوشو.. وكان يملك من الصفات العقلية والنفسية ما يجعله دائماً سعيداً هادئاً.. هدوء كامل وإن تزلزل العالم.. عقل بارد يفكر بهدوء ما الدنيا لديه إلا شيك وبنك.. على قد ر رصيدك إسحب شيكات.. يصرفها البنك على قدر الرصيد لا أزيد ولا أقل..

بهذه العقلية وهذا المنطق تزوج شوشو.. فالإنسان لديه شكل.. ومضمون.. المضمون يعنى الفكر والطموح.. وغرائز الحب والكراهية..

أما الشكل فهو الغلاف.. المقاييس الجسمانية.. والقيم الجمالية.. ومستويات الأناقة.. وزواجه من شوشو أقنعه أنه يملك الشكل.. يرعاه.. وينفق عليه ببذخ.. أما مضمونها فلا يملكه.. ويعرف تماماً رن رصيده لا يسمح له بغير امتلاك الشكل..

-.. الإنسان عمره فيه كام يوم عشان يعيش فى نكد؟؟..

كان ذلك شعاره الدائم.. بل الجملة الأثيرة لديه.. يقولها كتقرير حقائق.. ألف حقيقة.. وحقيقة.. فلا شيء فى العالم يساوى الحياة ساعة فى نكد؟؟..

إن جرس الباب.. ولازالت الجدران تردد صدى ضحكات الجمع المبتهج.. توجهت عنايات هانم إلى الباب مسرعة فى خطوات لها دبيب.. دلفت سحر.. متهدجة الأنفاس من أثار صعود السلم قفزاً.. وتوجهت إلى أمها بالسؤال:

-.. هو عندنا ضيوف يا ماما..

-.. مين يا عنايات.. انبعث صوت حسن بك المتهل..

-.. مين يا عنايات.. مين جه الساعة دى؟؟.. تعالت تساؤلات كمال.. ربتت عنايات كتف ابنتها فى حنان وقالت هامسة..

-.. ده عمك كمال وأونكل حسن.. ثم رفعت صوتها..

-.. أبداً يا جماعة.. دى سحر..

دلفت سحر إلى الأنتريه..

-.. أنا سحر يا عمى.. مساء الخير يـا أونكل.. دون كلام.. أدار حسن بك خده إليها فمالت عليه تقبله محدثـة صوتاً مسموعاً.. ثم ألقت جسدهـا النحيل على فوتيه وراحت تشارك وجدانياً الضاحكان..

-.. ما تتكلم يا حسن بك.. سكت ليه؟؟.. فأشار حسن بك من طرف خفى إلى سحر.. فاستطرد كمال..

-.. هى فيها حاجة دى.. والنبى لاتكمل يا حسن يـا بيه.. ثم رفع عقيرته منادياً.. يا عنايات.. عنايـات.. هرولت عنايات آتية من المطبخ ممسكة بيـدها فوطة صغيرة تجفف يديها.. فأدار حسن بك رأسه إلى عنايات بهدوء..

-.. عاوز يسمع يا ستى حكاية شوشو واللى عملته الجمعة اللى فاتت وإحنا رايحين الفيوم..

كالبالونات المنتفخة انفجـرت كل من عنايات وسحر فى ضحكات متصلة دمعت لها العيون وراحتا ترددان.. ياه.. دهّ كان حتة فصل..

-.. والنبى يا عنايات خليه يحكى.. الح كمال..

فأخذتـا ترجوان حسن بك أن يقص عليهم النـادرة التى وقعت الأسبوع الماضى فى حضورهما وتنازل حسن أخيراً وأخذ يقص:

-.. كنا يا سيدى يوم الجمعة اللى فاتت رايحين الفيـوم.. وخالتك شوشو يا سيدى ماسكة الكولمان وهات يا قـربعة.. تسيب الكولمان تمسك الترمس.. تسيب الشاى تاكل برتقـال.. المهم قبل ما نوصل الفيـوم كده بثـلاثين كيلو.. طلبت منى الوقـوف علشان تعمل توالت..

انفجر ثـلاثتهم فى ضحكات متواصلة.. فى حين راح حسن بك يكبت شبح ابتسـامة تولـد على شفتيه.. هدأت الضحكات وانتظـروا أن يكمل حسن بك.. مستعدين للضحك من جديد.. استطرد حسن بك..

-.. قلت ادخل الصحـرا.. أبص يمنيى.. أبص شمالى.. الأرض غـرز.. والعـربيـات رايحة جاية.. جاية رايحة.. أقول لها يا شوشو امسكى نفسك.. أبداً.. فاضل ربع ساعة ونوصل.. أبداً تتحايل عليها عنايات.. تتحايل عليها سحر.. أبداً.. تواليت يعنى تواليت..

أعمل إيه؟؟.. رحت راكن العربية على جنب وفتحت غطاء الموتور كانها عطلانة.. ووقفت عنايات على جنب وسحر على الجنب الثانى.. وأنا وقفت أراقب الطريق.. وخالتك شوشو راحت مقرفصة فى دواسة العربية وعملتها.. بعد ماخلصت جينا نركب.. العربية يابو كمال.. عايمة عوم.. قاطعته سحر وقد أمسكت أنفها قائلة.. والريحة.. إف..

انفجر الجميع فى نوبة جديدة من الضحك.. ومن خلال الدموع الضاحكة خرجت كلمات تطلب المزيد.. هيء.. وبعدين..

إبداً.. رحت فاتح شنطة العربية وواخد كوز.. وشمرت كمامى.. وفضلت أنزح المية نزح.. واللى زاد وغطى بقى.. واحد سواق تاكسى وقف جانبى وقاللى: أى مساعدة يا باشمهندز.. -ممثلاً تلك الكلمات بالصوت والحركة- إنخرط الجميع مرة أخرى فى الضحك.. ثم استطرد.. وكان حته يوم..

-.. أما شوشو دى.. عليها فصولات.. ردد كمال تلك الكلمات ولازال يتخيل شوشو جالسة القرفصاء.. فى حين حسن بك مشمراً عن أكمامه ينزح ماء البول بكوز..

نهضت عنايات.. وجلس الباقون.. كمال يدخن فى هدوء.. وحسن بك يستحلب شيئاً فى فمه بلذة كبرى.. وسحر.. تفكر فى لحظاتها الأخيرة.. لحظات وداعها.. لمحمود مختار.. بصوت مرتفع أعلنت عنايات هانم تمام تجهيز العشاء.. تدعو الضيوف.. نهض الجميع فى تكاسل.. حتى التقوا جميعاً حول منضدة الطعام.. نظر كمال بطرف عينيه إلى ابنة أخيه.. وهو يلوك مضغطه.. ومن خلال فمه النصف ممتلىء تساءل بلا اهتمام..

-.. كنتى فين يا سحر؟؟..

تبادلت سحر مع أمها نظرة سريعة.. وقذفت بقطعة من اللحم إلى فمها.. تمضغها لتعطى لنفسها فرصة للتفكير والرد.. دارت عينا عنايات هانم فى محجريهما بين حسن بك وكمال.. وقررت بكلمات سريعة:

-.. كانت مع تحية صاحبتها.. بتوصل أخوها المحطة..

بـدأ الاهتمام يعلـو وجـه كمال.. رويـداً.. رويـداً.. فى حين بـدأت أذنـا حسن بك فى الارتفاع لتتبع الحديث الدائر..

-.. أخو تحية.. مين ده؟؟..

-.. ده.. ضابط مؤدب قوى.. وابن حلال.. من عيلة كلها ناس طيبين..

-.. عمرى ماشفته؟؟..

ضحكت عنايات ضحكة مفتعلة وأردفت:

- حاتشوفه فين بس يا كمال؟؟.. ده شغله فى العريش.. ويادوب إجازة كام يوم كل شهر..

- طيب يا عنايات.. (تناول كوباً من الماء وأخذ يرشف منه بصوت عالى..)..

.. سحر ليه توصله.. هو من بقية عيلتنا؟؟..

-.. الله يـا كمال.. جيران.. أخته كانت رايحة توصلـه محطة القطر.. راحت معـاها سحر.. فيها إيه دى؟؟

رفع حسن بك رأسه ناظراً إلى كمال.. الذى صمت عن الكلام..

-.. بقولك إيه يا بو كمال..

-.. آمر يا حسن بك..

-.. هى سحر.. لما وصلت الضابط ده.. رجعت ناقصة رجل.. ولا إيد؟؟..

-.. لأ..؟؟..

-.. خلاص.. يـا أخى.. حاتنكد على نفسك وعلينا ليـه؟؟.. هو العمر فاضل فيـه كام يوم يابو كمال؟!..

وانتهزت عنايات نجدة حسن بك فانبرت تقول..

-.. والنبى يا كمال.. لو شفت محمود مختار ده.. لازم تحبه.. واندفعت سحر تؤيد أمها..

-.. أه.. والنبى يـا أونكل.. ده محمود.. مـؤدب.. وكويس قـوى.. قوى.. وكـان قد توصل إلى لب المشكلة ألقى كمال بالملعقة من يده قائلاً:

-.. تكونيش ناوية.. تجوزيه للبت..

-.. وليه لأ؟؟..

-.. ليه لأ؟؟..

-.. أيوة.. يا ريت.. مركز.. مرتب.. عيلة..

-.. أيوة يا عنايات.. بس البنت لسة صغيرة.. ما كملتش ١٧ سنة..

-.. يعنى حايتجوزها النهاردة.. أهي لسة قدامها كام سنة لغاية الثانوية العامة.. بعدين تتجوز على مهلها..

-.. يا عنايات يعنى البنت ح تحمض.. لما تفتحى عينيها على الحاجات دى؟؟..

-.. أمرك غريب يا كمال.. أمال نسيب الجدع لغاية لما يطير من إيدينا؟؟..

لف المنضدة صمت عميق.. لا يقطعه إلا صوت مضغات الأفواه.. وأخيراً فتح كمال فاه قائلاً:

-.. طيب..

أخرج علبة السجائر ناول كل من عنايات وحسن بك واحدة.. وأشعل لنفسه أخرى وراح الجميع يدخنون فى تلذذ.. صامت..

نهضت سحر.. وانهمكت فى رفع بقايا معركة الطعام.. ثم غادر كمال وحسن بك الدار على موعد بلقاء قريب.. شريطة أن تكون شوشو برفقة حسن بك..

دلفت الأم وابنتها إلى حجرة النوم.. ارتديا ثياب النوم ودلفتا إلى السرير.. سبحت الغرفة فى ضوء خافت.. وانقلبت كل منهن على جانبها لتواجه الأخرى..

-.. إحكى لى يا سحر.. عملتى إيه؟؟..

-.. فى إيه يا ماما؟؟

-.. يا بت فى كل حاجة.. من أول الساعة عشرة الصبح لغاية دلوقت..

- رحت عند تحية الصبح..

-.. إيه.. وكان محمود هناك؟؟

-.. أيوه..

-.. وبعدين؟؟

-قعدنا نتكلم..

-.. فى إيه..؟؟

-.. فى كل حاجة..

مع فضـول أمهـا.. راحت تلعب مع أمهـا لعبة التخـابث.. وقـد ارتسمت على فمهـا ابتسامة طفـولية خبيثة.. رفعت عنايـات كفها وضربت سحر ضربـة خفيفة على ردفها قائلة.. يا بت إتكلمى..

-.. حاضر.. حاضر يـا ماما.. محمود كان لابس البيجاما.. قابلنى بابتسـامة حلوة خالص.. كنت حـاطير من الفرح.. تحية كانت معـانا على طول.. قعدنـا نتكلم.. محمود نجح فى الفرقة اللى كـان بيدرسها.. وطلع الأول.. علشان طول عمره شـاطر.. بس كان زعلان علشان مسـافر.. أنا فضلت وراه لغايـة لما ضحك وبعدين ساعدتـه فى توضيب شنطة السفر.. كان كل مـا ينسى حاجة أفكره بيها..وكان مبسوط.. كـانت علية مامة محمود هى كمان زعلانة علشان محمود مسافر.. بس فرحت لما ضحكته.. اتغدينا كلنا مع بعض.. وبعد الغـدا نزلت أنا وتحية معـاه عشان نوصلـه المحطة.. قعدنا فى بـوفيه المحطة يطلع ربع ساعـة.. كان محمود ساكت.. وأنا بس اللى بتكلم.. البدلـة حلوة قوى عليه يا ماما.. النجوم على كتفه بتلمع.. والكاب.. ماشى قوى يا ماما مع شنبه الأصفر.. وبعدين طلب منى نمرة التليفون..

-.. وأديتهالو طبعاً يا سحر؟؟..

-.. طبعاً يـا ماما.. وهو قـال لتحية قدامى إنه حـايتصل بى علشان يتطمن عليهم.. وبعدين ركب القطر.. وسافر..

-.. هه.. وبعدين؟؟..

- بقولك سافر.. وبعدين إيه..

-.. طيب.. عملتى إيه.. لغاية لما جيتى هنا؟؟..

-.. رجعت تانى مع تحية على بيتهم.. كانت زعلانة خالص.. محمود كان مالى عليهم البيت.. كان بينام جنبها.. هى دلوقت حاتبقى لوحدها.. وتانت وأونكل مختار قالوا إنه حايوحشهم خالـص.. أنا قلت لهم.. إن محمود حايتصل بيهم عندنا.. وإحنـا ناخد منه ميعاد يتكلم وتكـون مامتـه وباباه عنـدنا يكلموه.. عنـد هذا الحد.. لم تتمالك عنـايات

نفسها.. فهبت جالسة.. ومرت بيدها على شعر سحر فى حنان قائلة:

-.. أهو كده بقى يا سحر يا بنتى.. لما أمه وأبوه ييجو لغاية هنا.. تبقى الحكاية رسمى خالص..

-.. حكاية إيه يا ماما.. الله..؟؟..

****

مع خيوط الفجر هبيت من نومى هادىء الأعصاب مستريح العضلات نشطاً مملوء النفس بالرغبة فى العمل.. استويت جالساً على حافة الفراش.. مستنداً على مرفقى الأيسر ماداً يدى اليمنى مفرودة الأصابع إلى ضلوع إبراهيم النائم فى السرير المقابل..

-.. إبراهيم.. إبراهيم.. قوم.. الصبح طلع..

تثاءب إبراهيم وتمطى كقط نائم.. وفتح نصف عين متسائلاً:

-.. هى الساعة كام دلوقت..

-.. قربنا على ستة ونصف..

بدون كلام سحب إبراهيم البطاطين على رأسه.. وراح يغط فى النوم مرة أخرى.. مددت.. أصابع قدمى أسفل السرير فى محاولة لاصطياد الشبشب.. تناولت فوطة الوجه وألقيتها على كتفى.. إنحنيت أسفل السرير وجذبت حقيبتى أخذت أقلبها رأساً على عقب منقباً عن أدوات نظافتى الشخصية.. فرشة الأسنان.. معجون الأسنان.. فرشة حلاقة الذقن.. ماكينة الحلاقة.. قلبتها عدة مرات وفشلت فى اكتشاف مكان أمواس الحلاقة.. فمددت يدى ألكز إبراهيم فى جانبه.

-.. إبراهيم.. عاوز موس حلاقة..

دون أن يرفع رأسه أو يتكلم.. مد يده خلال الأغطية وأشار أسفل سريره.. إنحنيت.. وتناولت حقيبة إبراهيم.. فتحتها ثم دسست يدى أنقب عن الأمواس.. فحولت عاليها سافلها ثم دفعتها مرة أخرى أسفل سرير إبراهيم منكوشة خارجة الأحشاء. فتحت الباب وخرجت ومن خلال الفتحة الضيقة هاجمت وجه إبراهيم حزمة من أشعة الشمس آتية من الشرق.. فبدأ يشعر بلسعة حرارة أزاح البطاطين عن رأسه.. وتململ قليلاً.. وبدأ يفتح عيناه رافعاً يده يحجب بها ضوء الشمس المباشر.. ثم استوى جالساً

دافعاً البطاطين على شكل كومة بلا معالم ونظر إلى سريرى.. قائلاً:

.. الله يخرب بيتك يا محمود يا مختار..

ثم إنحنى يرفع حقيبته خارجة الأحشاء.. ليستعد لطابور الصباح.. دلفت عبر الباب وأنا أجفف وجهى.. وشعر رأسى الخفيف بشدة..

-.. صباح الفل يابو خليل..

-.. صباح الهباب يا حضرة الضابط زفت.. هـو إنت يا بنى ضابط ولا بياع لبن؟؟.. عاوز تقوم إنت.. فز.. بس ما تقلقنيش يا أخى..

-.. هو الطابور الساعة كام؟؟..

-.. نوبة ضباط الساعة ثمانية إلا ربع..

-.. طيب يا أخى.. يا دوبك ـ لسة عاوز تحلق ذقنك.. وتلبس..

-.. يـا بنى الحاجات دى تـاخذ منى دقيقتين.. ولما أتـزنق دقيقة واحـدة.. أصحى بدرى ليه بقى؟؟..

-.. بدرى إيه.. فز بقى..

مستسلماً.. مبرطماً.. خـرج إبراهيم.. واخـرجت أنـا.. أفرول معتنى بكيـه.. منشى الياقة.. وحذاء يلمع.. وطاقية رأس جديدة تماماً.. وأخذت ارتدى ملابسى.. ثم تناولت ثلاثة أقلام جاف مختلفة الألوان.. وضعتها فى جيب ذراعى الأيسر.. وخرجت إلى الهواء الطلق..

رحت أتجول فى أنحاء المعسكر.. كمن يتذكر.. فأربعة أشهر بالقاهرة للدراسة كانت كافيـة كى أنسى اسمى.. وليس معالم المعسكـر فقط.. هذا مطبخ الجنـود.. ذلك المبنى الكالح الذى تعلـوه مدخنة صدئة وصهريج أكثـر قذارة وصدأ للوقود.. هـذه الغرفة.. هى مخزن التعيينات.. وتلك مخزن السلاح الشخصى.. وهذه للمهمات وتلك للذخيرة.. أما تلك الساحة الواسعـة التى تصطف فيها السيارات فهى الحملة.. شددت الخطى إلى الحملـة.. ومـا أدراك مـا الحملة.. أغـرب خليط من البشر فى أى وحـدة عسكـريـة على الإطلاق.. إلا أننى كنت أحمل مودة خاصة لسائقى الحملة.. خاصة العريف بسطاوى.. ذى الشارب الأحمر والقامة المديدة..

-.. بتشتغل إيه فى الملكية يا بسطاوى..

-.. جمّال يا فندم..

-.. جمال؟؟.. وإيه اللى جاب الجمال لسواقة اللوارى يا بسطاوى؟؟..

-.. أهى كلها سواقة يا فندم..

-.. يا واد سواقة الجمل زى سواقة العربية؟؟..

-.. أيوة يا فندم.. الجمل علشان يمشى يتعلف.. والعربية بتتعلف .. الجمل لازم يشرب.. والعربية بتشرب.. الجمل بتاعى يفهمنى وأفهمه.. والعربية كمان.. تفهمنى وأفهمها..

ولقد قام بسطاوى بتعليمى عملياً قيادة اللوريات أثناء خدمتنا معاً فى صدر الحيطان.. إن علاقة الضابط بجنوده.. تختلف من سلاح إلى سلاح أخر داخل القوات المسلحة.. لكنها أقوى علاقة وأمتن رابطة فى وحدات المدفعية المضادة للطائرات.. فالموقع عبارة عن دائرة لا يتجاوز قطرها الـ ستونَ متراً فى هذه المساحة الضيقة يعيش أكثر من سبعون إنساناً.. معظمهم من الجنود ومعهم ضابط واحد أو إثنان.. فالجنود جيران الضباط الأقربون.. وهم أقرب إليه من بناته.. الضابط يسمع زفرات الجنود.. يأكلون.. وينامون ويشربون متجاورين.. علاوة على التواجد الدائم لتلك الوحدات منعزلة عن باقى القوات لأنها التى تقوم بحمايتها.. وأيضاً بعيدة عن بعضها البعض.. فهى جزر بشرية منعزلة.. هذا الانعزال يزيد الضابط عزلة.. تلك العزلة المتزايدة تقربه أكثر وأكثر من جنوده.. وتصبح أدوار كل من بالموقع محفوظة محددة.. وبالتالى يدار العمل فى المواقع بالمعرفة الشخصية الوثيقة مابين الضباط والجنود.. بالحب والتفاهم أكثر من استخدام السلطة.. بذلك يصبح القائد أخاً للجنود.. معلم لهم أكثر منه آمر.. صديقاً أكثر منه متسلطاً.. وطالما الخدمة الإجبارية تشمل أبناء مصر كلهم.. فموقع المدفعية إذن يشتمل على كافة عناصر الشعب.. فالجمال إلى جوار النجار.. والتلميذ الفاشل إلى جوار المتعلم.. واللص إلى جوار الواعظ.. ولا أسرار فى موقع المدفعية المضادة للطائرات.

كان جندى الحراسة الذى انتهت نوبة حراسته مؤخراً.. خالعاً ملابسه باستثناء

الداخلية منها قذرة كالحة والحذاء البيادة مباعداً مابين ساقيه منحنياً ممسكاً كوزاً به ماء بيد وبالأخرى صابونة يسكب الماء ويحك شعراً كالليف..

أما باقى الجنود ففى حالة هرج ومرج.. وقد وقف الرقيب التابعى وعيناه نصف مغمضة وسترته خارج بنطاله.. وقد تدلى البيريه على جبهته صارخاً.. مهدداً.. متوعداً.. ووقع بصره علىّ فرفع يده بالتحية العسكرية..

-.. حمد الله على السلامة يا ح الضابط محمود..

-.. الله يسلمك ياتابعى..

ورفع عقيرته صائحاً.. إجمع.. إجمع إنت وهو..

وبدأ الجنود السائقين يتجمعون فى شكل طابور.. وما هو بالطابور.. يرتدون ملابس لها علاقة شبه بعيد بالزى العسكرى.. فلا يتفق إثنان منهما فى لون أو شكل أو تفصيل.. هذا يلبس حذاء.. والآخر صندل.. والثانى حذاء كاوتشوك.. أما الأحذية البيادة التى هى فى الأصل سوداء اللون لامعة.. فقد كانت فى اقدامهم بيضاء.. إلا من بقع زيتية هنا.. وهناك.. إنبرى التابعى صائحاً..

-.. لليمين.. در..

ودار الطابور لليمين كالآلة غير منتظمة الإيقاع.. فلا يدور الثانى حتى يدور الذى امامه.. وهكذا.. صحت قائلاً للتابعى:

-.. والله يا تابعى ده ولا طابور الأسرى..

شددت خطاى إلى أرض الطابور متجاهلاً تبريرات التابعى التى لا طائل ورائها.. تجمعت سرايا الكتيبة.. فى أرض الطابور بينما وقف الضباط ثنائيات يتجاذبون أطراف الحديث.. فبادرنى الجميع بالتحية.. ولمحت النقيب محمد عمار.. الذى تربطنى به علاقة حميمة.. زمالة يشوبها العرفان.. ذلك أنه أول من عملت تحت قيادته.. وقد علمنى دروس عملية وإنسانية لن أنساها أبداً.. بالنسبة لى كان صديقاً ألجأ إليه فى الملمات توجهت إليه هاشاً.. فقابلنى ماداً ذراعيه وعلى شفتيه ابتسامة عذبه مرحبة..

-.. ازيك يا محمود يا مختار.. إيه أخبارك.. وأخبار مصر..

-.. الحمد لله يا فندم.. والله مصر عاوزاك..

-.. وحشتنى.. بعد الطابور إبقى تعالى.. عاوزك..

-.. حاضر يا فندم..

ارتفع صوت البروجى لنوبة ضباط.. تجمع الضباط من أرجاء المعسكر.. وبدأنا نصطف مواجهين لطوابير السرايا.. وكل منا ينظر إلى يمينه يحدد موقعه الذى تسمح به أقدميته..

جاء الرائد ظريف قائد الكتيبة يضع تحت إبطه عصا ذات كعب نحاسى لامع.. وإلى جواره النقيب سمير.. رئيس العمليات.. فى حين وقف الملازم إبراهيم ممسكاً بورقة وقلم يحصى أعداد الجنود مابين موجود وإجازة وخلافه.. وسرعان مارفع إبراهيم رأسه وشد قامته وصاح:

-.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. ثابت..

عم أرجاء الكتيبة صمت مطبق الجميع شاخصاً إلى الأمام.. دار إبراهيم على عقبيه.. وقطع المسافة بينه وبين النقيب سمير عدواً.. وقف قبالته ومد إليه يده بورقة التمام ضارباً الأرض بكعب الحذاء رافعاً يده بالتحية العسكرية قائلاً.. تمام يا فندم الكتيبة.. دار على عقبيه مرة أخرى وفى خطوات واسعة وقف إلى جوارى..

صاح النقيب سمير.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. ثابت.. حضرات الضباط.. تفضلوا..

وبدأنا نتحرك كل أمام جنوده وتداخلت صيحات الضباط على سراياهم هنا وهناك.. سرية.. صفا.. سرية.. إنتباه..

بعدما هدأت الحركة صاح النقيب سمير.. ثابت.. ثم دار على عقبيه وأخذ يعدو إلى حيث قائد الكتيبة.. تمام يا فندم الكتيبة.. ثم دار على عقبيه ووقف مواجهاً طابور الكتيبة..

رفع القائد صوته منادياً.. كتيبة.. صفا..

تنفسنا الصعداء.. فالوقوف إنتباه مدة طويلة من شأنه الضغط بشدة على فقرات العامود الفقرى.. إلا أنه استطرد بصوت أكثر ارتفاعاً..

-.. إ.. نــ.. تباه.. طبعاً كلكم عارفين إن الكتيبة داخلة مسابقة ضرب نار مدفعية.. عاوز الأطقم تبذل أقصى مجهود فى التدريب.. طبعاً المنظر اللى شايفه ده ما يطمنش

أبداً.. العساكر زى الشحاتين.. الجزم قذرة.. القوايش تندهن طين أخضر.. عاوز المنظر ده يتغير.. حضرات الضباط واخدين تلقين كامل باللى يعملوه.. ورفع عصاته مهدداً..

دلع مش عاوز.. دلـع.. على طول.. وأشار بعصاته كسيف قاطع.. على طول دبح.. أقل غلطة من هنا ورايح ع السجن على طول..

-.. كتيبة.. صفا.. إنتباه.. دور..

رفع النقيب سمير يده بالتحية العسكرية صائحاً.. دور..

قمنا بالخروج بطوابير الجنود إلى أماكن التدريب حول الكتيبة.. وفى الساعة التاسعة.. اجتمعنا ثانية فى ميس الضباط..

جلس الرائد ظريف على رأس المائدة.. مطرقاً متجهماً.. جلسنا نحن مطرقين وضع جنود الميس لكل منا طعامه.. عدس ساخن وجبن.. وبيض.. بدأ القائد الأكل.. وتبعناه نأكل صامتين.. لم يكن الرائد ظريف يأكل كما نأكل.. بل يلتهم الطعام التهاماً.. دون أن يأخذ أقل فرصة لمضغه.. وفى دقائق أنهى طعامه.. وصفق بيديه صائحاً..

-.. القهوة يا جندى..

ووضع بين شفتيه سيجارة وراح يدخن ويرقبنا صامتاً.. فى حين أخذ يداعب شعيرات شاربه بين أصابع يده اليسرى.. رغم انكفائى على الطعام إلا إننى كنت أشعر بنظرات الرائد ظريف تخترق جلدى..

-.. أرجو يا حضرة الضابط محمود إن دى تكون آخر مرة.. أنا هنا ما أحبش الحال المايل.. الحال المايل أنا كفيل أعدله.. فاهم..

-.. فاهم يافندم..

-.. بالمناسبة النقيب سمير بلغك بمركزك الجديد؟

-.. أيوه يا فندم..

-.. أيوه إيه بس.. عرفت حاتحط المدافع فين؟؟..

-.. لا يا فندم لسة..

نهض الرائد ظريف وتوجه إلى نافذة الميس التى تطل على وادى العريش فى امتداده اللانهائى.. وأشار إلى أن أنهض.. فقفزت إلى جواره..

-.. شايف التبة العالية اللى هناك دى؟؟..

- أيوه يافندم.

-.. ده موقعك.. عاوز الموقع بكرة الصبح يكون جاهز. وأحب أفهمك حاجة علشان تكون على نور.. أنا مش من القادة اللى يخلصوا شغل م المكاتب.. يعنى فى أى وقت حاتلاقينى على دماغك.. مفهوم؟؟..

-.. مفهوم يا فندم..

صمت القائد.. وأخذ ينظر خلال النافذة.. وأنا أقف لا أدرى ماذا أصنع..

- واقف ليه.. ما تروح تنفذ الأمر..

لم يسبق لى قيادة هذه السرية.. ولا سرية مشابهة.. ولم أقم منفرداً باحتلال موقع جديد.. وقد كان درس الأمس بليغاً فلم أفتح فمى أطلب مشورة.. إلا أن النقيب محمد هب واقفاً كنجدة من السماء، حيث قال موجهاً كلامه إلى القائد:

-.. عن إذن سيادتك أروح أقدم محمود للسرية.. وأروح معاه لغاية الموقع.. ولقد كان يتمتع بنفوذ غير عادى.. ذلك لدماثة خلقه وحب الزملاء له.. علاوة على توليه مركز قلب هجوم فريق كرة القدم باللواء..

-.. طيب يا محمد.. روح معاه.. وفهمه.. وبعدين روح سريتك..

-.. حاضر يا فندم..

درنا على عقبينا.. وخرجنا من الباب إلى أرض الطابور.. وجاءنا صوت القائد صائحاً

-.. إيه.. ناويين تباتوا هنا؟؟.. فخرج الضباط مرة واحدة يتدافعون.. خطوات قليلة ووقف النقيب محمد وصاح منادياً على سرية الرشاشات.. ثوانى قليلة واجتمعت السرية على رأسها الرقيب دسوقى..

-.. تمام يا فندم السرية..

-.. خمس دقائق.. خمس دقائق بالعدد السرية تجهز للتحرك..

-.. للتحرك.. استعد.. انصراف.. صاح دسوقى فتفرقت السرية..

-.. روح يا دسوقى هات التابعى وتعالى.. وإنده على حلمى من سريتى.. جاء التابعى.. ووقف قباله النقيب محمد مذعوراً كالأرنب.. ابتدره محمد قائلاً:

-.. روح يا تابعى جهز سبع عربيات.. بقولك إيه.. أحسن سبع عربيات عندك.. ورفع قبضته فى وجه التابعى مهدداً.. ودينى يا تابعى لو عربية منهم عطلت لأجيبك أربطك فى المدفع تجره إنت.. فاهم؟؟

هرول التابعى لينفذ الأمر.

وحينما وصل الرقيب حلمى همس محمد فى أذنه بكلمات قليلة.. فشد خطاه إلى الحملة وخرج راكباً لورياً ضخماً واختفى به خلف المبنى..

سرعان ما خرجت من بوابة الحملة ست لوريات..

وفى خلال ربع الساعة كان هناك ستة لوريات كل منهم محملاً بذخيرة مدافع ومهمات الجنود وأطقم المدافع.. يجلس قائد كل مدفع إلى جوار السائق.. يجر خلفه مدفعاً رشاشاً ثقيلاً رباعياً.. قفز محمد في أول لورى وأنا إلى جواره.. بدأ الطابور الخروج من البوابة..

-.. يا فندم أنا نزلت مصر أربع شهور علشان أخذ فرقة إشارة وأرجع ضابط إشارة واستطلاع فى الكتيبة.. المدافع أى ضابط يمسكها..

-.. يا محمود يا مختار.. ده قرار قائد الكتيبة..

-.. طيب الكتيبة بعتانى ليه آخد فرقة.. وأغيب أربعة أشهر؟؟..

-.. والله.. هو.. حر..

درنا حول معسكر الكتيبة وبدأنا فى الولوج إلى وادى العريش..

أثارت السيارات سحابات كثيفة من الغبار.. بدأنا نقترب من الموقع المحدد.. ضغط محمد على دواسة الفرامل.. فوقفت السيارة.. ووقف الطابور خلفه.. اخذنا ننظر إلى التبة.. دارت رأسى وأنا أقول..

-.. يا نهار إسود.. دى يا فندم مقابر..

-.. أه يا أخى صحيح.. دى مقابر العريش..

نزل من السيارة صائحاً.. يا سمان.. جاءه جندى أسمر تتلألأ أسنانه البيضاء من خلال فمه المبتسم.. وتحت إبطه تليفون ساحباً خلفه سلك ميدانى..

-.. أفندم..

-.. هات قائد الكتيبة ع التليفون..

- حاضر يا فندم.. وأخذ يدور بيد التليفون دورات متصلة.. ألو.. عاوزين حضرة الصاغ.. لليوزباشى محمد.. بسرعة يا بدوى.. إنتزع محمد السماعة من يد السمان وصاح:

-.. أنا محمد يا واد يا بدوى.. هات حضرة الصاغ.. دقيقة واحدة..

أيوه يا فندم.. أنا محمد لا خير يا فندم.. أنا بتكلم من الموقع اللى سيادتك حددته للضابط محمود مختار.. التبه طلع عليها مقابر.. أيوه.. الظاهر إنها مقابر العريش كلها..

حول محمد رأسه ينظر إلى الأفق.. ثم استطرد-.. لا يا فندم.. مفيش ولا حتة عالية خالص.. مش ممكن نحط الموقع الناحية التانية.. الخطة تختل؟؟.. لازم هنا.. أمر سيادتك..

ألقى السماعة إلى يد السمان.. فتساءلت قلقاً..

-.. إيه يا فندم.. حاأحط الموقع جوة المقابر دى؟؟..

-.. أيوه؟؟.. ثم استطرد.. بدال ما تقف تتنح كده.. ارسم الموقع وإبدأ الحفر..

-.. حفر.. ده إحنا كده حاننبش القبور..

-.. بعدين نتكلم يا محمود.. بعدين.. ثم رفع صوته ملوحاً بكلتا يديه.. تقدم ..

هدرت المحركات وبدأت السيارات وخلفها المدافع فى الاصطاف أسفل تبة المقابر..

-.. الأطقم تجهز للاحتلال..

صعدت إلى التبة وبدأت ومعى الدسوقى فى تخطيط مواقع المدافع ورسم شكل كل دشمة مدفع على الأرض ليبدأ الجنود فى الحفر.. متفادياً ما أمكن شواهد القبور تحولت السرية إلى خلية نحل.. وحركة.. وارتفعت الكواريك تحفر الأرض.. وما هى إلا ساعة حتى تحولت ياقة أفورولى المنشاه إلى قطعة من العجين المختلط بالوحل والعرق اللزج.. لم يتبقى إلا تحديد محل إقامة قائد الموقع.. الذى هو أنا.. وعبثاً نحاول إيجاد مكاناً مناسباً وسط الموقع.. ولم يكن هناك مكاناً مناسباً غير إحدى المساحات أسفل التبة مباشرة.. إلا أنه يتوسطها قبر مبنى بالطوب.. فلم يكن هناك بداً من وضع خيمتى فوق

هذا القبر..

-.. يا حلمي.. عاوز أتفرج على خيمة ح الضابط محمـود.. مش حاأقولك ساعة زمن واحدة.. وحابص من الشباك..

تركني النقيب محمد على وعد باللقاء مساءًا.

قبل حلول الظـلام كانت جميع أعمال الحفر والتجهيـز قد تمت.. واختفت المدافع فى دشمها وتـلال الذخـائر فى حفرهـا.. والجنود تحت مشمعـات السيارات.. ولقـد جهز حلمي خيمتي على أفضل وجه ممكن.. وقد أقرضنى النقيب محمد حاجتى من الأثاث.. إلا أنه لم يكن لدى منضدة سوى مبنى القبر..

أخيراً دخلت خيمتي.. وأخرجت حاجياتى من الحقيبة ووضعتها فى الدولاب المعدنى الصغير.. ووضعت كتبـى على القبر المجـاور للسير.. كما وضـع مصبـــاح كيروسين للإضاءة.. ولم أكن يوماً لأحلم بأننى ساكـون من ساكنى القبور.. التى دوماً ما تبعث فى نفسى رهبة وخوف عميق.. ما أن هبط الظلام حتى اجتاحنى شعور جارف بالهلع.. وأخـــذت أدور.. وأدور بين أرجـــاء الخيمــة.. جف حلقـــى.. وتملكنى دوار.. وانطلقت كالـزوبعة خارجـاً.. كل شيء يلفه الظلام.. لا أكـاد أرى أصابعى.. على مسافــة بعيدة هناك أضواء المدينة.. وفى الجهة المقابلة.. أضواء معسكرات العريش.. وأنا وحدى يلفنى الظلام والهلع صحت منادياً..

-.. يا خدمة.. يا جندى يا خدمة..

-.. أفندم..

حددت مكان جنـدى الحراسة من خلال إتجاه الصوت.. أخذت أصعـد التبة.. أتفقد دشم المدافع والجنود.. أبعد عن نفسـى التوتر.. هب الرقيب دسوقى يرافقنى فى جولتى القصيرة..

-.. حمد لله على السلامة يا فندم.. شرفت السرية..

-.. شكراً يا دسوقى.. إنت ليه ماعينتش خدمة على خيمة قائد الموقع..

-.. حاتطلع حالاً يا فندم.. يا دوب بس لسة مخلصين شغل..

-.. خلى السمان يتصل بالنقيب محمد ويجيب التليفون فوراً..

حاولت تحديد اتجاه خيمتى فى الظلام.. وقد استعدت رباطة جاشى وهدوئى.. دخلت الخيمة جلست على طرف السرير منتظراً.. جاءنى السمان وتحت إبطه التليفون.. ماداً إلى السماعة قائلاً.. النقيب محمد ع التليفون يا فندم..

–.. ألو.. مساء الخير يا فندم.. أنا لسة منتظر سيادتك..

–..........

.. لأ.. يعنى حضرتك نازل بكرة.. لا.. لا.. إجازة سعيدة بإذن الله..

–...........

–.. فى رعاية الله يا فندم.. وألف شكر.. مأمورية سعيدة بإذن الله.. خرج السمان.. وبدأت فى خلع ملابسى.. وارتديت بيجاما للنوم.. سمعت صوت خطوات جندى الحراسة فى الخارج.. وعلى رتابه وقع الخطوات.. رحت فى سبات عميق..

****

مضى علىّ أسبوع وأنا وحيداً فى الموقع لم يفكر أحداً من الضباط فى زيارتى.. واقتصرت علاقاتى مع العالم الخارجى على التليفون.. لا عمل لنا إلا التدريب.. من السابعة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر.. ورغم أن السرية بها ستون جندياً.. إلا أن هذا العدد نظرياً فقط على الورق.. فعادة لا يحضر طابور التدريب إلا ثمانية أو تسعة جنود على الأكثر.. فى حين أن باقى الجنود موزعين مابين أطقم خدمة قتال على المدافع.. وبين جنود حراسة.. وجنود طُلبة.. وهنا تجدر الإشارة إلى جنود الطُلبة..

إن جندى الطُلبة هو ذلك الجندى الذى يقوم بخدمات عامة تستفيد منها الوحدة كلها، فالطُلبة يجلبون المياه فى جراكن يحملونها على الأعناق من مسافة بعيدة.. وهم الذين يحضرون طعام الجنود بالموقع مجمعاً فى حاويات يحملونها ثنائيات.. وهم الذين يقومون بنظافة الأرز والبقول من عوالقها.. وقد يكون من أطرف المشاهد تلك التى لمجموعة من الجنود الطُلبة المقبلين على كومة من الأرز ينظفون بعضه ويهدرون معظمه..

.. ولاشك إن الوحدة النظيفة المظهر هى تلك التى لديها من ينتقى جنود الطُلبة ويديرهم بكفاءة.. ولقد كان نصيب سريتى من جنود الطُلبة الذين يخدمون الكتيبة هو

نصيب الأسد..

وماذا عساك تقول كل يوم لمدة ثمانى ساعات فى شرح مدفع بسيط التكوين؟؟.. لجنود يعملون فعلاً على المدفع لمدة ثلاثة أو أربع سنوات متصلة.. فحكمدار طاقم المدفع يقوم بشرحه.. والضابط يقف يستمع ليتدخل لزيادة إيضاح أي نقطة قد تكون غامضة!!..

وبالتكرار يتحول الطابور إلى إسطوانة.. يلقيها العريف على مسامع الجنود.. الذين لا يسألون.. فى حين يراقب الضابط الموقف ضجراً.. ويزجر أحدهم.. أو يصدر أمراً تافهاً لقطع الملل..

أما بالنسبة لخيمتى.. فلقد قدم لى أهل الميت خدمة مادارت بخلدهم أبداً.. تحول القبر فعلياً إلى مكتب.. وضعت خلفه كرسى.. وفوقه الكتب والأقلام والدفاتر والتليفون.. أما ليلاً.. فقد كانت تنتابنى لحظات أتمنى فيها أن يهب الميت من قبره ملتفاً بأكفانه البيضاء لنتبادل أطراف الحديث..

العريش مدينة صغيرة.. ولسبب ما.. موتاها كثيرون.. ويومياً كانت تهل علينا طوابير جنائزية.. بكل مافى الموت من رهبة وجلال.. وبكل ما يلازمه من حزن وألم.. بعد انصرام أسبوع تبلد شعورى تماماً.. وأصبحت صيحات الولولة أناشيد فى أذنى بلغات أخرى لا أفهمها.. ولقد كانت تجربتى الأولى مع الموت.. والموتى.. فى هذا المساء.. أويت إلى فراشى مبكراً.. نمت أحلم.. بأمى.. وأبى.. وأختى.. وسحر.. صعدت من بئر النوم إلى شبه اليقظة مع صوت سيارة تكافح الرمال الناعمة آتية.. وسرعان ما توقف صوت المحرك بالقرب من الخيمة.. فتحت ضلفتى الخيمة.. وسلط على وجهى ضوء مصباح قوى.. أخفيت عينى كالفأر وجاءنى صوت إبراهيم–مساء الخير يا مخ..

–.. أهلاً يابو خليل.. جبت البطارية..

–.. يا بنى فيه حد يشترى بطارية بأربع حجارة؟؟.. دى عاملة زى كشاف الديزل..

–.. أعمل إيه يا إبراهيم يا أخويا فى الهو ده ما ينفعش بطارية صغيرة الواحد عشان يمشى لازم يشوف قدامه بكيلو.. وأهو الواحد برضه يحس إن فيه ونس..

–.. ونس.. تحط موقع جوة المقابر وتقول ونس.. واللى زيك يابنى عاوز ونس.. ده

الـواحد يـدخل خيمتك دى جتته بتتلبش.. عـامل مقبرة مكتب.. وعاوزنى أصـدق إنك عاوز ونس..

أخذ يدور رأسه فى أرجاء الخيمة.. ثم إردف بامتعاض قائلاً:

-.. أنا عارف إنت إزاى عايش هنا..

-.. يعنى حاأعمل إيه يابو خليل.. أوامر القائد يا سيدى..

-.. على رأيك.. الله يكون فى عونك يا مخ..

-.. عملتوا إيه فى المسابقة؟؟..

-.. قصدك يعنى ضرب نار المدافع؟؟.

-.. أيوه..

-..لأ.. دى مش مسابقة.. ده تدريب سنوى.. مجود تدريب عادى..

-.. أمال ليه سمتوه مسابقة؟؟..

-.. علشان بيبقى فيه ترتيب من الكتيبة الأولى.. والثانية.. وفيه جوائز.. وكمان فيه جزاءات..

-.. وأنا.. مدافعى حاتشترك يا إبراهيم..

-.. لا يا بنى.. الرشاشات السنة دى لأ.. من كل سرية مدافع.. حاناخد مدفعين..

-.. طيب وده كلام؟؟..

-.. بينى وبينك.. لأ مش كـلام.. من كل ستـة مدافع بيضرب إثنين بس.. كل مـدفع بيضرب سبع طلقات.. وعلشـان الكتيبة تجيب تقديـر كويس.. لازم يضرب على المدافع أحسن عساكـر.. اللى هما الحكمدارية النـاس اللى فاهمة وضربت قبل كـده.. يعنى فيه عساكر عندنا دخلت الجيش من ثلاث سنين.. وهاتخرج عمرها ماسمعت صوت مدفع بيضرب..

-.. طيب وباقى المدافع إزاى نختبرها؟؟..

-.. يا سيدى عننا ما اختبرناها.. باقولك إيه.. إلبس هدومك بسرعة..

-.. خير يابو خليل..

-.. فيه مؤتمر دلوقت فى سيما العريش.. ومعايا العربية برة أهى..

-.. وأنا.. جى معاكم..

-.. أيوه يا سيدى.. الفريق محمد فوزى رئيس الأركان جى المؤتمر وكل الضباط اللى مش نوباتجية لازم تحضر.. يالله بقى.. بلاش لكاعة..

- فى دقيقتين كنت مستعداً.. بينا يابو خليل..

لقد كانت رغبتى فى الخروج من الموقع عارمة.. وكنت مستعداً للتوجه إلى أى مكان خارج الموقع حتى ولو كان مؤتمراً للفريق فوزى..

فنحن نعرف الفريق فوزى عن بعد.. كما يقولون من بعيد لبعيد.. فقد كان مديراً للكلية الحربية أثناء دراستى بها.. ولا أذكر أننى نظرت إلى عيناه إلا مرة واحدة.. ذلك أثناء كشف الهيئة بالكلية.. عيون صارمة.. عميقة.. ووجه حفرت عليه السنين أخاديد طولية عميقة.. فى انتظام عجيب.. حتى غدا وجه سيادته مستطيلاً فيه جمود وقسوة.. ولقد كان لا يعرف فى الضبط والربط لائمة لائم.. فالمخطىء الذى يسوقه سوء طالعه إليه.. فالطرد من الكلية أمر قائم.. والرسوب أمر مفروغ منه.. ورغم تخرجنا من الكلية.. إلا أن سطوة سيادته علينا كانت شيئاً قدرياً بالنسبة لنا.. فوق مستوى إرادتنا.. وأكاد أجزم.. بأننى لولا ظروف هذا الموقع اللعين.. لانتحلت ألف عذر للتخلف عن الحضور لهذا المؤتمر الموسع..

وصلنا أخيراً إلى حيث سينما المعسكرات.. اللوريات والعربات الجيب تصطف فى صفوف منتظمة أمام السينما.. وقد تناثر بعض رجال الشرطة العسكرية يقومون بتوجيه السيارات للانتظار فى شكل هندسى منتظم..

على البوابة الرئيسية حلقات من الضباط.. وعلى أطراف أصابعنا تقدمنا من حلقة ضباط كتيبتنا الرائد ظريف يقف وحوله النقيب سمير وباقى الضباط والجميع فى مستوى أناقة غير عادى.. نظر القائد إلى النقيب سمير هامساً..

-.. كله تمام يا سمير؟؟..

-.. تمام يا فندم مفيش حد ناقص..

واجهنا القائد مخاطباً إيانا معاً:

-.. كل واحد يقعد فى كرسيه ولا حركة.. ولا ضحكة.. اللى بيدخن ينسى السجائر

خــالص أى محاضر يتكلم نسمــع.. وبس.. حــد يقــول أى أسئلــة مـــالنــاش دعــوة.. فاهمين؟؟..

-.. فاهمين يا فندم..

-.. عاوز اليــوم ده يعدى على خير.. اللى حــايعمل حاجــة كده ولا كــده.. ورفع يده اليمنى فى وجوهنا مهدداً قائلاً.. يشرفنى لا أوريــه.. لم يعلق أحدنا بكلمة.. فماذا عسانا نقول؟؟.. فكلنا ينشد السلامة..

الجو العام يسرى فيــه شيئاً كــالكهرباء.. والتــوتر.. وألف ســؤال وسؤال يتردد فى رؤوسنا جميعاً.. ترى.. بماذا سوف يخبرنــا الفريق فوزى.. ورحت أردد هامساً بينى وبين نفسى.. يارب أستر يا رب..

امتلأت صالة السينما بــالجنود والضباط.. وانتقى لنا القائد مكــاناً فى أحد الأجناب يعلــوه مباشرة مصبــاح كهربــائى محطم.. وبجانبنــا تماماً مكبر صــوت.. قال القــائد منشرحاً.. أهو كده.. نبقى سامعين كل حاجة..

بعــد قليل صعــد العميــد قائد اللــواء إلى خشبــة المسرح الــذى وضعت عليــه بعض المناضلد العالية والكراسى.. والميكروفونات.. صاح قائد اللواء بصوت جمهورى..

...... إنتباه..

وقف الجميع قفــزاً.. وعم السينما صمت مطبق كامل.. ومــرت لحظات ثقيلــة.. دار قائد اللواء على عقبيه وواجه الباب الجانبى.. رفع يده بالتحية العسكرية.. فى حين اقترب الفريق فوزى ومعــه لفيف من كبار الضباط والمساعــدين.. جلس أولاً.. ثم جلس باقى كبــار الضبــاط.. رفع الفريــق فوزى يــده اليمنى وأخفضهــا عــدة مــرات أمراً إيــانــا بــالجلوس.. بــدأت حركــة الجلوس العــام.. كــالتيار الكهــربائى تسرى من الصفــوف الأمامية إلى الخلفية..

بدأ صـــوت الفريق عميقاً قــوياً عن التدريب.. والروح المعنــوية.. وعن حرب قــواتنا المسلحة فى اليمن.. وأنــذرنا سيــادته بأن لواءنــا سيســافــر إلى اليمن فى منتصف شهر مايو.. أى خلال خمسة عشرة يوماً من اليوم..

وأخيراً وصل سيادته إلى النقطة الأســاسية من المؤتمر كله حيث قال:

-.. نحن بلـد فقير.. فقير.. ونحن أول من يساعـد على ضغط نفقات الـدولة إلى الحد الأدنى معنى ذلك ضغط استهلاك وقود السيارات.. أى سيارة تخرج دون داعى قوى.. الشرطة العسكريـة ستقوم بالقبض عليها فوراً.. أى مشوار يـروحه الضابط يمشـى.. المشى رياضة.. الـذخيرة.. يجب إقـلال استهلاك الـذخيرة.. لـو تمرين ينضرب أربع طلقات.. يبقـى كفاية اثنين.. لـو شديتـو حيلكم على التدريـب بدون ذخيرة حاتـوصل لأحسن نتيجة..

كان معنى كلمات سيادتـه إننى لن أغادر موقعى عملياً إلا للتـوجه إلى اليمن.. ولن أطمع فى زيارة زميل أو صديق.. فمن ذا الذى يقطع ثلاثة كيلو مترات فى وادى العريش سيراً على الأقـدام.. لزيـارتى؟؟.. وحمدت الله بأننى سـوف أسافـر إلى اليمن.. وكنت مستعداً للسفر إلى الجحيم بدلاً من هذا الموقع الذى كرهته من أعماق قلبى..

وأخيراً وصل سيادته إلى آخر المؤتمر ملقياً بالجملة التقليدية..

-.. أى أسئلة؟؟.. وراح يتطلع إلى الـوجوه.. الجميع فى صمت مطبق.. ووجدنـا أحد الأيادى ترتفع.. وتحركت الرؤوس لترى هذا الفدائى صـاحب هذه اليد المرفوعة.. لمحه السيد الفريق فصاح به قائلاً: اتفضل..

-.. يـا فندم الأيـام دى.. القطارات بتتأخـر علشان السكـة الحديد فيهـا تصليح.. والتأخير ده بيضيع يوم من الإجـازة الشهريـة.. علشان كده بنـرجو سيـادتك فى يوم زيادة فوق الإجازة..

-.. اسمك.. ورتبتك.. ووحدتك..

فتح أحد مساعدى الفريق فوزى نوتـة صغيرة وأخذ يدون ما صاح به الضابط من بيانات.. ولقد كـان أحد ضباط المحطة العسكرية وليس زميـلاً لنا من اللواء.. استطرد الفريق فوزى..

-.. يحرم من الإجازة لمدة ثلاثة أشهر.. حتى يتم إصلاح الخط الحديدى.. وأشار له بيده أن يجلس.. ثم استطرد.. أى أسئلة؟؟..

وبالطبع لم تكن هناك أى أسئلة..

انتهى المؤتمر.. وخرجنا من السينما مطرقين.. نظر إلينا القائد ظافراً وقال:

-.. شايفين؟؟.. وكان يقصد ذلك الضابط التعس الذى وجه السؤال.. وكان لسان حالى يقول:

-.. الله يكون فى عونه..

كما حضرنا إلى المؤتمر.. رجعنا أنا وإبراهيم جالسين جوار سائق اللورى.. صامتين.. وحينما وصلنا إلى خيمتى وأضاءت مصباح الكيروسين ابتدرت إبراهيم.

-.. مالك يابو خليل..

-.. أبداً.. بس خبر وحش قوى.

-.. إيه.. الجزاء اللى خده الضابط ده.. الله يكون فى عونه..

-.. لا.. السفر..

-.. السفر لليمن؟؟.. ده أحسن خبر سمعته فى حياتى.. على الأقل حاسيب المقابر دى.. وكمان المرتب حاينضرب فى ثلاثة.. والواحد يعرف يتجوز..

-.. طيب نحاربهم ليه؟؟..

-.. هما مين..

-.. نحارب فى اليمن ليه؟؟..

-.. من إمتى اتعلمنا نسأل يابو خليل؟؟..

-.. بس الحرب دى حرام..

-.. لا.. بقولك إيه.. بلا حرام.. بلا حلال.. متدخلش المشيخة فى الجيش..

-.. مشيخة إيه؟؟.. مسلم يقتل مسلم.. الاثنين فى النار..

-.. بقولك إيه يا وله.. أمر ولازم حايتنفذ.. روح احتل موقع فى مقابر العريش.. حاضر.. روح احتل موقع فى اليمن حاضر.. اللى يعترضك افتح عليه النار.. حاضر.. حاجة مش عاوزة مناقشة..

-.. فعلاً.. مافيهاش مناقشة.. نهض إبراهيم.. وأردف.. طب عن إذنك..

اختفت جلبة سيارة إبراهيم.. وجلست حائراً.. فقد كانت لهجة إبراهيم مليئة بالأسى.. لكننى لم أستطع فهم منطقه..

إننا كالسيارة.. محرك وعجلات وفرامل وبنزين قائد السيارة هو الوحيد الذى

يتحكم فيها أين تتجه.. ومتى.. وكيف.. وكل الضباط والجنود ماهم إلا تروسا صغيرة فى تلك السيارة.. كيف يكون لها رأى فى كيفية واتجاه توجيهها؟؟؟

****

وقفت تحية تحتضن حقيبة المدرسة بين ذراعيها كطفل صغير.. رفعت رأسها إلى أعلى منادية.. سحر.. سحر..

صديقتان.. منذ مدة طويلة.. جمعت بينهن سنوات الطفولة المبكرة.. زميلتا دراسة من المدرسة الابتدائية.. ثم الإعدادية.. ثم الثانوية.. دائماً معاً.. فى الجد واللهو معاً.. والمذاكرة معاً.. وكثيراً ماتدخلت عنايات هانم لدى إدارة المدرسة لنقل إحداهن إلى فصل الأخرى ليجتمع شملهن.. ورغم هذا الترابط بين الصديقتان إلا أن ظروفهن مختلفة كل الاختلاف..

تحية لها أخ.. هو الملازم محمود.. أما سحر فلا إخوة لها.. تحية تعيش بين أبويها.. وسحر تعيش مع أمها فقط .. مات أبوها وتركها طفلة صغيرة.. تحية تعرف معنى عطف الرجل الأب.. أما سحر فالرجال بالنسبة إليها سواء.. أونكل كمال.. أو أونكل حسن.. كلاهما رجلا يحدب عليها.. ويعطف.. وإن كان حدباً وعطفاً من نوع مختلف.. عن ذلك الإشعاع العجيب الذى ينبعث من عين عم مختار أو أونكل مختار كما تحب أن تناديه سحر..

وهذا الفرق الشاسع مابين تانت عليه أم تحية وعنايات أمها.. فتانت عليه فى طرحتها البيضاء وثوبها المنزلى البسيط وتصرفاتها.. يعطيها إحساس بالأمومة الأبدية.. تلك النظرات الحنون المنطفئة.. غير تلك النظرات البراقة اللامعة التى تشع من عينى عنايات..

برزت سحر من خلال الممر الضيق الذى يفصل الشارع عن المنزل.. بخطوات قصيرة سريعة رشيقة.. أصبحت إلى جوار تحية.. يسبقها نهدن متمردان مشرئبان نميا قبل ميعادهما كثيراً..

تشابكت الأيدى.. سارتا معاً على الطريق إلى المدرسة..

-.. كنت لازم أوصلك إمبارح يا سحر.. علشان إتأخرتى قوى عندنا..

-.. ولا يهمك.. ما أنا قلت لماما..

-.. قلتى إنك جيتى معايا نوصل محمود؟؟..

-.. طبعاً.. هو إحنا غرب عن بعض يا تحية؟؟.. وبعدين محمود ده زى أخويا.. وأونكل مختار زى بابا تمام..

غمر تحية طوفان من الحنان.. فقد ضربت سحر على وترها الحساس.. اليتم.... يتم سحر.. الذى غير قلوب أسرة مختار.. أصبحت سحر من خلال هذا المدخل.. وهذا المدخل فقط.. جزءًا من الأسرة..

بدأت مجموعات التلميذات تتزايد.. يسرن فى مجموعات متشابهة.. متشابكة الأزرع اقتربت ليلى فهمى وصاحت.. سحر.. تعالى..

-تركت سحر يد تحية وألقت إليها بابتسامة.. ومالت فى اتجاه ليلى..

-.. مين يا سحر الضابط الحلو اللى كنتى ماشية معاه إمبارح ده؟؟..

-.. حلو يا ليلى والنبى؟؟..

-.. قمر.. والبدلة حاتنطق عليه.. واللا الكاب.. الكاب حاياكل من جبينه حتة..

لكزتها سحر وهى تكبح خروج ضحكة سعيدة.. حيلك.. حيلك..

-.. حيلى ده إيه يا بت.. هو أنتى ناوية تكوشى ع الكل؟؟..

-.. أكوش.. إيه أكوش دى يا ليلى..

-.. خشى فى عبى يا بت..

-.. أخش إيه.. وأكوش على إيه..

-.. إيه.. الواد جاركم ده بتاع معهد التربية.. إيه جاتستعبطى؟؟

-.. مين.. قصدك مصطفى؟؟..

-.. الله.. هو اسمه مصطفى؟؟.. اسمعى يا بت.. خليكى إنتى فى بتاع الكورة ده.. وادينى الضابط..

-.. نعم يا ختى.. وتصاعدت الضحكات المكتومة..

-.. طيب بلاش.. هاتى بتاع الكورة.. وخليلك الضابط..

ضحكت سحر من الأعماق.. كأنها تردد كلمات حسن بك.. هو العمر فيه كام يوم

عشان نعيش فى نكد؟؟..

سحر تحس بشكل ما بالضياع.. هى فى السابعة عشرة.. تحمل على كتفيها حملاً ثقيلاً.. إحساس مبكر بالهرم.. نتج عن الخوف المرضى من المستقبل إن قلق عنايات المزمن وخوفها الدائم من انهيار مستوى معيشتها.. انتقل بشكل آلى إلى سحر.. فالقلق من الأمراض المعدية.. خاصة إذا كان مزمناً.. الأمر الذى جعل تفكيرهن مبرمجاً بشكل طبيعى للبحث عن الحل.. والحل البديل معاً وفى نفس الوقت وعند مواجهة أى مشكلة..

مع جرس المدرسة.. انتظمت الفتيات فى الفصول.. إلا أن طيف محمود مختار ظل مسيطراً على رأس سحر.. لا تدرى هى كيف.. ولا لماذا..

إن القلب الأبيض الصغير.. قليل التجربة.. وقلة التجربة أقصر الأمور للضلال.. هى إلى جوار محمود تصبح فى قمة السعادة.. وحينما تلتقى بمصطفى تطير من الأرض.. مع محمود تشعر بالأمن والأمان.. مع مصطفى تشعر بالحرية والانطلاق.. كل منهم يعطيها جانباً تحتاج إليه مصطفى يعطيها الابتسامة.. وأحلى الكلمات.. التى تفهم بعضها.. وتجهل ماوراء معظمها مع مختار تسبح فى حلم المنزل.. والزوج.. والاستقرار.. لكن من تحب؟؟.. ماالحب؟؟ ماتقوله ماما.. البيت والزوج.. والفلوس.. والاستقرار؟؟.. أو ما تمارسه شوشو.. الانطلاق والضحك.. والملابس والسهرات.. والعمر فيه كام يوم علشان الواحد يعيش فى نكد؟؟.. إنها يقيناً لا تدرى حقيقة هل هى تحب أم لا؟؟

الحب عند عنايات.. يجب أن يكون خطوة على الطريق إلى الامان.. حب ذى مدلول شامل هولامى.. غير محدد المعالم بشكل قاطع.. مرن.. ورغم هذه الهولامية إلا أن شروطه تكاد تعطيه شكل مجرد.. شكل مادى بحت.. ورغم حاجز الأمومة.. أصبحت سحر على يديها.. امرأة مضموناً.. امرأة تحاول أن تفكر.. وأن يكون لها منطقة حدود خاصة.. يدور فى رأسها الصغير ألف سؤال.. هذه الأسئلة لم يكن ليستطيع الرد عليها إلا تانت شوشو.. المسافة العمرية بينهن لا تتجاوز الثمانى سنوات.. ذلك بالإضافة إنها خالتها بحكم القرابة.. فهى الصديقة الكبرى بحكم الواقع.. هى التى أجابتها.. وأدخلتها إلى عالم المرأة.. ورفعت حجب الغيب والأحلام عن ثنائية العلاقة.. الرجل..

والمرأة.. تلك التركيبة العفوية غرست شيئاً فى سحر.. القلق.. مع سنين الطفولة.. مع معرفة مبكرة لأسرار الجنس.. تلك الحياة مع أرملة ضجرة فى جانب وزوجة كهل مزطلقة إلى أبعد الحدود.. وكهل يريد أن يعيش بدون نكد بأى ثمن.. ومهما كان الثمن..

تحية كانت شاخصة ببصرها إلى السبورة السوداء تتابع خطوط متقاطعة لمثلثات ودوائر.. ترسمها مدرسة الهندسة.. أما رأسها فقد رحل بعيداً..

.. ودعت محمود.. الصديق والأخ.. لم تكن تقدر قبل الامس كم كان هاماً بالنسبة لحياتها.. يوم كان محمود بالكلية الحربية كانت طفلة صغيرة.. وبعد تخرجه من الكلية وزياراته للمنزل كالضيوف.. تعودت على العلاقة البعيدة.. حتى بعد تخرجه سفره الدائم جعله بالنسبة لها ضيف.. هو أخ.. لكنه عملياً ضيفاً يأتى.. كى يرحل سريعاً..

أربعة أشهر قضاها محمود إلى جوارها.. يخرجان معاً صباحاً.. ويعودان ظهراً.. تذاكر.. ويذاكر هو.. هالة الضيف التى كانت تحيطه.. إنزاحت قليلاً.. وظهر خلفها أخيها الإنسان.. تلك الساعة فى يدها.. هدية محمود فى عيد الميلاد.. بحكم النشأة لم تتعود على هدايا عيد ميلادها.. الأسرة لا تعرف الهدايا.. فقط تعرف الاحتياج ملابس.. كتب.. مصروف.. كل شيء مجاب وفى توقيته الملائم.. حتى الأساور الذهبية.. تشتريها أمها.. قائلة: علشان البنت تبقى مستورة..

أما الهدايا.. فتلك أول مرة.. ومن أخيها..

انتهى اليوم الدراسى.. كما دخلتاه الصديقتان.. خرجتا منه.. لا يدريان شيئاً عما قيل.. افترقتا كما تجمعتا أمام منزل سحر.. وحثت تحية خطاها إلى المنزل..

ضغط على الجرس.. جاوبتها وقع أقدام أمها.. فتحت الباب وقد غطت وجهها بالطرحة البيضاء.. أهلاً يا ضنايا..

قرأت فى صوت أمها.. صدى دموع.. أو صوت الباب بشدة وألقت حقيبتها.. وألقت نفسها فى أحضان أمها.. التى انخرطت فى البكاء.. فبكت تحية هى الأخرى.. فبكاء أمها أمر فوق طاقتها على الاحتمال.. تلك السيدة.. دائماً ما تختزن أحزنها داخلها.. أما خارجها ولأسرتها.. فالابتسامة الدائمة.. من خلال دموعها راحت ترجو أمها..

-.. ماما.. والنبى.. ما تعيطيش.. بلاش عياط.. قوليلى مالك...

أبعدتها عنها.. وبطرف الطرحة مسحت دموعها.. وربتت ظهر ابنتها فى حنان..

-.. خلاص يا تحية.. انا بطلت أعيط.. كفاية إنتى بقى..

-.. طيب قوليلى.. فيه إيه..

-.. أروح أجهزلك الغدا..

-.. لأ.. قولى الأول..

جذبت أمها من يدها وجلستا على كنبة الأنتريه متجاورتين..

-.. إيه بقى.. فيه إيه..

-.. عمك يا تحية..

قفزت تحية فزعة صائحة.. عمى شعبان؟؟.. ماله..

-.. خدوه..

-.. مين خدوه يا ماما؟؟

-.. جه البوليس الحربى بالليل.. وحدوه ع السجن..

-.. السجن ليه؟؟

- أل م الإخوان المسلمين..

-.. وهو عمى شعبان من الإخوان المسلمين؟؟

-.. ابداً.. ده حتى عمره ماركعها..

-.. وهما بياخدوا اللى بيصلوا بس؟؟.

-.. بيصلوا.. على ما بيصلوش.. أهم نازلين فى الناس لم..

تلفتت تحية حولها متوجسة.. أمال بابا فين..

انخرطت فى بكاء مر.. ومن خلال دموعها إنسابت كلماتها ضارعة..

-.. راح يشوف لعمك تصريفة.. وللا واسطة تطلعه م الرامية دى.. ورفعت يداها إلى السماء شاكية ضارعة..

-.. ليه يارب بس.. ده إحنا بنعبدك.. وعمرنا ما عملنا فى حد حاجة وحشة.. نتبهدل على أخر الزمن.. يارب هات العواقب سليمة يارب..

رن جرس الباب رنات متصلة.. قلقة.. فارغة الصبر.. نظرن معاً إلى الباب فى خوف

ووجل.. وارتفع صوت عليه بالدعاء والرجاء..

-.. يارب استرها معانا يارب.. يارب استرها معانا يارب..

نهضت تحية وفتحت الباب.. دخل الأسطى مختار مكفهر الوجه..

فى الخمسين من العمر.. نحيف.. طويل القامة.. حفرت سون المعاناه أخاديد على صفحة الوجه.. كأنها تتصافح متحالفة.. على تمزيق الملامح والوجدان..

بدأ وحيداً فى هذه الدنيا بعد فقد أبويه.. حتى أصبح يملك ورشة خراطة يعمل بيديه فيها.. عرف معنى المعاناة.. فتعلم كيف يمسح أحزان من يتعاملون معه..

ألقى بنفسه على أول مقعد..وأخذ يجفف العرق المنهمر من خلاياه كالمطر.. أخذ صدره يعلو ويهبط.. فأسرعت تحية بإحضار كوب من الماء.. ودفعها فى جوفه مرة واحدة.. ولازال مستمراً فى تجفيف العرق..

-.. خير يابو محمود.. عملت إيه؟؟..

-.. خير؟؟.. والخير حاييجى منين..

-.. عملت إيه..

- ولا حاجة.. وأنا حاقدر أعمل إيه يعنى..

-.. طيب يا خويا.. قللى بس عملت إيه..

-.. م الصبح لف يا أم محمود.. لما رجلى ورمت..

جلست تحية تحت أقدام أبيها تفك عنه أربطة حذاؤه.. وحررت قدمى أبيها من الحذاء والجورب..

-.. سألت الناس والجيران.. شكلهم إيه.. لا بسين إيه اللى خدوا شعبان قالوا شرطة عسكرية.. رحت الشرطة العسكرية سألت.. محدش جاوب.. رحت القسم.. معندهمش فكرة.. النيابة.. ولا عندهم خبر.. ولاد الحلال دلونى ع السجن الحربى اللى فى مدينة نصر.. رحت..

-.. رحت السجن الحربى برجليك ياسى مختار؟؟..

-.. أمال كنت أسيب أخويا مرمى.. فضلت ألف حوالين السجن.. لا عارف أكلم عسكرى.. ولا أنا عارف أقابل ضابط.. إحترت يا أم محمود.. وإحتار دليلى.. رحت

راجع تانى.. وفضلت أدعى ربنا.. إنى آلاقى محمد زميل محمود إبننا الحمد لله.. كلمته فى التليفون لقيته.. شرحت لـه الموضوع.. الراجل الله يكـرمه كان لسة بشنطـة هدومه واصل م السفر.. راح واخد تاكسى وجيلى على طول.. خدنى ورحنا ع المخابرات..

-.. رحت المخابرات كمان.. والله حرام ياسى مختار..

-.. يا حاجة هو أنا رايح أسرق.. أنـا رايح أسأل عن أخويا.. المهم.. دخلنا مكتب آخر أبهة.. عليه يطلع ست سبع تليفونات إيشى أحمر.. وإيشى أبيض.. وإيشى له زراير..

قـاطعتـه عليـه محتجـة نـافـذة الصبر.. إحنـا دلـوقت فى التليفـونـات.. ولـلا فى المخابرات؟؟..

-.. المهم.. محمد ميل على الضـابط اللى قاعد وكلمه فى ودنـه كلمتين.. التفت الراجل وقالى اقعد.. قعـدت.. إيه الحكاية.. قلت له.. اسمه إيـه.. ساكن فين.. بشتغل إيه.. قلت له.. وهو بيكتب قـدامه كده فى ورقة صغيرة.. طلب نمـرة تليفون.. وفضل يتكلم يطلع ربع ساعة.. وشوشه.. وأنا قاعـد على نار.. عمال أدعى ربنا يسترها معانا.. المهم.. حط السماعة.. وراح قايل.. أخوك م الإخوان المسلمين يا حاج..

-.. مش معقول يـا بيه.. ده شعبان لا يعرف فى الـدين.. ولا يفهم فيه حاجـة.. ده يا بيه.. عمره ماصلى..

-.. ممكن.. يكون ما بيصليش قدام حد.. علشان يستر نشاطه؟؟..

-.. يا بيه ده من البيت للورشة.. ومن الورشة للبيت..

-.. بيقعد على قهوة.. مش كده..

-.. كلنا بنقعد على القهوة يا بيه.. يادوب الشيشة.. وكباية الشاى وسلام.. سلام..

-.. إيه الجمعية اللى اشترك فيها..

-.. جمعية.. جمعية إيه يا بيه.. ولا عندى خبر..

-.. لكن إحنا بقى عندنـا خبر.. أخوك مشترك فى جمعية اسمها الجمعيـة الإسلامية للبر والإحسان..

-.. أيوه يا بيه.. ده صندوق بنلم فيه تبرعات علشان نشترى لمؤاخذة عربية حانوتى وخشبة.. اللى يموت م الناس الغلابة.. الصندوق يتولاه.. إكرام الميت دفنه يا بيه..

-.. عربية وخشبة.. وللا أسلحة.. ومفرقعات.. ومنشورات..

-.. أسلحة إيه يا بيه.. علشان ندفن الغلابة..

-.. عموماً.. التحقيق هو اللى يثبت الكلام ده.. وأنا فهمت من كلامك إنك إنت كمان مشترك فى الجمعية دى.. صح..

-.. مضبوط يا بيه.. أنا دفعت عشرة جنيه..

-.. أه.. لولا إنك جى برجليك هنا مع النقيب محمد.. كان اعترافك ده كفيل يخليك تحصل أخوك.. لكن أنا بحذرك.. مالكش دعوة بأى جمعية.. خليك فى حالك وبس.. وما تنساش إن ليك ابن ضابط تخاف عليه. يعنى تهمة زى دى.. توديك وتوديه فى ستين داهية.. فاهم..

هزيت راسى إنى فاهم.. أخذ محمد يدى وقمنا نمشى وإحنا عند الباب سمعته يقول:

-.. أخوك ده.. إنساه خالص.. فى الوقت المناسب حانديلك خبر تحضر محاكمته.. فاهم.. إنسى خالص.. إنك جيت هنا.. أو شفتنى.. وخليك فاكر كويس إننا بنعرف كل حاجة.. عن كل واحد..

صمت الأسطى مختار.. متعجباً كيف للمخابرات معرفة كل شىء.. عن كل إنسان؟؟..

كان جهاز المخابرات من التضخم بحيث كل فرد فيه يراقب الناس.. ويراقب فى نفس الوقت زملاؤه.. فهذا الجهاز جزء من النظام.. ولكل نظام أجهزته.. وعلى حسب فلسفة كل نظام ولاستمرارية حياته.. تتحدد احتياجاته.. من النظم المساعدة.. وكان نظام المخابرات بهذه الضخامة.. يدل دلالة قاطعة على القلق.. القلق من بتر استمرار النظام الأكبر فجأة.. ولخفض احتمال المفاجأة.. فقد لزم نشر العيون والآذان فى كل موقع محتمل أو غير محتمل.. للحصول على أدنى فكرة تحرك ضد النظام.. بكل وسيلة.. وبأى وسيلة..

.. ومن هنا يبدأ انهيار قيم الروابط الإنسانية.. فالرأى يكبت.. لأن مصيره الوأد.. وفى غياب الآراء الجيدة.. تسود الآراء العفنة.. وكل ذى سلطة يصبح فليسوفاً.. مفكراً..

ذلك لأنـه لم يعد على السـاحة رأى إلا رأيـه.. ولا رؤيـة إلا رؤياه.. يتحـول الشعب إلى قطعان.. تسـير بعصا القيادة.. تنشد متطلبات الحيـاة وبمرور الأيام.. تنمو القطعان.. وتتكاثـر.. من حيث لا تدرى.. كـدفاع طبيعى لبقـاء النوع.. الـذى أصبح لا يفكر.. ولا يهتم بـالآخرين.. ولا يعمل.. فهنـاك من يفكر بـدلاً منه.. والكلام يصبح.. أجـدى من العمل..

وتبدأ الشعـارات فى الارتفاع.. عـالياً.. وعلى أرض الـواقع نقيضها.. يـرتفع شعار الحياة.. وإلى جواره يتهاوى الناس.. يـزدادون فقراً.. يرفع شعار العلم..وسجن الفكر قائم.. تبرز من زوايا العـدم.. وجوه بشرية.. تمسك المباخـر.. والمسابح.. تسبح باسم قـائد النظام.. اسطـوانـات تدور بألسـن بها دماء.. لا تعى.. ولا تفهم.. وغير مطلـوب منها.. أن تعى.. وأن تفهم..

وفى هذه المسـيرة الجهنميـة.. يتحول ذلك الجزء من القطيع الأعلى صوتـاً.. والأقوى تصفيقـاً.. من خملان صغيرة.. إلى كبـاش كبيرة.. لها القـدرة الأكبر على الإجترار وإختزان.. كل القوة.. وكل الثروة..

فى ذلك اليـوم الـذى ألقى فيـه بشعبان إلى السجن الحربـى.. بات جليـاً أمـام أسرة الأسطى مختـار.. إن القوقعـة على الـذات أمر مطلـوب.. أما مسـاعـدة الآخرين فـأمـر محفـوف بالمخـاطر.. فكـان وعـداً أمام الضمير.. نحن وإبننـا محمود ومستقبلـه أولاً والناس لها الله..

حتى شعبان.. لـه الله.. وإن كانت مسألة مسـاعدة سرته مالياً.. بـاتت هى الأخرى محفوفة بالخطر..

****

بعد سبعة أيام كانت وحدات اللواء.. مستعدة للرحلة الطويلة..

قمت بإخـلاء السرية من الموقع.. وجمعت احتيـاجات كل طـاقم مدفع فى رصـات.. جلست مع الجنـود فى انتظـار قـدوم السيـارات لنقل السريـة.. والانضمام إلى بـاقى السرايا.. لتسير الكتيبة كلها فى النهاية كطابور واحد..

آن أوان الرحيل أخيراً بعد سبعة عشر يوماً متصلة مع ساكنى القبور..

استعد الجنود للرحيل وتركوا إلى جوار دشم مدافعهم المهجورة براعم خضراء.. فإن سلوتنا الدائمة فى الصحراء.. هى البحث.. وبعث اللون الأخضر فيما حولنا..

تحويل صفرة الصحراء الأبدية.. إلى خضرة مؤقتة.. إن الجندى الفلاح حينما يؤخذ بعيداً عن قريته ليعمل فى باطن الصحراء.. تنتابه أحاسيس الاغتراب والضياع.. يتملكه شعور دائم بفقد عزيز.. فى عقله الواعى قد يكون هذا العزيز الأب أو الأم.. أو الزوجة أو الأولاد.. كل هؤلاء وإياه تلفهم خضرة الحقول.. فيكون أول ما يفعله هذا الجندى هو غرس حبة فول.. أو بذرة خروع إلى جوار مدفعه.. يقتطع من نصيبه قطرات من المياه يروى بها النبتة الصغيرة.. وكأنه يزرع إلى جواره رائحة الأهل والأحباب.. وحينما ترى عيناه البقع الخضراء تتناثر من حوله يشعر بالأمان وحينما ينام.. كأنه يستظل بطيف الأصدقاء بالقرية..

أتت السيارات اللورى مثيرة سحابة الغبار.. توقفت كل سيارة أمام طاقمها دقائق.. وكنت على رأس سريتى فى اتجاه قيادة الكتيبة.. فغداً نركب القطار إلى السويس..

بمجرد انحرافنا يميناً فى اتجاه معسكرنا.. لمحت النقيب سمير يقف محاولاً بكل ما أعطاه الله من قدرة على الصياح.. تكديس اللوريات فى صحن أرض الطابور.. فى حين كانت السيارات تنهمر كالمطر على طول الطريق.. أشار لى أن أقف بطابورى.. توقفت بالسبعة لوريات.. منهم ستة يقطرون مدافع.. فكان الطابور طويلاً جداً.. ولما كان المفروض الدوران مباشرة للدخول إلى صحن الكتيبة.. فقد انحرفت لورياتى يساراً.. وابتلعت أكثر من نصف عرض الطريق الضيق.. نزلت من اللورى.. ووقفت أدخن بهدوء.. ناظراً إلى مايحدث من دربكة أمام عينى..

سرعان ما أتى طابوراً لكتيبة مدفعية ميدان فى الاتجاه المقابل.. حاول قائد الطابور الاستمرار فى السير.. إلا أن ضيق الطريق أجبره على التوقف..

فى نفس الوقت جاء من خلفى طابور آخر.. لكتيبة مشاه.. حاول المرور يسار سياراتى.. فوقف وجهاً لوجه أمام طابور مدفعية الميدان.. ومن خلف طابور المدفعية أتى طابور دبابات..

اختلط الحابل بالنابل.. وحدث الشلل التام.. توقفت جميع السيارات فى تكدس

عجيب.. كاد ضباط المدفعية يمسكون بتلابيب ضباط المشاه.. وهؤلاء يتصايحون مع ضباط المدرعات.. ترك النقيب سمير بوابة الكتيبة الضاربة الفوضى.. متوجهاً إلى الضباط المتشاجرين يحاول إصلاح ذات البين.. إلا أن قائد كتيبة المدفعية والذى كان عصبى المزاج صاح فيه أمام الحشد كله قائلاً:

-.. كله منك إنت.. مش عارف تسيطر على عشرة خمستاشر عربية وحاتودينا فى ستين داهية.. علشان غباوتك..

لم يعطى فرصة الرد للنقيب سمير.. بل إندفع كالزوبعة ومعه ضباطه إلى مكتب قائد الكتيبة الرائد ظريف.. الذى خرج دون غطاء رأس ممسكاً عصاته يرغى ويزيد صائحاً: يا تابعى.. يا رقيب تابعى..

-.. أفندم.. جاء الصوت المرتعش من أقصى المعسكر..

-.. تعالى.. إجمع هنا..

أتى التابعى مهرولاً ووقف قبأله الرائد ظريف رافعاً يده بالتحية العسكرية..

-.. إيه ده.. إيه الزحمة اللى إنت عاملها دى.. العربيات والمدافع متكومة كده ليه سبع أيام حبس.. وبعد خمس دقائق كمان إن ماكانتش العربيات دى تختفى من قدامى خمس أيام كمان..

-.. يا فندم سيادة النقيب سمير قال تقف هنا..

-.. خمس دقائق.. فاهم.. غور..

هرول التابعى صائحاً فى السائقين أن اتبعونى.. وقفز فى اللورى الذى يسد المدخل والطريق.. رجع للخلف قليلاً.. ثم دار فى مساحة ضيقة.. فاتحاً ثغرة فى التكدس الحادث.. واختفى خلف المعسكر.. ووراؤه سيل من السيارات المكدسة بصحن أرض الطابور.. رجع مرة أخرى يعدو ليقف على البوابة.. ليقفز فى سيارتى ويقودها.. وخلفه باقى طابورى..

ماهى إلا خمسة دقائق حتى خلى معسكر الكتيبة من تكدسه.. وبدأت طوابير المشاه والمدفعية السير فى سلاسة..

رمى الرائد ظريف النقيب سمير بنظرة نارية.. صائحاً: هو أنا.. لازم أعمل كل

ـفسى.. مـاأقدرش أعتمد على واحد فيكم خالص.. أنـا عاوز أعرف إنت شغلتك
ـتتيبة؟؟.. محسوب علىّ بس رئيس عمليات؟؟..
ـحملنى نصيبه حضرتك عـاوز تحاكمنى؟؟ كل الـوحدات دى تتعطل يكـون مين
غيرى أنا؟؟.. لكن الحق علىّ أنا لازم أشرف عليك فى كل حاجة..
ـافنـدم حضرتك قلت أنا عاوز الكتيبـة كلها فى صورة طابـور.. ومش عاوز أى
ـتدخل جوة خالص..
ـلبعـاً.. حـاتلاقـى الف حجة.. وحجـة.. يـا حضرة النقيب اللى عـاوز يشتغل..
ـ شـايف.. مجرد شاويش.. قـام بـالشغل كلـه فى خمس دقايق.. وإنت بقـالك
ـاعات بس معطلنى الدنيا..
ـافندم أوامر سيادتك..
ـا راجل روح كده..
النقيب سمير حائراً يعتصره الألم.. ودخل مكتبه مرة أخرى..
ـيب سمير من الضباط الذين يستفادون من تجاربهم.. وتجارب الآخرين.. فهو
ـد السلامة.. والسلامة هى.. رضى القـائد.. فرضى القائد فى رأيه هو الطريق
ـارتفـاع درجات.. وطريقة النـاجح فى ذلك هو دراسة القائد عن كثب.. لمعـرفة
ـرغباته.. يأقلم نفسه بحيث يصبح مكملاً له.. وليس مساعداً.. فقدراته العلمية
لا تسمح لـه أن يكون مساعـداً للقائد فى شئـون قيادة الوحـدات.. أو الإحلال
حـالة غيابه.. فـإذا ماغاب الرائد ظـريف لسبب ما.. فالنقيب سمير هـو القائد
ـانون.. ولكن للصدفة الغريبة.. يمرض سمير.. وتؤل القيادة إلى النقيب محمد..
ـع الرائد ظريف.. فيتولى القيادة.. ويشفى سمير.. وليس معنى ذلك إن النقيب
ـان خاليـاً من المواهب.. بل العكس هـو الصحيح.. فهـو مضياف وذواقـة من
ـول.. له ذوق رفيع فى الإشراف على وجبـات الطعام وتقديمها بطريقـة جذابة
ـى لا شـىء يساوى تلك القدرات فى إضفاء لمسه مـن التحضر على الحياة الجافة
الأهل والزوجة.. فالقائد يتفرغ للقيادة.. والتدريب.. والتخطيط.. ومناقشات
ـى لا يحمل هماً للطعام والشراب.. وأمور الضيافة..

.. ولقد عـرفت الرائد ظـريف قائد الكتيبـة خلال الأسبـوعين الماضـيين بشكل أكثر قرباً.. فهو رغم مظهره المتجهم دائماً.. يملك قلبـاً عطوفاً رقيقاً.. وفى رأسه عقلاً منظماً أفضل مايكون النظـام.. هو موسوعـة علمية ثقافية أو يكاد.. دائم التفـوق على أقرانه.. ورغم ميله إلى الصراخ.. إلا أنه لا يوقع جزاء.. ولقد كانت يد القط فى توقيع الجزاءات فى الكتيبة هى النقيب سمير..

لأول مرة منـذ سنوات.. يجتمع ضباط الكتيبـة كلهم مرة واحدة سـوياً فى الميس.. مصادفة لا تحدث إلا كل عـدة أعوام.. وفى ظروف من العسير تكرارهـا.. رغم معرفتنا الجيدة بعضنا للبعض.. عبر المقابلات الثنائية.. أو عبر أسلاك التليفون..

فى هذا المسـاء.. انضـم إلينا ثلاثة وجوه جديدة.. ملازمان مجندان تخرجا منذ أربعة أيام من كلية الضباط الاحتياط.. وملازم أول..

قام قائد الكتيبة بإعادة توزيع الضباط على السرايا.. وأشار إلىّ قائلاً:

-.. من النهـاردة إنت يـا محمـود بتتفـــرغ لقيـادة الكتيبـة.. حـاتمسك الإشـــارة والاستطلاع زى ما إنت عاوز.. معاك مصطفى للحملة.. وفاروق للشئون الإدارية..

-.. شكراً يا فندم..

رن جرس التليفـون الموضوع قـريباً مـن يد القـائد.. تناول السماعـة.. واعتدل فى جلسته.. وكل دقيقة كانت ملامحه تزداد توتراً.. انتقل توتره إلينا.. وأصبحنا وجدانياً نتابع المكالمة..

-.. أيوه يـا فندم.. لا يـافندم مـاسمعناش الـراديو.. سيـادتك عارف طـول النهار مشغولين فى عملية التجهيـز للتحرك باكر.. إيـه.. حاضر يافندم.. مفهـوم يافندم.. مع السلامة..

تساقطت قطرات العرق من وجه الرائد ظريف.. وسقطت السماعة من يده.. بكلمات مترددة سأل النقيب سمير:

=.. خير يافندم.. سيادة العميد طالب سيادتك ليه؟؟..

-.. الراديو أذاع فى نشرة الساعة خامسة.. إن إسرائيل حشدت إحدى عشرة لواء على حدود سوريا.. وأن مصر سوف تقوم بواجباتها كاملة..

.. وقائد اللواء أصدر تعليمات برفع درجة الاستعداد القتالية..

ساد الميس صمت مطبق.. الكل فى تفكير عميق.. فى لا شىء..

إنهار حلم السفر الطويل.. وبدلاً من قتال القبائل المتمردة فى اليمن.. يبدو أننا سوف نقاتل جيش إسرائيل.. .

إنبعث صوت وقوف دراجة نارية.. وبعد قليل.. دخل أحد جنود الشرطة العسكرية توجه إلى الرائد ظريف مباشرة.. وناوله مظروف مغلق.. ودفتر صغير تناول قلماً ووقع على الدفتر.. دار الجندى على عقبيه وانصرف بدراجته محدثاً ضجة كما جاء..

أصدر الرائد ظريف أوامر أن تعود السرايا إلى مواقعها مرة أخرى فوراً ثم إعادة التجمع فى الفجر باكر.. للمسير إلى طريق رفح لاحتلال مواقعنا الحصينة فى منطقة جرادة.. وأمرنى أن أظل مع الضابط عبد الستار الملازم أول الجديد والذى عين قائداً للموقع بدلاً منى.. إلى أن يتم التحرك..

هدرت المحركات.. اشتعلت معسكرات العريش نشاطاً..

قفزت إلى جوار السائق وعبد الستار إلى جوارى يلازمنى كظلى.. وانطلقت خارجا من البوابة كما جئت عائداً إلى نفس الموقع الذى تنفست الصعداء حينما غادرته.. على ضوء مصابيح اللوريات لاحت الشواهد من بعيد.. وعلى سفح التبة أوقفت اللوريات.. انتشرت المدافع.. فى شكل دائرة.. وبجوار كل مدفع الساندات الخشبية لصندوق اللورى مغطاه بالمشمع.. كمبيت مؤقت للجنود..

عم أرجاء المقابر نشاط مفاجىء.. وقام الدسوقى بإقامة مشمع سيارتى على الأرض وجهز بداخلها زوج من البطاطين متقابلين لنومى وعبد الستار..

ارتكز عبد الستار على أربع ودخل زاحفاً إلى المشمع.. درت دورتين أو ثلاثة لتفقد الموقع.. هدأت الحركة ووقف جنود الحراسة كل فى مكانه.. زحفت داخلاً أسفل المشمع.. مددت يدى فى الظلام.. وفتحت حقيبتى.. تناولت منها الكشاف الكهربى.. سبح الحيز الضيق فى ضوء قوى.. تأملت عبد الستار الذى كان يتضجع على جانبه الأيمن مرتكزاً على مرفقه.. قصير القامة.. ربع.. ذى شعر أجعد كثيف.. يصل إلى أسفل الجبهة.. حاجباه ثقيلان معقوفان متلامسان فوق أنفه الكبير.. فى حين أن فمه مستطيل

مطبق.. ورقبته غليظة قصيرة.. له أذنان كبيرتان.. تزدادان كبراً بشحمتي الأذن المتدليتان كالأقراط..عيناه.. سوداوتان.. عميقتان.. فيهما شيئاً غير مريح.. بحيث كنت أشعر.. بنفاذ نظريتهما إلى ماتحت الجلد.. شيء ما في عبد الستار هذا جعلني أنفر منه.. رغم عدم سماعي صوته حتى هذه اللحظة.. كنت أتمنى أن يذوب هذا الجليد مع لحظات الود والتعارف.. فقلت:

-.. أهلاً يا ح الضابط عبد الستار.. معلهش بقى.. أصلك جيت في ظروف مش تمام.. وإلا كنا قمنا بالواجب..

لم يرد التحية.. لكنه أشار إلى خارج المشمع بيده متسائلاً:

-.. دى مقابر يا مختار..

-.. أيوه..

-.. أنا لو كنت عارف كده ماكنتش جيت خالص..

افتعلت ضحكة قصيرة معترضاً

-.. ما كنتش جيت؟؟.. ده برضه كلام؟؟.. يعني هو أنا اخترت المقابر دى تكون موقع.. وللا خطة الدفاع هي اللى أجبرتنا على كده..

-.. بس أنا بقى.. ماأروحش حتة مش عاوزها..

كان يتكلم بلهجة قاطعة.. ينهي مقطع الجملة.. وينظر مباشرة في أعماقي.. ترتفع أذناه.. ليلتقط سؤالي التالي.. ليقذف بالرد قذفاً في وجهي.. لم يكن يتكلم كما يتكلم إبراهيم.. أو النقيب محمد.. كان كلاماً.. مختلفاً.. ومنطقاً مختلفاً.. ولم يكن هناك مايقال.. قطع رده البارد شحنة الحرارة التي حاولت إدخالها إلى مهجعنا الصغير.. ضغطت زر المصباح.. فعم الظلام..

-.. تصبح على خير.. أدرت له ظهري محاولاً النوم.. وأحس وكأن نظراته تخترق ضلوعي.. وصوت أنفاسه تتردد.. ومع السكون المطبق تحولت زفراته إلى سمفونية شيطانية من الشخير الرتيب..

.. مع خيوط الفجر.. كان لايزال في سبات عميق.. خرجت زاحفاً.. أستنشق هواء الصباح.. جاء أحد الجنود بصفيحة مملوءة بالماء.. وزحف إلى حيث كنت أنام وخرج

وبيده الفـوطة والصابـونة.. إنحنيت مباعـداً مابين ساقى فأخـذ يصب الماء البارد على رأسي.. سرت بـرودة الماء إلى رأسي فضاع منى طعـم النوم.. وجففت رأسى وأخـذت أدخن..

ناديت الرقيب دسوقي.. الـذى جاء نشيطاً يضرب الأرض بكعب حذاؤه.. وأصدرت أوامر بدء التحرك..

راح يـرفع أطراف المشمعـات صـائحاً زاجـراً المتكـاسلين.. خرج الجمع المتكـاسل واصطف فى صـورة طابـور.. قررت أن اتطوع بإخبار الجنود ماذا يـدور حولهم.. فقد علمتنى التجربة.. أن الجندى يجب أن يعرف.. مبـاشرة من قائده.. فإنه لو عرف لعمل بطاقـة أكبر.. ووعى أعمق.. وإن تجاهله ضبـاطه.. فهو لا محالـة سوف يستقى الخبر اليقين من مصادر أخرى..

وقفت أمام الطابور وصحت منادياً.. سرية.. صفا.. إنتباه..

طبعاً كلكم عارفين إننا المفروض النهاردة كنا نسافر ع اليمن.. لكن درجة الاستعداد القتالى ارتفعت إمبارح.. والنهـاردة بإذن الله.. الكتيبة كلها.. واللواء كلـه حايتحرك إلى مواقعنا فى جـرادة.. عاوز إنضباط.. البلد باين عليهـا داخلة حرب.. و... قطع على حبل افكارى صوت خطوات آتيـة من خلفي.. درت دورة سريعة فلمحت عبد الستار.. يسير فى تمهل وقد وضـع يـداه فى جيوبه.. وأخـذ ينظر إلى حذاؤه.. استطـردت قائلاً: حضرة الضابط عبد الستار.. ضابط جديد فى الكتيبة.. وهو من النهاردة.. قائد السرية بدالى..

ثم وجهت كلامى إلى الدسوقى قائلاً.. إبعث دلوقت هات التعيين.

وفوراً عاوز السرية تكون جاهزة للتحرك.. إنصراف..

ركض الجنود فى اتجاه المشمعـات.. وخلال دقائق كانت الوريـات محملة.. والمدافع مجرورة.. والأرض فضـاء..

جاء السمان مهرولاً.. والتليفون تحت إبطه والسماعة فى يده.. صائحاً:

-.. سيـادة القائد عـاوز سيـادتك.. تنـاولت السماعة من يـده وتكلمت مع الـرائد ظريف.. الذى أمرنى أن أترك السرية تحت قيـادة عبد الستار وأتوجه إلى قيادة الكتيبة فوراً..

بسعـادة بالغـة أمرت أحـد الجنود بتجهيـز متعلقاتى الشخصيـة وقفزت إلى أحـد اللوارى آمراً السائق التوجد بى إلى الكتيبة.. والعودة مرة أخرى.. لم ينطق عبد الستار بحرف واحـد منذ الأمس.. مع بـدء تحرك اللورى.. فـوجئت به يقفـز إلى جوارى كقط البرارى أمرت السائق بالتوقف منزعجاً.. ووجهت كلماتى إلى عبد الستار:

-.. رايح فين يا حضرة الضابط..

-.. قيادة الكتيبة..

-.. يا عبد الستار الحالة طوارىء.. ومش ممكن تسيب السرية وتمشى..

-.. فى داهية الموقع بعساكره بمدافعه مش قاعد فى المقابر دى ولا دقيقة واحدة..

-.. يا عبد الستار يمكن تتحاكم كده..

-.. الجدع يحاكمنى..

-.. إنت حر.. ذنبك على جنبك..

أشار إلى السائق قائلاً: خليه يطلع..

-.. إطلع يا بنى..

سار اللورى يشق الغبـار متوجهاً إلى قيادة الكتيبة.. كنت سعيـداً إذ وقع هذا العبد الستار فى شر أعماله.. فلاشك عندى أن الرائد ظـريف سيوقع به الجزاء الرادع الفورى حينما يعلم بتركه موقعه دون أوامر..

وصلنا إلى مقـر القيادة.. قفزت من اللورى قبل إكمالـه الدوران.. ركضت إلى مكتب القـائد.. كـان يتكلم فى التليفـون باهتمام شـديـد.. فى حين راح النقيب سمير يتـابعـه مشاركاً.. وجدانياً بتعبيرات الوجه.. المتوافقة مع انفعالات القائد.. ما أن وقع بصره علىّ حتى وضع راحة يده على ميكـرفون التليفون قائلاً: اقعد ع التحـويلة.. واشتغل عليها بنفسك.. اتفضل.. خـرجت من مكتب القـائد.. ورحت أتسكع بين المكـاتب فى حين دلف عبد الستـار إلى مكتب القائد.. وأخـذت أنتظر عـاصفة التقـريع.. وخروج عبـد الستار محسوراً مقهوراً مطروداً ولكن طال انتظارى..

شددت خطاى إلى غرفة التحويلة.. وماهى بغرفة..

حفرة رطبة كالحة الجدران.. ذات سقف من الحديد المقوس المغطى بخيش مقطرن أسود. فى مواجهة الباب تحويلة صغيرة ذات عشرة خطوط تليفونية متصلة بتحويلة اخرى بواسطة سلك للاستعاضة عن تحويلة أكبر.. وأمام المنضدة دكة خشبية بدلاً من الكراسى.. وعلى اليمين لوح من البلاستيك الشفاف مثبت على حامل خشبى مرسوم عليها خريطة ودوائر حمراء وزرقاء تمثل مطارات إسرائيل.. ومطاراتنا.. وخلف الخريطة يقبع جندى بيده قلم شمعى أصفر اللون وعلى أذناه سماعات رأس تتصل بجهاز استقبال لاسلكى.. حيث يقوم بتسجيل خطوط سير الأهداف الجوية.. الصديقة منها.. وتلك الخاصة بالعدو..

جلست على الدكة مواجهاً التحويلة.. فتحرك الجندى المكلف بالخدمة يساراً ورحت أحملق فى البوابات الصغيرة التى تسقط إذا ما طلب أحدهم المخاطبة.. كتلك الساعات التى يخرج منها ديك عند كل دقة ساعة..

سقطت البوابة الصغيرة المكتوب عليها.. القائد.. دخلت على الخط قائلاً:

-.. افندم..

-.. إدينى الملازم إبراهيم عثمان فوراً..

طلبت إبراهيم وأوصلته بالقائد.. واستغرقت تماماً فى عمل السويتش..

بعد نصف ساعة جاءنى إبراهيم حزيناً يحمل حقيبته.. وقد تدلت كتفاه كالعجائز.. ابتدرته منزعجاً.. خير يابو خليل.. مالك..

-.. ابداً.. انتقلت من سريتى.. وحاروح سريتك إنت..

-.. ليه.. عبد الستار خلاص استلامها..

-.. لأ.. القائد اتصل بى حالاً.. فقالى أسلم كل حاجة للضابط شكرى الضابط المجند الجديد.. وأروح فوراً سرية الرشاشات..

أصبحت فى قمة الانفعال والسخط.. فوجدتنى أصيح قائلاً:

-.. يا أخى أنا مش عارف البنى أدم عبد الستار ده إيه؟؟.. رزل كده.. وسمج.. ودمه تقيل على قلبى.. ساب الموقع ومشى ولا همه.. كأن الجيش ده بتاع ابوه.. أقوله حتتحاكم يا عبد الستار.. يقوللى.. الجدع يحاكمنى؟؟..

-.. أيوه يا سيدى.. أصله.. كوسة..

-.. كوسة.. كوسة إيه..

-.. واسطة يا سيدى.. قريب قائد المدفعية اللى فى مصر.. وكان بعته علينا فى الكتيبة علشان يروح اليمن ويستفيد..

-.. وكان فى أنهى داهية قبل ما ينحدف علينا..

-.. كان فى سكرتارية الإدارة يا سيدى..

تساءلت عن تلك القوى التى يملكها عبد الستار ليحرك نفسه فى وحدات الجيش فى الوقت الذى يريد.. والمكان الذى يختار.. فى حين إننا جميعاً نسير على الخط المستقيم والويل لنا إن نحن تجاوزناه قيد أنمله..

-.. والبيه بقى حايشتغل إيه؟؟_

-.. حايقعد مؤخرة فى العريش بعدما ننتقل موقع جرادة..

معنى ذلك أن عبد الستار لن يشارك فى رحلة احتلال موقع جرادة..

وأعمال الحفر والتجهيزات الهندسية والتعب المقيم بل سيمكث فى قيادة الكتيبة حيث النوم على السرير.. والطعام الساخن.. والماء القراح غير المخلوط بالسولار والبنزين لا لسبب إلا لأنه قريب قائد المدفعية فى القاهرة..

-.. معلهش يابو خليل.. السرية كويسة.. والعساكر ممتازين.. ومعاك الرقيب دسوقى.. راجل صعيدى جدع من اللى تقدر تعتمد عليهم.. وخلاص أديك حاتمشى من المقابر اللى مخوفاك.. وخلى عبد الستار هنا.. بإذن الله الفئران تاكله حته.. حته..

خرج إبراهيم.. متوجهاً إلى موقع سرية الرشاشات.. تكلمت مع الرقيب دسوقى أوصى بإبراهيم خيراً..

لمحت راديو ترانزستور خلف التحويلة.. رحت أعبث به حتى انطلق صوت أحد المذيعين المشهورين بالحماسة.. يلقى خطبة طويلة.. انتظاراً للمؤتمر الصحفى الكبير الذى يعقده السيد رئيس الجمهورية.. والذى يرد فيه على تساؤلات العالم بالنسبة لتأزم الموقف على الحدود العربية الإسرائيلية.. المذيع كان معبراً.. صوته يتدفق حماسة مشيراً إلى أوجه قوة الجيش المصرى.. والجيوش العربية.. انتقلت حماسة النبرات عبر

الأثير لتشعل النيران فى أجسادنا.. وتكلم الزعيم.. الصوت القاطع الواثق.. المعبر.. يتحدى إسرائيل.. ومن يقف وراء إسرائيل.. فنحن طلاب حق.. وحقنا حق حياة.. وإن طلبوا الحرب فنحن لها.. إن حاربونا فى الأرض حاربناهم فى الأرض والبحر والجو أيضاً.. نسيت نفسى.. نسيت إبراهيم.. تلاشت صور الأحباء من مخيلتى.. أمى وأبى.. وأختى وأصدقائى.. حتى شبح وصورة عبد الستار نسيتها.. تلاشت المرئيات والذكريات.. أصبحت لا أشعر حتى بوجودى ذاته إلا من خلال نبرات الزعيم.. توالت أسئلة رجال الصحافة.. تقابلها ردوداً حاسمة قاطعة سافرة من شفاه الرئيس امتلأت روحى حماسة.. سرى الخدر فى أوصالى.. ورحت أعلو.. وأعلو.. وأتسامى.. أصبحت أكبر حجماً مما أنا بكثير.. أكمام سترتى ضاقت فجأة.. وبرزت من خلالها عضلاتى النابتة تواً وفجأة مع كلمات الرئيس.. لم أكن أتصور أننى أنتمى لجيش هذه قوته.. وتلك قدرته.. كم نحن أقوياء لكننى لا أدرى.. دارت فى رأسى ألف معركة ومعركة.. أخرج منها منتصراً.. رافعاً راية مصر عالية خفاقة.. وجسدى مخضب بالدم..

رحت ألهث كأننى أعدو فى سباق طويل رغم جلوسى.. أطعن بالسونكى وألقى القنابل اليدوية.. مدافعنا تضرب طائرات.. تنفجر فى الجو.. أو تهوى على الأرض حطام.. تحت خوزتى الصلبة أحمل ظلال الأمل.. والرجاء لمصر.. وللعرب.. إن شعوراً بالفخر والقوة والجبروت ملأنى.. هل ممكن لإسرائيل أن تفكر فى محاربتنا.. اليوم.. منفردة؟؟..

ليت الحرب تأتى.. لتكون حرباً مقدسة.. حرب إبادة.. لنلقى بإسرائيل فى البحر ونرجع الفلسطينيين إلى أراضيهم.. صاح أحد الجنود فرحاً..

-.. الله وأكبر.. الله أكبر.. أهو كده يا ريس..

لم أعلق.. لكننى رميت الجندى بنظرة استحسان.. تبعتها موجة عارمة من الهرج والفرح.. قفز على أثرها جندى اللاسلكى يلقى السماعات عن رأسه ويتعانق مع زملاؤه فرحاً.. بالانتصار القريب.. إحساس طاغ بالقوة ملأ النفوس.. وأعطاها جرعات مركزة من النشوة والأمل..

انتهى المؤتمر الصحفى.. وأخذ المذيع المشتعل حماسة بعيد من كلمات الرئيس

فقـرات.. وفقرات.. نسمعهـا.. وكأنها جمرات نار تلقـى فى دوراتنا الـدمويـة فتشعل القلوب ناراً.. واندفاعاً.. فداءًا للزعيم.. وللوطن..

إنتابت بـوابات التحـويلة فجأة مـوجه نشـاط غير عادية.. كل الخطـوط تتكلم مع بعضـها البعض.. وكان عدم سماعى لكلمات من هنا.. ومن هناك أثناء عمليات التوصيل أمراً مستحيـلاً.. كانت جميع المكالمات تـدور حول خطـاب الرئيس فى المؤتمر الصحفى الكبير.. الكل سعيد.. الكـل فرح.. الكل يشتعل حماسـة.. الجميع إنتابتهم حمى الـرغبة العارمـة فى القتال فوراً.. تحولنا إلى مـردة.. أسود جسورة مـربوطة فى سلاسل قـوية تريد الفكاك..

– جاء ت من قيادة اللواء إشارة تعلن أن التحرك فوراً إلى جرادة.. فى طريق العريش رفح.. ودارت عجلة الجيش بكل قوتها.. وسرعتها..

****

رن جـرس الباب.. هـرولت سحـر وفتحت.. دلفت شـوشو هـانم وأوصدت البـاب خلفها بشدة.. طبعت على خد سحـر قبلة سريعة.. كطابع البريد..

عنايـات هانم تجلس فى روب منـزلى أنيق.. من الساتان المحلى بـإطار دانتيل أبيض متماوج.. وتحت إبطيها إبرتا تريكو وبين سـاقيها كرة كبيرة من الصوف وإلى جوارها بدايـة بلوفر تعمل فيـه بهمة ونشـاط.. انـزلقت نظارتها الطبيـة حتى وصلت إلى أرنبة أنفها.. فبـدت عيناهـا مع انكسار الضـوء أكثر إخضراراً ممـا هى فعلاً.. تقـدمت إليها شـوشو مادة ذراعيها منحنية تحتضنها قائلة:

–.. إيه يا أختى.. معرفش أخباركم غير من حسن وللا إيه؟؟..

لازالت سحـر ممسكة بيـد شوشـو.. التى أردفت.. شويـة يا سحـر.. لما أشبع من ماما.. ضحكت سحر قائلة:

–. ما أنا عـارفة.. يبقى حانقعد للسنـة الجاية.. خلو شوية عـواطف لبعدين.. ضج ثلاثتهم فى الضحك.. جلسن متقابلات.. يتبادلن النظرات الصامتة..

–.. إيه يا عنايات.. لا سؤال.. ولا حتى تليفـون.. أسبوع ما أعرفش عنكم حاجة؟؟.. غطسانة فين؟؟..

-.. أبداً يـا شوشو.. أصل كمال الأيـام دى هنا.. تلاقينا ملبـوخين.. ومشغولين ع الآخـر.. نطقت عنايـات بتلك الكلمات.. وعلت وجنتاهـا حمرة مفاجئـة.. ولم تخب تلك التغيرات عن عينى شوشو الخبيرة.. فجاوبتها بنبرة ذات معزى قائلة:

-.. ما كمال طول عمره بيجى.. اشمعنـى المرة دى فيه دربكة.. يكنش؟؟.. وغمزت بعينها غمزة ذات معنى..

لقد كانت عنايات سأمة.. لا تود أن تفكر..

إن كمال مصـدر دخل الأسرة ذلك الدخل هـو حق لها وابنتها وهى على وعى كـامل بذلك.. ولكن هل كل صاحب حق يمكنه الحصول عليه؟؟.

إن النوايا مهما كانت مخلصة أو طيبة لا يمكنهـا حل مشكلة.. ناهيك عن الدخول فى صراع وكسبه إن النـوايا الطيبة سبب بلا فعل يـرهق كاهل حامله ولا نفع منـه.. حقها وحق ابنتها فى ميراث زوجها الراحل مجرد مقبـض السيف أما النصل فقد كان كمال.. كلما قامت عنـايات بشحذة.. كـان أكثر مضـاء.. أى أكثر سخاء.. فكـانت مضطرة إلى شحذه.. عن طـريق المداهنة و إرضاؤه كـانت إشارة شوشـو تلك هى صب الزيت على النيران المشتعلة فعلاً.. فزادتها اشتعالاً..

إن شوشـو فى رأى عنايـات لازالت صغيرة.. لم تجرب قسوة الحيـاة وشدتها.. إذ كيف لها معرفة مشاكل عنايات؟؟..

إن لها زوجاً ثـرياً.. يملك عربة أتت لها مسكنـاً فاخراً.. حتى إن مات فسـوف ترث مالاً وفيراً.. ومعاشاً كبيراً.. يغنيهـا دائماً عن التفكير فى الغد.. إنها لم ولن تفكر فى معنى نفاذ المعـاش فى منتصف الشهر.. وإحصـاء الأيام البـاقية لإعـادة دورة القبض لشهر آخر..

تلك الحسـابات التى تصـدع رأس وزير مـالية لم تجربها.. فإدارة حيـاة كتلك هى أقصر طريق لانقصاف العمر.. دائماً فى انتظار أول الشهر.. فكل شهر يمضى لن يعود.. يرحل.. ويأخذ معه شهراً من العمر.. وقطعة من النضارة والشباب لذلك فهى لن تفهم مطلقاً طبيعة العلاقة مع كمال.. بكل رفضه لهم.. واحتياجهم إليه..

مالت شـوشو بدلال على سحـر.. والنبى فنجان قهـوة من إيدك الحلوة يـا سحـر..

نهضت سحر.. واختفت خلف الجدران..

قفزت شوشو قائلة: التليفون.. حملت التليفون وسحبت السلك وراثها إلى الصالة.. فى حين راحت عنايات تنهمك مرة أخرى فى أعمال التريكو.. عادت سحر تحمل صينية عليها فنجانان من القهوة.. وضعتها على منضدة صغيرة بالقرب من أمها قائلة: القهوة.. يا ماما..

انبعث من الصالة صوت ضحكة مكتومة وصوت شوشو يحاول الهمس وإن سمع الاثنان محادثتها.. جاية.. خلاص حاأجى.. نص ساعة بالكثير.. وعادت تاركة التليفون فى الصالة.. تتهادى فوق حذائها ذى الكعب العالى والواصل إلى ماتحت الركبتين..

تبادلت المرأتان نظرات متقطعة.. كإشارات التلغراف.. وكأنهما يتبادلان حديثاً مركزاً.. وصلت رسالة عنايات إلى شقيقتها الصغرى كاملة.. فلم تملك شوشو إلا الرد المقنع..

-.. هو إحنا حانعيش كام مرة.. نعيش فى نكد ليه.. هو العمر فاضل فيه كام يوم؟؟.. قالت تلك الجملة محاولة تقليد طريقة وصوت زوجها حسن بك..

واستطردت.. -.. مش هود ده كلامه..

ابتسمت عنايات.. وضجت شوشو بالضحك..

رن جرس التليفون رنات طويلة.. متصلة.. ألقت عنايات شغل التريكو من يدها.. ووجمت شوشو قليلاً ثم صاحت: ده ترنك..

اردفت عنايات متوجسة.. يارب اجعله خير..

هرولت سحر إلى التليفون ترفع السماعة..- ألو.. أيوه.. النمرة صح.. العريش.. قفزت من الأرض فرحة صائحة.. ده لازم حمود يا ماما.. لازم محمود..

-.. طيب على مهلك شوية.. هاتى التليفون هنا..

-.. إزيك يا محمود.. عامل إيه..

راحت المرأتان ترقبان سحر.. وكلهن آذان صاغية.. وحملت لها شوشو كرسياً تجلس عليه..

-.. أيوه يا محمود.. كلهم كويسين.. أخبار.. أخبار إيه.. إحنا ما بنشتريش

جرايد..-.. لأ.. كلهم كـويسين وبيسلموا عليك.. عاوز تكلم ماما وبـابا وتحية.. إمتى.. حاتتصل تانى النهاردة.. الساعة كام.. حاضر.. حاأبلغهم.. حاضر.. حاضر يا محمود.. حايكونوا موجودين.. مع السلامة.. مع السلامة..

-.. كان عاوز إيه يا سحر..

-.. أبداً يا ماما.. بيسلم عليكى.. وعاوز يطمئن على مامته وباباه وأخته تحية.. وهو حايتكلم النهاردة بالليل الساعة ثمانية..

تابعت شوشو الحديث دون دراية بالموضوع.. فتدخلت قائلة:

-.. حاأفضل أنا زى الأطرش فى الزفة؟؟.. مين محمود ده؟؟..

-.. حضرتك متعرفيش محمود يا تانت..

-.. لأ يا تانت معرفوش..

تدخلت عنايات فى المناقشة دون اهتمام متعمد قائلة:

-.. ده واحد ضابط أخو واحدة صـاحبة سحر.. ناس جيران من زمان.. إنما طيبين خالص..

-.. وإنتى يا عنايات عملتى بيتك مكتب تليفونات؟؟.. ده إيه الكرم اللى على سهوة؟؟.. ده إنتى ياختى محرمة الجيران تدخلك..

-.. لأ.. بس الناس دول حاجة تانية..

-.. لأ بقى.. أفهم.. ووضعت سبابتها اليمنى فى جانب رأسها..

-.. أبداً والله.. مفيش..

-.. ما أنا عارفاكى.. الواحد مايخدش منك عقاد نافع..

تناولت شوشـو فنجان القهوة.. شربته على دفعتين وردته إلى الصينيـة مرة أخرى ومدت يدها تتناول يد سحر جاذبة إياها إلى حجرة النوم.. قائلة:

-.. تعالى يا بنتى.. إنتى اللى أعرف أتكلم معاكى فى البيت ده..

بسرعة تخلصت شوشو من حذائها الطويل وملابسها.. ولم يتبقى سوى ملابسها الداخلية.. استلقت على السرير.. وابتدرت سحر..

-.. يه.. إحكى لى..

كان الضباط ذوى جاذبيـة خاصة بالنسبة لها.. كانت تحلـم أن تتزوج ضـابطاً.. لم يكن فارس أحـالمها.. إلا ضابطاً ذى نجـوم لامعة وشوارب مفتـولة.. وحينما نضـجت تبلورت أفكارهـا.. أصبحت عملية.. وتركت أحلام اليقظـة وفارس الأحلام اقتنعت أن افضل زوج لامرأة هو أن يكون ضـابطاً.. فالـزواج منه يحقق للمرأة ما تنشده.. فيكون زوجاً صحيح البدن قوياً.. قام الجيش بالنيـابة عنها بفحصه طبياً.. فهو سليماً معافيا يملأ العين.. والوجدان.. تلد منه أطفالاً أصحاء أقوياء..

وإن كـانت تنشد رجـلاً مستـوراً فى دنيته وبعـد مماتـه فهـو أيضـاً يحقق لها هـذا الهدف.. بمرتبة الكبير حياً.. ومعاشه الأكبر ميتاً..

كانت لها تجربة خاصة مع أحدهم.. تعـارفت عليه وأحبته قبل زواجها.. حيث كان فى القـاهرة للـدراسـة.. وكملبزغ فى حيـاتها فجأة.. اختفى فجاة.. وقـد أخلف وراؤه ضـحكة طويلة.. تعلمت الدرس ووعته.. وأصبحت حذرة على الدوام.. من كل من يضـع نجوماً على كتفيه..

إلا أن طيف ذلك الضـابط المختفى لا زال يداعب وجـدانها مـابين الوقت والآخـر.. وكثيراً ما قـارنت لمسات زوجها الباردة الخشنـة.. بلمساته الحارة الناعمـة التى تفور منها الدماء..

-.. أبداً يا تانت ده ضـابط اخو تحية صاحبتى..

-.. كويس.. إيه التليفونات.. وبابا.. وماما..

-.. بيتكلم من العريش.. وعاوز يكلم أخته وباباه.. وبيقول إن الحرب حاتقوم:

-.. مالناش دعوة بالحرب.. أمه وأبوه بييجوا هنا ليه؟؟..

-.. الله يا تانت.. صاحبتى..

-.. إنت حاتلعبى علىّ؟؟.. قوليلى يا سحر.. بتحبيه..

-.. والله مش عارفة يا تانت.. لما بيكون معايا.. بأحس إنى مش عاوزة أسيبه.. ولما سافر.. مش عارفة بقى..

-.. إنتى كلمتينى عن واحد اسمه مصطفى فى معهد التربية.. أخباره إيه؟؟.

-.. جاءنا.. صباح الخير.. صباح الخير..

-.. بس أول إمبارح أنا شفتك معاه..

-.. أه.. قابلته فى السكة مشينا مع بعض لغاية هنا.. كان بيوصلنى..

-.. طيب.. بتحبه؟؟..

-.. والله برضه يا تانت مش عارفة.. مصطفى حاجة.. ومحمود حاجة تانية مصطفى دايماً بيضحك.. محمود على طول مبوز.. مصطفى باحس إنه زى الزيبق محمود باحس إنه صريح وواضح كده..

-.. المهم.. إنتى بتميلى لمين فيهم أكثر..

-.. مش عارفة يا تانت.. بس ماما بتقول إن محمود مناسب للجواز إيه رأيك إنتى يا تانت..

-.. هو إتكلم رسمى..

-.. لأ..

-.. أمال جواز إيه..

-.. ماما بتقول مش عاوزينه يطير من إيدينا..

-.. كويس.. والمطلوب منك إيه؟؟..

-.. ماما قالت لى لما يكون موجود فى مصر.. لازم أروح عندهم كتير.. وأخرج معاه.. علشان أفهمه ويفهمنى أكثر..

-.. وإنتى.. رأيك إيه؟؟..

-.. لما كان فى مصر.. كان كل يوم بيفسحنى فى حتة.. وكنت مبسوطة..

-.. صاحبتك تحية مالمحتش بحاجة كده.. ولا كده؟؟..

-.. أبداً يا تانت..

-.. طيب يا سحر.. خللى بالك من نفسك كويس.. الجواز مش كل حاجة والحب برضه مش كل حاجة.. خليكى ماسكه العصايا م النصف..

-.. مش فاهمة..

-.. أهو الضابط محمود موجود.. وإن ماكانش.. يبقى مصطفى موجود.. فاهمة يا بنت..

وأخذنا فى الضحك.. نظرت شوشو إلى ساعة يدها.. وقفزت مهرولة ترتدى ملابسها.. واندفعت خارجة.. ووراثا سحر.. تناولت حقيبة يدها.. واندفعت إلى الخارج رافعة يدها قائلة: باى..

انطوت سحر على نفسها تفكر فى كلمات شوشو.. لم تساعدها فى الوقوف على أرض صلبة.. لقد تكلمت معها وهى عائمة على سطح الماء.. وتركتها وقد سبحت فى الهواء.

.. أخيراً.. توقفت عن التفكير تاركة مركب الحياة تسير.. تدفعها رياح الأمل والصدفة إلى حظها فى الحياة..

جلستا متقابلتين يتناولا طعام الغذاء.. وقد أطبق صمت كامل على أرجاء المنزل.. إلا من صوت المضغ المتأد..

-..بعد الغدا يا سحر.. تقعدى تذاكرى.. وبعدين تروحى عند تحية..علشان المكالمة بتاعة محمود..

-.. حاضر يا ماما..

نهضتا واجمتان.. عنايات إلى المطبخ.. وجلست سحر إلى منضدة صغيرة تذاكر.. أو تفتح كتاباً تنظر فيه..

فى السادسة هرولت إلى الشارع شدت الخطى إلى منزل تحية.. ألقت نظرة عابرة إلى شباك مصطفى.. متمنية الا يكون واقفاً هناك.. حتى لا تتأخر حتما عن إبلاغ الرسالة..

طرقت الباب.. فتحت تحية وأدارت ظهرها فوراً قائلة: اتفضلى.. وصلت إلى غرفة الصالون وجلست تحية إلى مكتبها الصغير.. وإلى جوارها سحر.. اشتمت رائحة غير عادية من التوتر تحيط بالعائلة..

الراديو صامت أمام تحية على غير العادة..

-.. مالك يا تحية؟؟..

وكأنها مستعدة للسؤال.. أخذت رأسها بين راحيتها وانخرطت تبكى.. ربتت سحر رأس صديقتها فى حب وحنان حقيقى.. وبدأت هى الأخرى فى البكاء السريع.. حيث كانت من ذوات الدموع القريبة..

-.. موضوع عمك شعبان برضه يا تحية؟؟..

-.. عم شعبان إيه.. إحنا دلوقت فى محمود..

غاصت روح سحر بين ضلوعها.. ماذا عساه يكون قد حدث لمحمود؟؟..

لقد حادقته منذ فترة قليلة..

قفزت سحر صائحة.. محمود.. ماله؟؟.. ده لسه مكلمنى من العريش من شوية..

رفعت تحية رأسها.. وغاصت الدموع من مآقيها.. وبدأت فى الابتسام..

تدفقت السعادة إلى العيون الحزينة فزادتها بريقاً.. تحول البكاء إلى ضحك.. ثم إلى حركة.. جذبت سحر تقبلها.. وسايبانى وساكتة.. ماقلتيش ليه من أول مادخلتى..

قفزت تحية صائحة.. ماما.. ماما.. بابا.. بابا.. وجرت إلى حجرة أبيها الداخلية تزف إليه خبر مكالمة محمود..

ماهى إلا لحظة حتى دخل الثلاثة مهرولين إلى حيث سحر.. أنست المفاجأة الحلوة الأسطى مختار وضع قدماه فى الشبشب..

لم تتمكن عليه من إحكام ربط الطرحة على شعرهــا.. بادرتها قائلة.. قولى يا سحر.. اتصل إمتى.. الساعة كام.. قال إيه.. صحته عــاملة إيه.. وإيه حكاية الحرب دى.. قولى يا سحر.. قولى كل حاجة علشــان أطمئن.. سيطر الأسطى مختار على أعصابه.. وأزاح يد زوجته عن كتف سحر.. وأمسك يدها الصغيرة.. وقادها إلى كرسى..

-.. أقعدى يا بنتى.. اقعدى يا سحر.. اتصل إمتى؟؟..

-.. الساعة اثنين يا عمى..

احتجت عليه صائحة.. وليه كده يا سحر.. الساعة دلوقتى داخلة على سبعة.. خمس ساعات.. وما تقوليش..

-.. أيوه يا تانت.. علشان حايتكلم النهارده كمان..

اتسعت ابتسامة العائلة كلها وانبرت تحية متسائلة-.. إمتى..

-.. أيــوه يا تــانت.. هو يــا أونكل بيسلم على حضرتك.. وبيقول حــايتصل الساعــة ثمانية النهاردة.. وعاوز يسمع صوتك.. وصوت تانت عليه كمان..

تدخل مختار فى الحديث.. وما اتكلمش عن الحرب..

-.. أيوه يا أونكل.. قال إن الحرب حاتقوم..

ألقى مختار ظرة على ساعة يده.. ووجه كلامه إلى ابنته قائلاً:

-.. يا دوبك نقوم نلبس دلوقت يا تحية..

اندفعت عليه تحتج على زوجها..

-.. إيه يا بو محمود.. مش حاروح معاكم وللا إيه.. عاوزة أسمع صوته

-.. لأ.. لازم حد يكون فى البيت.. يمكن حد يسأل وللا حاجة..

طول المعاشرة تعلم الأزواج معانى.. مابين الكلمات.. ولقد فهمت عليه أن زوجها يأمرها بعدم التفكير فى الخروج.. فى هذه الأسرة العلاقات محددة بشكل قاطع.. الرجل.. هو السيد.. هو الدنيا.. هو العقل.. ودائماً ما تردد فى وجود أو عدم وجود مختار.. ده مختار المراكبى وإحنا الشيلة.. من غيره نغرق.. كأنه ذاهب إلى حفلة عرس.. ارتدى الأسطى مختار أفضل ثيابه.. كان يطير فرحاً.. وعين خياله تسبح به إلى حيث ابنه.. الوحيد.. الذى يستعد للحرب.. والمشغول بين أكداس الخرائط والتليفونات.. يعطى أوامر.. ويتلقى أوامر ينفذها جيداً..

وكيف سيتفرغ دقائق من كل تلك المهام الجسيمة ليتكلم معه.. الأسطى مختار.. أباه.. فى السابعة والنصف كان الثلاثة يواجهون باب شقة سحر.. تراجع مختار قليلاً إلى الوراء.. وأخذت سحر تضغط جرس الباب.. تتبادل مع تحية ابتسامة عريضة.. تكرر الرنين مرة.. ومرات.. ولا مجيب.. بدأت تدق الباب بكلتا يديها.. فى ضجيج عالى.. ولا حياة لمن تنادى.. أخيراً.. وقفت سحر تنظر إلى الباب فى يأس.. تراجع الثلاثة عائدين للنزول على السلم..

فتحت الجارة باب الشقة المقابل.. سألتها سحر.. هى ماما خرجت يا تانت؟؟..

ألقت الجارة نظرة باسمة على تحية والأسطى مختار قائلة:

-.. لأ يا حبيبتى.. ماما مخرجتش.. وكمان عندها ضيوف..

-.. شكراً.. يا تانت.. لازم ماما نايمة بقى..

داروا على أعقابهم ووقفوا مرة أخرى يضربون الباب بكلتا يديهم.. جاء أخيراً صوتاً مرتعشاً من الداخل.. إفتحى.. إنتى نايمة وللا إيه؟؟..

-.. حد معاكى يا سحر؟؟..

-.. أيوه يا ماما.. أونكل مختار وتحية.. إفتحى بقى..

-.. طيب دقيقة واحدة..

غابت دقائق.. ثم فتح المزلاج من الداخل.. ولازالت تنظم ملابسها..

-.. أهلاً.. أهلاً.. اتفضلوا.. البيت بيتكم..

منكوشة الشعر.. محمرة الوجه.. فى حركتها وصوتها ارتعاشة غير مطمئنة.. أدخلت الجميع إلى الصالون..

ألقى مختار نظرة عفوية على البلكونة المجاورة.. كان كمال يقف يدخن فى هدوء..

جلس مختار على الفوتيه.. كالجالس على الجمر أو الشوك.. شىء يطبق على أنفاسه.. أحضرت عنايات كوبان من الليمون المثلج..

شعور طاغ بالاشمئزاز إجتاح مختار.. لا شعورياً مديدة وأمسك يد ابنته يضغط عليها.. نظرت إلى أبيها دهشة.. فهمت أن هناك شىء غير عادى.. شىء رهيب قد حدث..

مرت اللحظات ثقيلة.. مملة.. والتليفون صامت..

تعدت الساعة الثامنة والنصف لا صوت..

نهضت سحر ترفع سماعة التليفون.. عادت متدلية الزراعين.. تائهة..

وكأنها تحدد مصير محمود.. التليفون مافهوش حرارة!!..

دون كلام.. نهض مختار وتحية فى يده.. خرج من الباب وأوصده خلفه..

بكل ذكاء ولباقة عنايات هانم.. صمتت فى مواجهة مختار.. أقنعها صمته المطبق ونظرته الحزينة الثابتة أنه لا جدوى من أى كلام.. رسالته وصلتها كاملة.. جلس وخرج.. ولم تستطع إلقاء الشبكة..

حينما أصبح مختار مع ابنته فى الشارع اختار كلمات قليلة تلخص مابداخله:

-.. تحية..

-.. أفندم يا بابا..

-.. البيت ده مش عاوزك تدخليه.. والبنت دى.. مش عاوزك تعرفيها.. لم تناقش أباها.. بالغريزة ألمت بأفكاره.. فالشىء الذى حدث فى منزل سحر.. لابد ويقرر أنها تحيا حياة مختلفة تماماً عن حياتها..

انبعث صوت سحر تنادى على تحية.. توقفت.. ووسع مختار خطاه.. واختفى فى ممر منزله..

وقفت الصديقتان متواجهتان.. شعاع مصباح الشارع ينير وجهيهما أمسكت سحر يد صديقتها وضغطت عليها فى رجاء صامت..

تحركت شفتا تحية بهدوء.. دون اتهام.. عاجبك كده؟؟.. بابا يقول إيه؟؟.. صمتت سحر.. وانحدرت دمعتان.. وأنا.. ذنبى إيه؟؟..

ساد الشارع هرج أثناء مرور طابور طويل من السيارات العسكرية المحملة بالجنود.. الفرحين الصائحين: حانحارب.. حانحارب..

وامتلأت شرفات العمارات على الجانبين بالسكان يلوحون بأيديهم مشجعين صائحين.. ربنا معاكم.. ربنا معاكم.. ربنا ينصركم..

تطوع مئات من الناس فى رفع صوت الراديو بالأناشيد الحماسية..

****

مع خيوط الفجر.. وصلنا إلى موقع جرادة.. لم تنم لحظة واحدة.. رغم ذلك لم يشعر أحداً منا بالتعب.. ضباطاً أو جنوداً.. حتى الطعام نسينا أن نتناوله.. كلنا نشرى بما نحن فيه من أمل وثقة فى النصر القريب.. على الرغم أن الحرب لم تكن ذات معنى واضح فى ذهنى تماماً.. لكن قراءة الكتب العسكرية.. مع هذا الحماس غير العادى اختلط اختلاطاً رومانسياً بأفلام الحرب والقتال.. فصنعت فى رأسى مزيجاً مدهشاً.. من التبسيط الشديد.. وعدم الوضوح المطلق..

وأصبح الراديو صديقاً عزيزاً أضعه فى جيب سترتى أستمع إلى الأناشيد الحماسية والخطب التى تشيد بقوانا العاتية.. وعلى الطريق كان هناك طابوراً من أنصاف العراه.. لابسى بنطلونات رجال الصاعقة يجرون فى طابور تدريبى صائحين:

صاعقة.. صاعقة.. عودة.. عودة..

كهرير الموج الصاخب.. كانوا بعض الفدائيين التابعين للشقيرى البطل الفلسطينى الكبير!!..

جاءنى جندى يدعونى لمقابلة القائد.. ومعى خرائطى وأدواتى..

لمت حاجياتى ووضعتها بعناية فى حقيبة الخرائط الميدانية.. وقد قدلت من عنقى نظارة الميدان.. ووضعت على كتفى رشاشاً قصيراً.. حملت الخوذة فى يدى فقد قضت الأوامر بلبس الميدان الكامل.. وكانت الخوذة هى أشر عدة الميدان على الإطلاق.. فهى من الصلب الثقيل.. مبطنة بالجلد.. القوى المتين.. وكانت من الثقل بحيث أنه بعد الدقائق الأولى من وضعها على الرأس.. تصبح عضلات الرقبة أقل انصياعاً للحركة.. وبعد مدة تصبح وكأنها جزء من الرأس تماماً.. فإذا ما خلعت أحدثت شيئاً كالتخلخل أعلى عظام الجمجمة.. الذى يؤدى إلى فقد التوازن لعدة ثوان..

الرائد ظريف يجلس فى سيارة جيب مرتدياً لباس الميدان الكامل.. بما فيه الخوذة.. وكان من الضخامة بحيث كمن طوله جالساً.. أعلى مما يسمح به ارتفاع سقف السيارة القماش.. فبرزت الخوذة من أعلى كنتؤ دائم..

انحدرت العربة إلى الطريق القريب وأخذت اتجاهها شرقاً إلي رفح.. على الجانب الأيسر بدت بقايا الخط الحديدى الذى كان يربط مابين القاهرة وبيروت.. وخلفها على الأفق البعيد زرقة مياه البحر كالعيون العميقة..

انعطفت السيارة يميناً فى اتجاه الصحراء.. صاعدة قبة عالية.. على قمتها وقف مجموعة من الضباط يمسكون بإحدى أيديهم خريطة.. وبالأخرى يشيرون فى اتجاه الشرق..

قفز الرائد ظريف ليخرج من العربة.. إلا أن الخوذة انحشرت زوايتها فى عارضة المشمع فجذب مرة أخرى إلى الداخل.. منحنياً مديدة يتحسس سبب الإمساك.. ثم مد يده الأخرى يعالج رباط الخوذة حتى خلعها خارجاً برأسه عالية ممسكاً بها بين يديه وضعها على رأسه مرة أخرى.. سار صاعداً القبه وأتبعه بخطوة..

التفت متسائلاً: جاهز بكل حاجة يا محمود.. الحرايط والبوصلة.. والنظارة. وكله..

-.. جاهز بكله يا فندم..

-.. إنت عارف دلوقت إحنا رايحين فين؟؟..

-.. لا يافندم.. أنا رسمت الشفاف اللى سيادتك أمرت بيه.. ولسة مخلص تلوين دلوقت حالاً..

-.. عملت الجداول..

تلك الجداول عبارة عن حسابات مطولـة طولاً كبيراً.. إلا أن نتائجها على جانب كبير من الأهمية.. فتحدد كم من المحتمل نحتاجه من ذخائر فى أيام القتال الثلاثة الأولى.. من اليوم الأول قتال حتى اليـوم الثالث.. مقسمة إلى ذخائر مدافع.. ورشـاشـات.. وبنادق وحسابات أخرى لتعيين الجنود.. وثالثة للميـاه.. ورابعة للوقود.. وكنت بارعاً فى هذه الحسابات براعة شديدة.. دقيقاً إلى أقرب طلقة بندقية..

رددت سعيداً فخوراً.. عملتها يافندم ونزلتها على الخريطة ولونتها..

-.. زى مافهمتك يا مختار..

-.. بالضبط يافندم..

-.. هايل.. ربنا يسهل.. أنا قلتلك إحنا رايحين فين دلوقت؟؟..

-.. لأ يافندم..

-.. إحنا رايحين استطلاع.. مع قائد اللواء..

-.. حاضر يافندم..

حينما وصلنا إلى قمـة التبة هبطنا مـرة أخرى إلى وادى صغير.. حيث أعـدت خيمة كبيرة.. حولها حلقات من الضباط.. منهمكون فى نقاش حامى الوطيس..

كان قائد اللواء يجلس على عصا مجهزة لتكون كرسياً مؤقتاً.. يدخن البايب.. وقعت عينا القائدعلى الرائد ظريف فهب واقفاً آخذاً عصـاته فى يده صـائحاً:

-.. اتفضلوا.. مشيراً إلى الخيمة..

هرول الضباط إلى داخل الخيمة.. تناول منى الـرائد ظريف حقيبة الخرائط وأمرنى بالجلوس خلفه. ثم فتح الخريطة وألقى عليها نظرة عابرة.. راضية..

الخيمة كبيرة الكـراسى أشبه بالفصل الـدراسى.. وفى مواجهتها جلس قـائد اللواء وأمامه منضدة عليها مفرشاً من التيل وخلفه حامل كبير مثبت عليه الخرائط.. أشـار إلى أحد الضباط.. الذى قام بتثبيت الخريطة.. وأخرج من جيبه شىء كالقلم.. جذب طرفه.. فتحول إلى مؤشر طويل.. يمكنه من الإشـارة إلى المواقع المختلفة..

ولم يكن هذا الضـابط سوى الرائد أركـان الحرب عزت.. لم يكن مجرد ضـابط أقدم

رتبة.. لكنه كان أملأ.. ومثلاً أعلى لكل الضباط الصغار... نال شهادة أركان الحرب وهو لا يزال برتبة النقيب.. وكان أحد الأعمدة الهامة لهذا اللواء أثناء خدمته السابقة منذ عامين باليمن.. فهو المخطط والعقل المدبر.. والمساعد الذكى للقائد.. ولهذه الجهود نال ترقية استثنائية إلى رتبة الرائد.. فكل دفعته من النقباء وهو فقط الرائد بينهم.. علاوة على درجة أركان الحرب التى يحملها.. كنت أنصت إليه مشدوها.

أخذ يشرح خطة الدفاع بإسهاب وثقة.. ضاغطاً على مخارج الألفاظ.. محدداً المواقع مستنتجاً احتمالات مناورات العدو.. بمنطق مقبول ومشوق.. والضباط من حولى.. (وكلهم أقدم منى رتبة..) صامتين يستمعون بلا تعليق..

إن كل ماحولى يهتف بالنجاح.. فلا يمكن أن يفكر عزت فى خطة ولا تكلل بالنجاح.. لا يمكن ألا يضع لكل شىء حسابه.. ولكل موقف احتماله..

انتهى عزت من عرض الخطة.. أو المحاضرة عن الخطة.. ووجه سؤاله التقليدى.. أى أسئلة.. وبالطبع لم تكن هناك أى أسئلة..

ودلوقت حضراتكم معايا نشوف الأرض.. نهض قائد اللواء.. قائلا.. صعدنا إلى قمة التل مرة أخرى..

وقف أحد النقباء يشرح طبيعة الأرض المتدة أمامنا ويشير إلى نقاط معينة والقادج يتابعون مايقول على الخرائط يرسمون دوائر وخطوط.. محدداً طرق اقتراب العدو المحتملة.. وقوته التى من المحتمل تكريسها للهجوم.. ونراجع نحن أرقامنا مع مايقول.. ثم جاء رائد مهندس شارحاً محدداً أماكن حقول الألغام.. وكثافتها.. ودرجة استعدادها.. فقد تم زرع ألغام فى مواجهة اللواء بالكامل.. محاطة بالأسلاك الشائكة.. ولم يتبقى إلا قطع طريق العريش.. رفح.. حتى لا يكون هناك احتمال لإختراق مواقع اللواء.. وأعلن عن كميات من الأسمنت والطوب والحديد المقوس لكافة الوحدات لزيادة مستوى التحصينات بالمواقع.. وأخذ يتلو جدول الاحتياجات وكل قائد كتيبة يدون مايخصه منها..

فى منتصف النهار.. انتهت أعمال الاستطلاع.. ووقف قائد اللواء خطيباً قائلاً:

-.. إحنا أحسن لواء فى القوات المسلحة.. وده بشهادة الجميع.. الموقع اللى إحنا فيه

ده.. مش جديد علينا.. إحنا اللى حفرناه بإيدينـا.. عساكرنا وضباطنا شافوا العذاب فى تجهيزه.. خطة القتـال بتاعتنا أنا راضى عنها تماماً.. والقيـادة كمان راضية عنها.. كل واحد فيكم عارف دوره كويس قوى.. وكل عسكـرى حافظ حايعمل إيه.. وكل ضابط فاهم حتى حبـاية الـرمل تنحط فين.. يعنى بالعربى كـده مفيش عدو يعـدى من هنا.. عاوز يعـدى.. مفيش مانع.. بس على جثتنـا كلنا.. وأنا أولكم.. مـن الصبح بإذن الله.. عـاوز زيادة التحصين تبتـدى علشـان نخلص منهـا بسرعة.. ونبقى مطمئنين أكثـر.. وأكثر..

كمان عاوز تـوعية للجنود والضبـاط اللى فى المواقع.. بالحالة من جميع جـوانبها.. لازم شرح المؤتمر الصحفى بتاع الرئيس.. والمعـاهدة مع سوريا.. والتزامـاتنا.. عاوز روح معنوية عالية.. وأى صعوبات.. أنا موجود وشكراً.. ودلوقت بقى..اتفضلوا..

هبطنا التبـة العالية عـدواً.. قفزت إلى العربـة.. وجلس القائد إلى الكـرسى الأمامى بجوار السـائق.. ومد يـده إلىّ بالخريطـة فقمت بثنيهـا مرة أخـرى ووضعتها بعنـاية بالحقيبة.. خلع الخوذة وألقـاها بين قدمي.. وأخرج منديـلاً وأخذ يجفف العرق.. هبت نسمة باردة آتية من البحر.. أدار رأسه متسائلاً:

-.. فهمت يا مختار اللى إتقال كله؟؟..

-.. حفظته يا فندم..

-.. تفكرنى بموضوع مواد التجهيزات الهندسية.. علشان نبعت نيجيبها..

-.. حاضر يافندم..

ابتسم ابتسامة راضية واستطرد:

-.. بـالمناسبـة يا حضرة الضـابط.. إبقى تعالى كل معـانا فى الميس الصغير.. بـدال ماتاكل لواحدك فى اللورى..

كان مركز قيـادة الكتيبة فى منطقة جرادة لايعدو أن يكون ثـلاثة حجرات صغيرة.. وما هى بحجرات.. لكنها ملاجىء تسمى باللغة العسكـرية ملاجىء سريعة.. أما باللغة العاديـة.. فقد جـرت العادة على تسميتهـا (ملاجىء قرد).. ذلك إنها عبـارة عن قفص حـديدى على شكـل نصف دائرة.. له بـاب واحـد ضخم متين يفتح من الـداخل أو من

الخارج.. يغطى بطبقة من الخيش المقطرن.. ويدلى فى حفرة عميقة ثم يهال عليه التراب.. ويكون منظره قبل إنزاله الحفرة.. مطابقاً تماماً.. لقفص القردة.. بحديقة الحيوان..

وقد خصص للقائد ومعه النقيب سمير حجرة.. للنوم.. وكمكتب.. وأخرى لنومى ومعى ضابط الحملة وضابط الشئون الإدارية.. والثالثة مجهزة كغرفة إدارة عمليات ثابتة بها التحويلة.. وأجهزة الاستقبال والإرسال.. وخريطة التسجيل.. يتصل الثلاثة حجرات معاً بواسطة خندق.. عملنا أثناء إنشاء المركز أن يتسع بقدر الإمكان ليمكن وضع منضدة وعدة كراسى تصلح لتناول الطعام.. هذا الخندق بما فيه من منضدة صغيرة وبضعة كراسى.. هو ماتعارف على تسميته.. بالميس الصغير..

كان تناول الطعام بالميس الصغير الظليل المعزول عن الأتربة وجيوش الذباب.. أفضل ألف مرة من خوض معركة الطعام منفرداً.. بصندوق اللورى مع الكفاح.. ضد الذباب الانتحارى اللحوح..

وصلنا إلى مركز القيادة.. لاح النقيب سمير مبتسماً فوق المركز.. فقابل الرائد ظريف فور نزوله من السيارة.. قائلاً:

-.. سعادتك إتأخرت.. الأكل قرب يبرد..

ضحك القائد من أعماقه مداعباً سمير:

-.. يا ترى طابخين إيه النهاردة؟؟..

-.. سمك دينيس مشوى.. وأرز.. وسلطة طحينة..

استطرد القائد ضاحكاً:

-.. إلحقنى..

هبطا سوياً إلى الميس الصغير.. أما أنا.. فقد ركضت إلى عربة القيادة.. وألقيت حاجياتى إلى الجندى المراسلة.. آمراً إياه التحفظ عليها.. وعدت سريعاً إلى الميس الصغير حتى لا تفوتنى الأكلة الشهية..

برز من جانب أحد اللوارى ضابط الشئون الإدارية.. والحملة.. وصاحا متسائلين..

-على فين يا مختار؟؟..

-.. ع الميس.. ميت م الجوع..

-.. خدنا معاك.. إحنا مرابطينلك من زمان.. واقعين م الجوع.. ورحنا نتسابق إلى

الميس.. هبطنا بأقصى مايمكن من قدرة على الهدوء.. ودلفنا إلى ملجأنا الصغير.. وخرج كل منا.. وبيده كرسى ميدانى.. وضعنا الكراسى حول المائدة وجلسنا فى هدوء بينما حام حولنا الجنود يضعون الصحاف ورائحة السمك المشوى تشنف أنوفنا.. بعد اكتمال الأعداد صاح القائد:

-.. تفضلوا..

بينما بدأ النقيب سمير متململاً مهموماً.. ينظر إلينا شذراً من طرف خفى..

انقضضنا على السمك كالقطط الشرهة.. ورحنا نأكل كالغيلان.. كان دسماً لدرجة سيولة السمن على شواربنا وذقوننا.. ولم يتبقى من السمك إلا شوك أبيض مخلى من اللحم.. إنكببت على الأرز أخلطه بسلاطة الطحينة ذات الليمون والتوابل تلك التى تعطى الأرز نكهة فريدة مع طعم السمك.. انتهيت من طعامى شبع من طعام شهى ساخن ولذيذ.. ورحت أدعو من كل قلبى للجندى الطاهى.. الذى أجاد فأبدع تحت شراف ذواقة خبير كالنقيب سمير..

فلتت من جوفى غصة عميقة.. فضحك الرائد ظريف قائلاً:

-.. على مهلك يا مختار.. إشرب.. إشرب لاتفطس..

تناولت كوباً من الماء المثلج.. أخذت أحتسيه فى رشفات متلذذة..

تلك الجلسة الأقرب إلى العائلية كنت قد حرمت منها منذ غادرت القاهرة..

أشعل الرائد ظريف سيجارة.. وسمح لنا بالتدخين.. أشعلت سيجارة واسترخيت تماماً.. وأنا أتلذذ بعد أكلة السمك الفاخرة.. وراح الخدر يسرى فى أوصالى..

رحت أرقب زملائى على المنضدة.. وقد جلسا صامتين مثلى.. وإن كانا يقاتلان ابتسامة خبيثة توشك أن تفضح سعادتهما..

بينما سمير يرقبنا غير راض.. وكنت مستعداً أن أقسم أنه لم يستمتع عشر ما تمتعنا به من لذة الطعام..

نهض القائد متوجهاً إلى حجرته وأوصد الباب دونه.. ألقى النقيب سمير الملعقة فجأة من يده وقدحت عيناه بالشرر ناظراً إلىّ عصبياً قائلاً:

-.. إيه يا مختار.. إيه اللى جابك هنا.. الأكل مش بيروحلك هناك فى اللورى؟؟.. ولقد

حذرت سؤاله منذ وطئت قدماى أرض الميس:

-.. وإحنا فى الاستطلاع.. الرائد ظريف أمرنى أكل هنا.. وضغطت على كلمة أمرنى ذلك.. أفحمه ردى.. وكان على وشك توجيه نفس السؤال إلى الضابطين الآخرين.. فتراجع..

هبط النقيب محمد كالزوبعة.. وما أن شاهد آثار الطعام على المنضدة حتى طاش صوابه ووجه جام غضبه إلى النقيب سمير قائلاً:

-.. طبعاً.. الناس هنا تاكل واللى فى المواقع عنهم ماكلوا.. أنا حاأعرف أتصرف مع عساكر الميس كويس.. حيث كده بقى.. أول واحد يجيله الأكل لازم يكون أنا.. أه.. مش عالم تشتغل وعالم..

كان على وشك القول:-.. وعالم تاكل.. ولا تعرف عن الشغل شيئاً.. إلا أن صوت القائد الآمر.. جاء عبر الباب الموصد يدعو محمد.. صمت على مضض وتوجه إلى غرفة القائد..

بعد قليل خرج وكان جنود الميس لايزالون يرفعون الصحان.. فأمرهم بوضع نصيبه من الطعام حالاً على المنضدة.. جن جنونه.. حينما أخبروه أن نصيبه قد أرسل فعلاً منذ قليل إلى موقعه.. ركض خارجاً وأنا فى أعقابه.. متوجهاً إلى المطبخ..

والمطبخ عبارة عن خيمة صغيرة كالحة.. بها منضدة مستطيلة عليها موقد غاز.. وعدة أوانى متعددة الأشكال.. تتماثل فى إسوداد قواعدها.. جلس الجنود يتناولون طعامهم.. هبط عليهم النقيب محمد قاطعاً جلستهم السعيدة.. كصواعق الشتاء.. وكان لغضبه تأثير على الجنود شديد.. نهض الجنود فزعين:

-.. مين فيكم بعت غدايا على الموقع؟؟..

كان سؤالاً محرجاً.. والإجابة عنه من أحدهم متطوعاً.. أشد حرجاً.. لما قد يتبعه من عقاب بدنى قاسى.. على شكل صفعات وركلات.. فوقف الجنود صامتين كأن على رؤوسهم الطير كان أشدهم فزعاً رئيسهم.. العريف فاروق.. حكمدار الميس والذى كان يعمل قبل الجندية مساعد قصاب.. ولما كانت هناك علاقة مابين القصاب والميس.. حيث يشتركان فى اللحم.. رشح ليكون طباخاً.. وبعد تجاربه العديدة الفاشلة التى دفعنا ثمنها فادحاً فى شكل وجبات لا شكل لها ولا طعم.. ارتفعت مهاراته.. ليرقى إلى رتبة

العريف.. ويكون حكمداراً لميس الضباط..

طـويلاً.. فـارع الطول.. النسبـة مابين رأسـه إلى خصره.. أكبر منها مـابين الخصر والحذاء ذو قدمين.. كبيرين يحشرهما حشراً فى حذاء كاوتشـوك.. فكان إذا سار تمايل كجـذع نخلة يحركهـا الهواء.. على رأسـه طاقيـة ذات رفـرف.. أقل قطراً من رأسـه.. أصبحت كعرف الهدهـد.. كانت أشهر صفاتـه هى الخوف المرضى من الضباط.. فإذا ماوجه إليـه أحدهم أقل لوماً.. أخذت فـرائصه فى الارتعاد.. بحركة اهتـزازية واضحة تدعو للرثاء.. لذلك تجنب جميع الضباط لـومه.. أو تقريعه.. وعرف الجنود عنه ذلك.. فكانوا يهددونه باختلاق أخطاء ينسبـونها إليه ليبلغونها إلى الضباط.. فكان رغم قوته البدنية الخارقة.. ينخرط فى البكاء..

ـ تقدم النقيب محمد بخطوة سريعة وأمسك بتـلابيب فاروق.. وأخذ يجذبه ويرجعه إلى الوراء بعنف.. إمتقع وجه فاروق.. وبرزت عيناه من محجريهما.. وتدفق زبد أبيض من شدقيه.. وأخذت فرائصه فى الارتعاد والنقيب محمد يصيح:

ـ.. مالك ياواد.. إثبت يا عريف.. الله.. مالك ياوله..

ولم يكن فاروق فى حـالة تسمح لـه بالرد على سـؤال محمد.. الـذى لم يجد بداً من تركه.. حتى يعى ماحوله.. فأخذ يتكلم بهدوء..

ـ.. ما تخافش.. مـاتخافش يا عريف فاروق.. بس زى مـا أخرت الأكل روح الموقع هاته.. خمس دقائق بالعدد وتكون هنا.. فاهم..

كالقذيفة انطلق فاروق.. بخطوات سريعـة مهرولة.. واختفى فى اتجاه موقع محمد.. وواجه باقى الجنود دافعاً قبضة يده فى وجوههم قائلاً:.. حاأوريكم..

دار على عقبيه يغادر الخيمة.. ووضـع يده على كتفى مبتسماً قائلاً:

ـ.. لا مؤاخذة يا محمود.. لو الواحد معملش كده.. حايضيع..

ـ الحمد لله على السلامة يافندم..

ـ.. الل.. لسة فاكر.. بالمناسبة..

ـ.. أيوه يافندم..

ـ.. إنت مش ضـابط الاستطلاع..

-.. أيوه يافندم..

-.. طيب.. إيه أخبار العدو.. على حسك.. وأخذ يضحك..

توجهنا إلى الميس الصغير.. جلس محمد على رأس المائدة فى انتظار الطعام.. بينما دخلت إلى القائد أذكره بموضوع المهمات الهندسية.. المطلوب إحضارها من قيادة اللواء..

أمرنى بإرسال إشارة إلى جميع ضباط الكتيبة للاجتماع فى القيادة مساء اليوم.. عدت مرة أخرى إلى مركز القيادة الثابت جلست إلى التحويلة أبلغ الإشارة بنفسى.. انتهى النقيب محمد من طعامه.. ودخلنا.. إلى ملجىء.. جلست على سريرى.. فى حين استلقى محمد على سرير مصطفى المقابل لى.. ورحنا فى نوم متقطع.. حتى إذا ما هبط الظلام.. خرجت إلى الهواء الطلق.. عمت الصحراء السكنية.. جلست على بعض أكياس الرمل.. وكان الملازم أول فاروق يعد المناضد والكراسى والمصابيح استعداداً لاجتماع قائد الكتيبة مع الضباط..

بدأ الضباط يتجمعون وأخذنا نتبادل الحديث الذى لم يخرج عن الحرب.. وإن لاحت بعض الألفاظ الغريبة هنا.. وهناك.. فالإجازات متوقفة منذ عشرون يوماً.. وهناك من بلغ مكوثه دون إجازة مدة الشهرين.. وبالتالى اختفى كل أمل لى.. فى القيام بإجازة.. فأنا آخر من عاد.. وبذلك.. آخر من يستحق القيام بإجازة.. صعد القائد من مركز القيادة.. تحت إبطه عصائه وبيده دوسيه ونوتة.. إلى جواره النقيب سمير.. جلسنا حول المنضدة.. وأخذ القائد يشرح الموقف الدولى.. وأبعاد الصراع المنتظر مع إسرائيل.. وراح يؤكد على واجباتنا ضابطاً.. ضابطاً.. باعثاً فينا الأمل.. مشجعاً لنا فى إنجاز أعمال التحصين.. وإنبرى الملازم حسين.. ذلك الملازم المجند الجديد يسأل القائد عن إمكانيات تدخل الأسطول السادس فى حالة نشوب حرب.. وفتح الرائد ظريف الدوسيه وتناول ورقة أخذ يقرأ منها بعض الفقرات المقتضبة من خطبة المشير عامر القائد العام فى إحدى القواعد الجوية.. حيث سئل سؤالاً مشابهاً.. فأجاب بأن لدينا إمكانيات ضرب هذا الأسطول إن هو تدخل فى الصراع..

وزاد الرد الحاسم حماسة الرجال فوق حماستهم.. وبدأ الضباط يتبادلون الآراء الحرة.. الثنائية،، والتى تؤكد كلها قدرتنا على سحق العدو.. سحقاً.. نهض الضباط فى

العـاشرة.. كل متوجهـاً إلى مـوقعه.. ولم يتبقى إلا هيئـة قيـادة الكتيبة ومعنـا النقيب محمد.. وكان الرائد ظريف فى أفضل حالاته المعنوية استرخى فى جلسته.. يتكلم بصدق من القلب.. كلاماً.. يدخل القلب مباشرة.. سأله النقيب محمد إن كان قد اشترك فى حرب عام ستة وخمسـون.. فاختفت ابتسامته وطافت فى عينيـه سحب داكنة.. ورد بصوت هادىء:

-.. أيوه.. اشتركت فى حرب ٥٦.. فى شرم الشيخ..

-.. ياريت سيادتك تحكى ذكرياتك عنها.. وتبقى استفادة..

راح القائد يدخـن.. والمصباح يلقى على وجهه ضوءًا ضعيفاً.. على أثـر ذلك السؤال ازداد بريق عيناه.. وتهدلت ملامحه فى حزن عميق..

ماكنت أتصور أن الرائد ظريف يمكنـه الحزن.. تلك السلطة.. تلك القوة.. والسمعة الزائعـه الصيت.. كنت أظنها بمثابة الـدرع الواقى له من الأحزان.. تصـد عنه هجمات الذكريات المؤلمة..

-.. كنت أيامها ضابط صغير.. زى محمود مختار كده.. وفى سنة.. كان عندى أربع مـدافع مضادة للطـائرات.. كل مـدفع يحتل مـوقع منفرد بعيـداً عن المدافع الأخـرى بمسافة كيلو متر..

يتكلم كأنه يقرأ كتاباً مفتوحاً محت الأيام بعض حروفه شخصت عيناه بعيداً حيناً.. وحيناً آخر تتجول على صفحات وجوهنا.. بـلا تركيز..-.. فى اليوم الأول حاول المشاه الإسرائيلى الهجـوم على المواقع.. بالعـربـات المصفحة والـدبـابات.. بعـد ضرب كثيف ومركز بالمدفعية.. لكن بمجرد ماقربت الـدبابات والعربيات فتحنا النار.. اللى دمرناه.. دمرنـاه.. والباقى رجع يهرب تانى.. انسحبـوا تانى يوم.. جت الطائرات الفـرنسية.. طائرات ورا طائرات.. مدافعنا المضادة كانت قليلة.. انضربت كلها.. أصبح الهوا كله من غير حمايـة.. لا فوق طيران للحمايـة.. ولا على الأرض مـدافع تبعـد الطائرات.. أربعـة وعشرين ساعة.. لا عمل للطائرات إلا تحميـل قنابل.. وعلى اللواء تحدف.. إتحول اللوا كله إلى شعلة نـار.. فى اليوم ده قدرت أميز بين الطيـار الفرنسى.. والطيار الإسرائيلى.. الفـرنسى.. جبـار.. مفترى.. زى مـايكون عـاوز يضرب المدفع بجنـاحـه.. الإسرائيلى بيضرب فى المضمون.

تانى يوم الصبح.. جاء الإسرائيليين بالدبـابات والسيارات المصفحة.. ماكانش فيه مقاومة خالص.. كل المدافع انضربت.. وكل دشم الـذخيرة انفجرت.. أصدر قائد اللواء امراً عاماً بعدم المقاومة.. التى أصبحت لا تجدى.. لأنه مفيش سلاح مناسب للمقاومة..

المهم.. فى النهاية.. اللى كان حى.. خذوه أسير..

عارفين يعنـى إيه تكون أسير؟؟.. لا حقـوق لك.. لا أمل.. لا حياة.. حيـاتك تنتهى فى ثانية واحدة.. لمجرد أن شكلك لا يعجب آسريك..

إذا شكل الأسرى مشكلة فى النقل كـان قرار التخلص منهم برميهم بالـرصاص هو الحل السهل.. حيـاة الأسر.. هى حياة الـدقيقـة.. بدقيقـة.. تـوقع ضربك بالنـار فى كل لحظة.. دون سبب.. دون مبرر..

- قسمونـا مجموعـات.. وكنت فى مجموعـة الملازمين.. جاءوا بـالجنود.. قسمـوهم مجموعات.. على رأس كل منها ملازم.. وكلفنا بـدفن شهدائنا.. آسرينا كانوا يهوداً من اليمن. لهم شعور طـويلة متهدلـة على الأكتاف.. وأنـوف معقوفة.. كـالسنانير.. تبرق عيـونهم ببريق الوحشيـة.. بأيديهم بنـادق مثبت عليهـا السناكى.. مـوجهة دومـاً إلى بطوننا.. وهناك كلابا ضالة تنهش زملاؤنا الشهداء..

بعد ذلك أخذونـا فى سيارات متهالكة إلى إسرائيل.. فى كل مستعمـرة يتوقفون حيث تخرج النسوة والأطفال يتفرجون علينا ويبثقون فى وجوهنا.. حقداً وكراهية.. عشت فى الأسر بلا وعى.. على هـامش الحياة والـدنيا والأمل.. والغد.. وبعـد شهور.. عـدنا إلى القاهرة..

صمت القائد طويلاً.. كأن شريط الذكريات المؤلم يدغدغ روحه.. فى هذه اللحظة كان يعـايش مامـر به منـذ إحدى عشرة عـاماً.. جـرح الأسر لازال يدمى روحـه وكرامتـه وكبرياؤه.. لازال يقطر مرارة وأسى.. ورغبة قوية فى الثأر للكرامة المهدرة..

تدخل النقيب سمير فى ود قائلاً:

-.. سيادتك قاسيت كتير قوى معاهم ياقندم..

-.. قوى.. قوى.. قوى.. معندكش فكرة يا سمير.. لو عشت مليون سنة.. مش ممكن انسى اللى حصل ده أبداً.. أبداً..

تدخل النقيب محمد متسائلاً:

-.. طيب.. وإيه رأيك فينا دلوقت يافندم.. لا فرنسا معاهم.. ولا إنجلترا سانداً هم.. وأهى روسيا.. واقفة لأمريكا زى القط للفار..

ضحك القائد طارداً جو الكآبة مؤيداً:

-.. دلوقت الوضع حاجة تانية خالص.. فى ٥٦ كنا بنحارب ثلاث دول دلوقت إحنا وهما.. وإحنا فين.. وهما فين.. النهاردة اللى ليه ثار عندهم لازم حاياخده.. ده اليوم اللى بستناه من حداشر سنة يا محمد..

كنت أتابع رواية الرائد ظريف بوجدانى وحواسى.. وخيالى.. الحرب والطائرات التى ترمى القنابل.. الكلاب تنهش الجثث.. الأسر.. الصبية والنساء يبثقن على وجوه الأسرى..

نقل القائد شريط ذكرياته إلى عقلى.. فرحت أرفض فكرة أن يأسرنى اليهود..

.. كيف لا أقتل نفسى إن تعرضت لموقف كهذا..

فى الأيام التالية كان ضباط اللواء كمقاولى الأنفار.. يعملون بجنودهم الصبات الخرسانية وأعمال البناء والتحصين.. طوال النهار.. وكل منهم يحمل سلاحه على كتفه.. والراديو الترانزستو فى يده يسمع.. ويسمع جنوده الأناشيد الوطنية.. وصوت الرئيس.. فتردد جنبات لوادى بين وقت وآخر صوت جنود تهتف..

-.. الله وأكبر.. الله وأكبر.. حانحارب.. حانحارب..

فى أحد الأيام قام الرائد ظريف بالمرور لتفقد التحصينات النهائية لسرايا الكتيبة.. وعلى الغداء عاد منشرحاً معتدل المزاج معلناً:.. دلوقت بس أنا مطمئن على الكتيبة..

فجر اليوم التالى صحونا من النوم فزعين.. قفز ثلاثتنا فاروق ومصطفى وأنا معهم.. حفاه.. نستطلع تلك الجلبة والضجة غير العادية فوق مركز القيادة.. رأينا طابوراً طويلاً من اللوريات الجديدة تماماً.. تجر ورائها مدافع لازالت بشحم التخزين.. وقد اعتلى صناديق اللوارى جنود.. وماهم بالجنود. طوال الشعر واللحى بلا خوذات على الرؤوس.. تظهر من تحت سترات أفرواتهم قمصان وفانلات ملونة تبادلنا نظرة متسائلة مع بعضنا البعض.. وعدنا أدراجنا نرتدى ملابسنا..

عدت مرة أخـرى وبيدى سيجارة.. ولازال النوم فى جفـونى.. تقدم منى رائد كبير السن أكثـر من الخمسـين.. فى عمر والـدى تقـريباً.. أحمر الـوجـه بدين.. رفعت يـدى بالتحية العسكريـة.. فارتسمت على فمه إبتسامة مترددة.. وبدلاً من رفـع يده بالتحية العسكريـة.. مدهـا إلىّ يشد على يـدى بحرارة كـالصديق الحميـم قائلاً: أهـلاً.. أهلاً.. وسـهلاً.. إزيكم.. عاملين إيه هنا..

اعترتنى دهشة شديدة فرحت بدورى أسأله:

-.. أى أوامر سيادتك؟؟..

-.. العفو.. أوامر إيه؟؟.. أنا كنت بسـأل حضرتك.. مش هـى دى برضه الكتيبة.. بتاع المدفعية المضادة للطيارات..

رحت أستعيد فى سمعى مرة أخرى سؤاله.. بتاع المدفعية المضـادة للطيارات؟؟

كـانت اللهجـة أبعـد مـاتكـون عن تلك التـى تعـودت على التعـامل بها فى الجيش..للعسكريين لهجة خاصة للتفاهم فيما بينهم.. فى كل مكان.. أما كلمات ونبرات هذا الرائد ومن أول انطباع توحى إنه رجل مدنى مائة فى المائة..

رددت عليه بالإيجاب.. فأردف فى حياء..

-.. يا هل ترى القائد بتاعها موجود..

-.. أيوه.. القائد بتاعها موجود..

صمت متردداً.. فاستطردت.. سيادتك عاوز تقابله؟؟..

-.. بس مش عاوزين نضايقه..

هبطت الـدرج مرة أخـرى.. متوجهـاً إلى مكتب القـائد... فقد دب النشـاط فى مركـز القيادة وكـان الرائد ظـريف فى ملابـس الميدان الكاملـة.. يتكلم بـاهتمام فى التليفون.. فوضـع يده على الميكرفون وسألنى عما أريـد.. فأخبرته بالمظاهرة التى بالخارج.. وإن هناك أحد الرواد العجائز يريده.. فأشار لى بيده أن أتى به..

وجهت الرائد العجوز إلى حيث مكتب القائد.. خرجـت كى أتوجه إلى مكتبى فى مركز القيادة المتحرك..

وقعت عينى على جنديـان متماسكا التـلابيب.. أحدهما يقبض على عنق الآخـر بيده

صائحاً به: إنت فاكر نفسك مين.. ده أنا أطلع.. وتقوه بسباب بذىء.. هرولت إلى حيث يتعاركان.. وقبضت على اقفيتهما معاً.. صائحاً:

-.. إيه.. إنتم فاكرين نفسكم فى الشارع.. بتتخانقوا مع بعض قدامى.. إنتم ملكية وللا إيه حكايتكم بالضبط..

رد أحدهم بلهجة شرسة متحدية.. لا.. إحنا احتياط..

لكزته بكوعى أسفل ذقنه وازددت ضغطاً على عنقه مؤيداً لما سوف أقول:

-.. لما تكون مين.. أمسح بيك الأرض.. ماإحناش فى قهوة بلدى هنا.. تقف فى حالك وتخرس.. إنتم من أى داهية؟؟..

كنت أريد الضغط على عنق الجندى الشرس.. الذى أصبح رويداً.. رويداً.. أكثر سلاسة واستسلاماً.. أنا من طنطا..

وكان الآخر يتطلع إلى فراح يقول: وأنا من السنبلاوين..

لكزتهما معاً صائحاً.. إيه.. حانتصاحب؟؟ من أى داهية.. يعنى من أى وحدة؟؟..

فردوا معاً بصوت خفيض:-.. من الوحدة.. دى..

تركتهما ورحت أنظر إلى طابور السيارات.. كان يجلس فى كل سيارة زوج من الضباط على نفس شاكلة الجنود ينظرون إلينا وكأن الأمر لا يعنيهم..

أخذت أنظر إلى الجنديان ورفعت قبضة يدى فى وجهيهما مهدداً:

-.. إحنا كلنا جيش.. كل واحد يحترم نفسه.. لو سمعت صوت واحد فيكم أو عينى وقعت على حد فيكم.. حادخله السجن على طول.. فاهمين؟؟..

رددا معاً:-.. فاهمني.. يا بيه..

بيه؟؟.. أصبحت بيه فى وسط كتيبتى.. فى الصحراء.. والحرب على الأبواب.. يقولها جنود.. رددت حانقاً.. بيه إيه يا ملكى إنت وهو؟؟.. فيه حاجة فى الجيش اسمها يافندم.. مسمعتوش عنها؟؟..

-.. سمعنا يا بيه..

رددت.. اسمها يافندم..

أمرتهما بالانصراف.. بعدما تأكد لى.. أنهما يحتاجان الالتحاق بمركز تدريب

ليتعلمون ألف باء الجندية..

جاءنى أجد جنودى يدعونى لمقابلة القائد..

كان الرائد ظريف يجلس على مكتبه مطرقاً.. إلى جواره جلس سمير صامتاً.. فى حين جلس أمامهما الرائد العجوز متلفتاً حوله فى إعجاب.. رفعت يدى بالتحية العسكرية.. فنظر إلى الرائد ظريف قليلاً ثم قال:

-.. روح يا محمود مع سيادة الرائد وريه المواقع كلها.. ومركز القيادة المتحرك وأكد لقادة المواقع إن ميعاد التجمع هنا الساعة خامسة بعد الظهر..

تساءلت دهشاً.. مؤتمر يافندم؟؟..

-.. لأ.. تجمع بالقوات.. علشان التحرك التكتيكى..

معنى التحرك التكتيكى ببساطة هو العزال الكامل.. نقل كل متعلقات السرايا للانتقال إلى مكان آخر..

-.. حانرجع العريش تانى يافندم..

-.. لأ.. حانطلع قدام..

تعودت على الموقع.. تعاملت مع كل شبر فيه.. كدت أصادق حبات الرمال عرفت مسالكه ودروبه.. حتى نباتاته البرية.. أسبوعان من العرق حتى بات الموقع قوياً حصيناً.. كل جندى وضابط يحفظ واجباته.. حتى أسلاك التليفونات التى مددناها عبر الرمال.. أستطيع الوصول إليها فى الظلام.. إن طول المعاشرة تخلق بين الجندى والأرض نوع من الألفة.. وكان انتقالنا من هذا الموقع.. إلى حيث لا أعلم.. شىء لم أكن أتوقعه.. ولم يتوقعه أحد.. ولا حتى الرائد ظريف.. خرجت من الملجأ.. صامتاً والرائد العجوز خلفى.. سألته عن سيارته.. فأشار إلى لورى ضخم محملاً بأكداس من الحاجيات التافهة القيمة.. ألواح مهترئة من الصاج.. وقطع طولية من الأخشاب العتيقة.. برزت من جانب اللورى قطعة خشب ضخمة من فلنكات السكك الحديدية.. وقبع فوق هذه الكومات جندى.. كمن يركب جمل..

فتح الرائد العجوز باب اللورى.. وصعد بعد جهد إلى جوار السائق.. مد يده يجذبنى إليه.. وكان يقود السيارة.. سائق ضخم الجثة أشعث الشعر والشارب.. ينفخ حنقاً

وضيقاً.. وتفيض حركته تزمراً.. ومع كل حركة من يده فى عصا الفتيس.. تشعر وكأنه سوف يخلعها من صندوق التروس خلعاً.. يضغط بكل ما أوتى من قوة على دواسة البنزين حتى تزأر السيارة زئيراً عالياً.. لو كان هذا السائق من وحدتى لكان مصيرة الفورى هو السجن بتهمة التدمير المتعمد لمعدات القوات المسلحة.. لكن قائد كتيبته المبتسم المنشرح.. لم يوجه إليه أى لوم.. فصمت أنا الآخر..

وبدأ الرائد العجوز فى إلقاء سيل من الأسئلة.. لا أكاد أنتهى من إجابة سؤال حتى يلاحقنى بالثانى.. والثالث.. وبنفس الأسلوب المدنى.. الأمر الذى جعلنى أتجرأ فى النهاية لأسئله:

-.. سيادتك كنت فين قبل ماتيجى هنا؟؟..

كنت أقصد بسؤالى.. أين كان سيادته..بمعنى فى أى وحدة كان يخدم..

كالصنبور راح يتدفق مستفيضاً فى الشرح:

-.. أنا يا بنى أصلى مدير فى وزارة الزراعة.. أنا مهندس زراعى.. زمان بقى فى ستة وخمسين كنت رائد احتياط.. بس سبت الجيش من يومها.. و.. و.. و.. فهمت إنه ودع حياة الجندية منذ عشر سنوات مضت.. حتى نسى تماماً أنه كان جندياً يوماً.. ما.. حياته مكرسة مابين مكتبه فى وزارة الزراعة.. وأسرته.. زوجته وأبناؤه.. ابنته الكبرى مخطوبة.. وهى على وشك الزواج.. المفروض أن يكون بالقاهرة.. ليجهز باقى حاجياتها.. لكن الجيش أرسل لاستدعاؤه للخدمة.. وهناك فى قيادة المدفعية.. كلفوه بقيادة هذه الكتيبة.. التى أتوا بجنودها.. من القوات الاحتياط.. والضباط الذين هم على شاكلته.. ولقد أسر فى أذنى.. إنه لأول مرة فى حياته يرى تلك المدافع.. ولا يدرى كيف تعمل.. لذلك فهو يسألنى رأيى فى مفاتحة الرائد ظريف فى ترك بعض الضباط والجنود المدربين لمعاونة كتيبته فى عملها.. لقد كان أسلوب سيادته يقطر سذاجة.. وكانت نواياه تفضح انفصامه التام بما يدور من حوله.. ولم أشأ أن أصدم تلك النوايا الطيبة فوافقت على رأيه متمنياً موافقة الرائد ظريف على طلبه..

ورحت أتساءل بينى وبين نفسى.. ترى..من فى القاهرة الذى أشار باحتلال هذه الكتيبة لمواقعنا الحصينة؟؟..

وبدأ شيء فى صدرى ينقبض..

كلما وصلنا إلى موقع هبط سيادته.. وقابل قائده فى منتصف الطريق مصافحاً إياه ربتاً على كتفه مردداً الجملة الأثيرة لديه:

-.. الله وأكبر.. دى حاجة عظيمة خالص.. خليكو معانا.. إحنا برضه رجالتكم.. بعد تفقد كافة المواقع عدنا مرة أخرى إلى قيادة الكتيبة.. قابلنا النقيب محمد خارجاً نظر إلىّ مبتسماً ابتسامة ساخرة قائلاً:- والله زمان يا سلاحى..

دخلنا مكتب الرائد ظريف الذى كان يقف متململاً.. ابتدره الرائد العجوز قائلاً:

-.. بقولك إيه يا سعادة البيه؟؟..

دون أن ينظر إليه..

-.. نعم..

-.. كنت بقول يعنى لو ممكن سعادتك تتكرم علينا.. وتسلفنا كده كام ضابط على كام عسكرى حلوين كده.. م اللى فاهمين.. ياخدوا بإيدنا الكام يوم اللى حانقعدهم هنا.. نبقى متشكرين قوى..

رغم تساوى رتبيهما إلا أن الرائد ظريف انفجر صائحاً:

-.. يا حضرة الصاغ إنت فاكر نفسك فى مكتبك فى الملكية هنا؟؟.. هنا جيش.. عارف يعنى إيه جيش؟؟.. يعنى كل كتيبة ليها ضباطها وعساكرها.. ممكن تستلف كرسى.. ترابيزة.. لكن ضباط؟؟.. فيه حد فى الدنيا يقول كده؟؟.. يبدو إن سيادة الرائد لم يكن موجوداً معنا.. فقد كان موجوداً بجسد يرتدى الملابس العسكرية.. لكن حواسه كلها لم تكن معه.. حضوره كان غائباً عن الموقع والكتيبة.. والجيش.. والصحراء.. والحرب الآتية.. والعدو.. كانت روحه هناك فى القاهرة.. مع زوجته وأولاده.. ومكتبه.. وابنته التى على وشك الزواج.. كان فكره ووجدانه فى الحقل.. والقطن.. والمبيدات الحشرية.. وذكرياته مع زملاؤه فى وزارة الزراعة.. لم يكن هذا الذى يتكلم.. كان شخصاً آخر.. يقف الآن ويشاهد كالممثل على المسرح.. يمثل ويشاهد نفسه.. ويحكم على نفسه.. وقد حكم على نفسه فى دوره الجديد.. بالفشل.. فإنه يقوم بدور لم يتدرب عليه أو يمارسه عشرة سنوات.. حتى نسيه تماماً.. ولم يعد يتذكر حتى ملامح هذا الدور الذى كلف

بالقيام بــه.. والآن.. أتوا به.. من فوق مقعــده بوزارة الزراعة.. ليمثــل دور قائد كتيبة مدفعية مضـادة للطائرات فى حرب وشيكة..

رد..بهدوء طيب بلاش.. المهم.. روق نفسك إنت..

جلس الرائد ظريف.. وأشار لنا بالجلوس..

-.. يا حضرة الضـابط محمود..

-.. أفندم..

-.. خد معـاك ضباط إشارة واستطـلاع الكتيبة دى وأقعـد معاه فى مركـز القيادة المتحرك.. وإشرح لـه الموقف.. وخطـة المواصلات السلكية والـلاسلكية.. وخليـه ينقل المواقع على خرايطه..

-.. حاضر يـاقندم.. ووجهت كلامى إلى الـرائد العجوز قائلاً: فين ضــابط الإشـارة بتاع سيادتك؟؟..

-.. أنا حاأقوم معاك أندهولك..

خرجنا سوياً إلى سطح الأرض.. ونظر إلى صف السيارات التى لازالت واقفة محملة صـائحاً: يا خليل.. يا خليل.. ياحضرة الصول..

وانبعث صوت من بعيد يجاوب.. أيوه يا بيه..

-.. هات الحاجة اللى معاك كلها وتعالى..

بعد قليل.. جــاء خليل.. طويل القامة.. قمحى اللـون.. حاسر الرأس.. يرتـدى حذاء كاوتشــوك فى قدميه.. وقد استطـالت ذقنه.. وتحت إبطه حقيبة خـرائط.. وعلى ذراعه اليسرى رتبة رقيب..

-.. أمال فيه ضابط الاستطلاع؟؟..

أمسك بذراع خليل فى حنان ورجاء قائلاً:

-.. خليل الكل.. فى الكل.. أصل معندناش ضـابط تليفونات واستطلاع.. وخليل بقى راجل مجدع.. ويعجبك.. بتاع كله..

رددت وراؤه.. بتاع كله؟؟.. حاضر.. تعالى ورايا يا بنى..

سرت فى خطى سريعة إلى عربة مركز القيادة المتحرك..

جنود مركز القيادة كل فى مكـانه.. صـعدت إلى.. العربة.. وجلست إلى مكتبى الصـغير وأشرت إلى خليل كى يصعد.. وقف منحنياً قليلاً فى مواجهتى.. فتحت حقيبة الخرائط.. وبسطت خريطـة عمليات الموقع.. ودعـوت خليل للنظر فى الخريطـة.. وأخذت أشرح.. وخليل يستمع.. فـاغراً فـاه.. منظره يـوحى بعدم فهمـه حرفـاً مما أقـول.. والجنود يرقبوننا فى دهشة.. وأخيراً يأست من إفهامه شيئاً..

-.. يا بنى إنت مش تخصصك إشارة واستطلاع؟؟..

-.. أيوه يا بيه..

-.. أمال ليه.. باين عليك مش فاهم حاجة؟؟..

رد ببساطة.. أصـلى استطـلاع مع المشاه.. ودى أول مرة أشوف فيها عـربية قيادة بتاع مدفعية مضـادة للطيارات..

-.. عمومـاً يا خليل.. دى حـاجة سهلـة جداً.. هـات الخريطة بتاعتـك وإنقل عليها المواقع دى..

دس خليل يـده فى حقيبة الخرائط.. وأخـرج مجموعـة كبيرة من الخرائط.. أخذنـا نفحصها.. واحدة.. بعد أخرى.. ونلقيها جـانباً.. وفى النهاية لم نجد أى منها ينطبق على منطقة العمليات..

سألته: جبت منين الخريطة دى يا خليل؟؟..

-.. من مصر.. وإحنا طالعين على هنا إدوهالنا.. ومضونى عليها.. وكان عبثاً إضاعة الـوقت.. فعـدت أدراجى إلى الـرائد ظريف وأخبرتـه بما تم.. تحولت عينـاه إلى اللـون الأحمر.. وبـات الكمد واضحـاً على قسمات وجهه.. ورفـع وجهـه إلى أعلى صـائحـاً من أعماقه.. والله العظيم ده حرام.. حرام.. حرام.. قطع ابتهاله رنين جرس التليفون..

-.. آلو.. أهلاً.. مساء النور يافندم.. حـاضر.. حاأسلمه الموقع الساعة خمسة ونص بالضبط حاأكون بالكتيبة على جانب الطريق..

ووضـع السماعة..

-.. روح يا مـختار.. إندهلى الرائد ده.. أهو نساعده.. ونبقى عملنا اللى علينا.. وربنا يتولاه..

أتيت بالرائد العجوز.. الذى ألقى بنفسه على كرسى مواجهاً الرائد ظريف..

والجنود فى الخارج يجهزون المنضدة للغذاء..

رفع الرائد ظريف سماعة التليفون وطلب قادة المواقع.. وأصدر إليهم أوامره الصريحة بترك كل وثائق العمليات لضباط الكتيبة الأخرى.. مع شرحها شرحاً كاملاً لهؤلاء الضباط.. مع تسليمها لهم بايصالات.. على أن يقوموا بردها مرة أخرى.. إذا ماتحركوا من الموقع..

بذلك أصبح على ضباط الكتيبة الاحتياط فقط قراءة الخرائط للإلمام.. بالموقع الدفاعى الحصين.. وخطة الدفاع كلها..

تناولنا الغذاء صامتين.. كل متقوقع داخل ذاته..

بعد الغذاء.. أتى مصطفى باللوريات.. وأخلينا الميس الصغير..

فى الخامسة كانت أرتال سرايانا تتدفق إلى قيادة الكتيبة.. وأرتال سرايا الكتيبة الجديدة.. تتدفق إلى مواقعنا الحصينة.. أعطى قائد الكتيبة إشارة التحرك.. وكمن نودع حبات الرمال المخلوطة بالعرق.. أثرنا سحابة من الغبار ورائنا..

فى الخامسة والنصف كانت الكتيبة على جانب الطريق إلى رفح.. منتشرة فى ساحة واسعة من الصحراء.. والبحر هناك أكثر قرباً.. والطريق إلى العريش تنهب عليه سيارات الأمم المتحدة الأرض نهباً..

ولم يكن أحداً يعرف وجهتنا القادمة..

سألت النقيب محمد الذى كان متفائلاً منشرحاً.. عن معنى مايحدث فأجابنى بثقة: دى تحركات تكتيكية.. بيسموها ضباب ماقبل المعركة.. لإرباك العدو حتى لا يعلم أوضاعنا حينما تبدأ المعارك..

وكان.. كما كان دائماً.. فى رأى النقيب محمد وجاهة.. وحصافة.. فاقتنعت.. لأننى كنت على استعداد بالإقناع بأى رأى ينبع من خارجى..

وعلى الجانب الآخر من الطريق.. حيث تركنا مواقعنا رحنا نراقب أشباح الجنود.. يتواثبون هنا.. وهناك.. دون ضابط ولا رابط..

.. تهادت عربة القائد.. بالقرب منا.. وفوجئت بإبراهيم يقفز منها.. متأبطاً حقيبة

جلدية صغيرة الحجم.. وتذكرت فوراً إننا أول شهر يونيو..

تقابلت مع إبراهيم فرحاً.. كنت على شفا الإفلاس.. وابتدره النقيب محمد مازحاً-.. حاتقبضنا دلوقت يابو خليل وللا إيه؟؟..

-.. حالاً يافندم.. ونظر إلىّ واستطرد.. -.. وإنت كمان يا مخ.. ليك عندى الشهر ده زيادة مائة وأربعون جنيهاً..

-.. ليه يابو خليل.. هو الجيش حايطلعلى زكاة الشهر ده..

-.. لأ.. أصلك الشهر ده.. ضابط ميس..

-.. يا نهار إسود.. ده أنا معرفش الفرق بين الكوسة والقلقاس..

ورحت بسرعة أستعرض تلك الحجج والبراهين التى تمكننى من إقناع الرائد ظريف بإعفائى من هذه المهمة التى هى فعلاً فوق مستوى قدراتى..

فضابط الميس الناجح لابد وأن يتوافر فيه عدة شروط.

أولاً أن يكون ذواقة.. وأنا أبعد ما أكون عن هذه الموهبة.. فحينما أتناول طعامى يستوى طعم البطاطس.. مع طعم البامية.. ولم يكن لى فى يوم من الأيام مطلباً خاصاً فى لون معين من الطعام.. ناهيك عن خبرتى المنعدمة فى الحكم على جودة طهى الطعام.. كانت تلك أول الحجج.. أما الأدهى.. فإنه يجب على ضابط الميس أن يكون من البراعة بحيث يوفق بين رغبات أربعة عشرة ضابطاً بحيث يكون كل منهم فى النهاية راضياً تماماً.. عن طعامه اليومى.. وبالتالى يجب أن يكون ملماً بكافة أصناف الأطعمة.. وتلك خبرة أجهلها تماماً..

كما وإننى لا أقوى على الوقوف فى المطبخ دقيقة واحدة.. فكيف لى الإشراف ثلاثة مرات فى اليوم على إعداد الأطعمة؟؟..

ولحبى لزملائى فقد أشفقت أن يبتليهم الزمن بى كضابط ميس فى هذه الأيام العصيبة.. فيزداد شقائهم شقاء..

ولم يكن هناك بداً من استجماع شجاعتى ومناقشة الرائد ظريف فى هذا الأمر..

توجهت إلى سيارة القائد.. كان يجلس فى صندوق اللورى واضعاً مكتباً خلفه كرسى.. وإلى جانبه يجلس النقيب سمير- يتسامران.. رفعت يدى بالتحية العسكرية..

خير يا مختار.. فيه حاجة؟؟..

-.. حضرة الضابط بلغنى إن سيادتك أمرت بأنى أكون ضابط ميس الشهر ده..

-.. فعلاً..

-.. بس يافندم أنا معنديش أى فكرة عن الطبيخ والأكل والحاجات دى..

-.. علشان كده.. أنا عينتك.. علشان لازم تتعلم..

-.. لكن يافندم..

قاطعنى بإشارة قاطعة من يده.. استلم الفلوس.. وإبذل مجهود.. وأى حاجة إسأل النقيب سمير.. إتفضل..

عدت أدراجى محملاً بخفى حنين.. قابلنى إبراهيم ضاحكاً قائلاً:-

- شد حيلك يا مخ.. كلنا لها..

-.. نورنى يا إبراهيم..

-.. أنا سداد.. وتحت أمرك.. بس إقعد ساعدنى فى صرف المرتبات..

.. وأخبار صرف المرتبات تسرى فى الوحدة كسريان النار فى الهشيم.. فقد تجمع الجنود فى حلقات ترقبنا عن كثب..

أنزلت من اللورى مكتب ميدانى صغير وزوج من الكراسى.. ومصباح كيروسين.. جلس إبراهيم مواجهاً للدرج ووضع النقود فى ترتيب داخله.. مفتوحاً نصف فتحة.. وأمامه دفاتر الاستمارات.. فى حين قمت بصف الجنود صفوفاً تمثل سرايا الكتيبة طبقاً للكشوف.. بينما تركنا النقيب محمد مشغولين.. وحث خطاه للانضمام إلى قائد الكتيبة ورئيس العمليات..

قضينا شطراً طويلاً من الليل فى عملية صرف المرتبات.. حتى إنصرف آخر جندى.. ثم أتى الضباط.. وتناول كل منهم مرتبه.. وقام إبراهيم بإعادة ترتيب حقيبته وحساب ماتبقى معه من مبالغ.. مقارناً إياها.. بما تبقى من أرصدة لم تصرف بعد وهمس منشرحاً.. كده تمام.. التمام..

جهز الجندى المراسلة صندوق اللورى للنوم.. حيث فرش على أرضيته زوج متقابل من البطاطين كل منهما تناه نصفان لتصبح أكثر ليونة.. ولتحتل حيز أضيق.. وعلى كل

منها وسادة مترية.. وضع عليها فوطة الوجه.. أضاء مصباح كيروسين صغير.. صعد إبراهيم إلى اللورى ووضع حقيبته إلى جوار الوسادة فى إتجاه حائط الصدوق.. وجلس يخلع حذاؤه.. استدار مرة أخرى.. وفتح الحقيبة أخرج منها علبة لحم محفوظ وباكو بسكويت ميدانى.. كنت قد نسيت أننى جائع.. ولكن بمجرد رؤيتى للطعام.. سال لعابى.. همت بركوب اللورى..

إنشقت الأرض فجأة عن العريف فاروق حكمدار الميس.. رفع يده بالتحية العسكرية متردداً.. نظرت إليه كى يتكلم.. لكنه لم يتكلم.. فقط ظلت يده مرفوعة إلى أعلى.. صحت به.. إيه عاوز إيه.. إنت كمان..

رد بسرعة دون أن ينزل يده.. سيادة النقيب سمير.. بيقول لسيادتك عاوزين نشترى حاجة الفطار والعشاء..

أه.. فقد بدأت المشاكل.. نظرت إلى إبراهيم مستغيثاً.. الذى وجه كلامه إلىّ قائلاً: إديله عشرة جنيه..

ثم إلى فاروق..

تشترى ٣ كيلو فول تدميس.. وكيلو بسطرمة.. وكيلو سمن.. وميت بيضة.. وكيلو جبنة رومى.. وعلبة جبنة بيضاء.. وعلبة حلاوة كبيرة.. البسطرمة والجبنة الرومى تتقطع حتت صغيرة رقيقة فاهم..

-.. فاهم..

-.. وتجيب فاتورة بالحاجات دى.. فاهم..

-.. فاهم..

أخرجت من جيب سترتى عشرة جنيهات.. ناولتها إلى فاروق.. الذى اختفى كما جاء..

-.. متشكر يابو خليل.. ده إنت عقر..

-.. أيوه.. يا سيدى.. بس بالشكل ده حايتخرب بيتك بإذن الله..

-.. ليه؟؟..

-.. لازم ياخويا تمسك دفتر حساب.. وتثبت فيه اللى بتصرفه أول بأول.. وتراجع

الحساب مع عساكر الميس كل يوم.. وكل مصروف معاه فاتورته..

-.. خليك معايا يابو خليل..

-.. طيب إطلع ناكل لقمة.. وننام..

صعدت إلى اللورى.. خلعت حذائى.. وجلست مواجهاً إبراهيم وبيننا علبة اللحم المحفوظ والبسكويت.. ذلك البسكويت التى جرت العادة على تسميته (خشبسكو) لمتانته التى تضارع الأبلكاش.. فكنا نتناول قطعة البسكويت نقتطع بها جزءًا من اللحم المحفوظ.. وندفعها فى أفواهنا.. وأثناء المضغ نصدر صوتاً كطحن الحجارة..

أخيراً بعد هذا اليوم الحافل العجيب وضعت رأسى على الوسادة كى أنام.. قبل انتقالى من حالة اليقظة إلى حالة النوم.. أتيت بأمى وأبى وتحية وعمى شعبان وسحر إلى اللورى.. أبتسم لهم.. يضاحكونى.. فقد كنت هنا من أجلهم..

مع أول خيوط الفجر استيقظنا.. ودب النشاط فى منطقة التجمع.. جاء جندى المراسلة ليصب على رؤوسنا ماءاً بارداً كالثلج المذاب.. فطردت برودته ماتبقى فى أمخاخنا من أحلام الليل المنصرم..

سرعان ما ظهر جندى يركب دراجة بخارية ما أن لمحنى توجه إلىّ وسلمنى مظروف قمت بالتوقيع عليه بالاستلام. حثثت الخطى إلى عربة الرائد ظريف..

طرقت جانب الصندوق انبعث صوته متسائلاً: فأخبرته بالمظروف..

ارتفع المشمع المسدل وقفز إلى جوارى حافى القدمين.. فض المظروف وجرت عيناه عبر السطور.. أمرنى بالمرور شخصياً على قادة السرايا للاستعداد للتحرك فى الثامنة.. ولم أسأل إلى أين..

فى الثامنة بدأت كل الكتيبة فى المسير.. تتقدمنا سيارة الرائد ظريف، ومعه النقيب سمير.. ثم عربة مركز القيادة المتحرك وأنا بها.. وخلفى باقى السرايا.. والشئون الإدارية.. بمجرد خروجنا إلى الطريق الرئيسى إنحرف القائد يساراً فى إتجاه رفح.. وبعد عدة كيلو مترات وجدنا طابوراً أمامنا.. وقفنا خلفه.. وجاء طابور آخر وقف خلفنا.. واصطفت طوابير وحدات اللواء كله فى طابور واحد رهيب.. فأصبح طريق العريش.. رفح.. يغص باللوريات والمدرعات والمدفية.. فى مظاهرة.. مهيبة.. تهز

الوجدان؟؟!!..

تحرك الطابور الطويل.. على الطريق الأسفلتى كثعبان يتلوى.. حتى لاح على البعد الطريق إلى رفح وغزة منعطفاً يساراً..

إنحرف الطابور العظيم يميناً إلى الصحراء.. آخر حدود مصر شرقاً.. ثم توقف.

أشار إلى القائد أن أهبط.. هبطت من اللورى ومعى أدوات الاستطلاع كاملة.. وخوذتى على رأسى.. وسلاحى على كتفى ونظارة الميدان مدلاه من عنقى.. قفزت إلى عربة القائد وجلست مواجهاً النقيب سمير.. الذى كان يبتسم ابتسامة خالية من المعنى والترحاب.. وعلى حين غرة سألنى: حاتغدينا إيه النهاردة؟؟..

و كان سؤالاً مباغتاً.. فقلت لنفسى.. ربنا يستر..

ربت ركبتى مطمئناً قائلاً: ولا يهمك.. أنا اديت أوامر باللازم..

تساءل القائد ما الخبر.. فرد سمير ضاحكاً:

–.. مختار كان ناوى يسوحنا النهاردة يافندم..

رد القائد مداعباً.. نتسوح وإنت موجود يا سمير.. ده برضه كلام..

إنضمت سيارتنا إلى طابور صغير من سيارات الجيب.. توقف الرتل.. أسفل إحدى الروابى العالية.. هبط قادة الوحدات وبيد كل منهم خريطة ونظارة ميدان.. على القمة كان قائد اللواء وإلى جواره الرائد أركان حرب عزت..إنضممنا إلى المجموعة.. وأخذ قائد اللواء يشرح الخطة.. لهذا الموقع الجديد مشيراً إلى اليسار وإلى اليمين وإلى الخلف.. محدداً لكل وحدة مهمتها.. وحدود عملها.. حيث يقوم قادة الكتائب برسم مهامهم على الخرائط..

أشار إلى اتجاه اليسار قائلاً.. سيحضر اليوم لواء كامل لاحتلال المنطقة من حدنا اليسار وحتى البحر.. أما الخلف فهو موقع جرادة.. وتم احتلاله بواسطة لواء بدلاً منا.. وهنا اعترض أحد قادة الكتائب قائلاً:

–.. وده يافندم لواء.. حد يقدر يعتمد عليه؟؟..

أسكته قائد اللواء بإشارة حازمة قائلاً:

–.. هو ده الكلام اللي مش عاوز أسمعه.. وغير مسموح لحد أى كان إنه يردده.. دى

خطة القيادة.. إحنـا حانتدخل كمان فى خطة القيـادة؟؟.. كل واحد يقوم بالمهمـة بتاعته وبس.. واضح..

قاطعه أحد قادة كتائب المشاه قائلاً:

-.. حضرتك قلت حـد يسار اللـواء يحتله لـواء تـانى النهاردة.. وفى الخلف اللـواء الاحتياط فى جرادة.. طيب.. الحد اليمين للواء؟؟..

-. يمين اللواء حاينزرع حقل ألغام..

-.. وبعد حقل الألغام.. إيه القوات الموجودة؟؟..

-.. حاأرجع تانى وأقول خلينا فى حـدود مهمتنا وبس.. مش عاوز أى سؤال خارج الموضوع.. دلوقت كل واحـد عرف مواقعه.. وحدوده.. ثم أردف.. على بـركة الله.. كل واحد ياخـد كتيبته على مواقعها لاحتـلالها فوراً.. وبكرة الصبح عـاوز قرارات القادة علشان نصدق عليها.. عدنا أدراجنـا إلى السيارة.. جلس الرائد ظريف واضعاً الخريطة على ساقيه.. ورسم ثلاثة دوائر تمثل الثلاث سرايـا.. ومثلثاً باللون الأسود يمثل قيادة الكتيبة..

ونظر منشرحاً إلى النقيب سمير قائلاً- كده خلصنا.. وجاهزين..

-.. سعادتك دايماً جاهز يافندم..

عدنا أدراجنا إلى حيث الطابور الكبير.. قمت بـاستدعاء قادة السرايا.. شرح لهم قائد الكتيبة مهمة الكتيبـة.. ومهمة كل سرية وموقها على الخريطة.. فقـام كل منهم بتحديد موقعه على خريطته.. وكذلك مواقع بـاقى السرايا وقيادة الكتيبة.. وأعطى أمر التحرك بترتيب الاحتلال. فتوقفت أولاً سرية الرشاشات وبها إبراهيم.. ثم سرية النقيب محمد. ثم قيادة الكتيبة فى حين استمرت السرية الثالثة فى المسير ومعها القائد لاحتلال موقعها الخلفى نسبياً..

عـدنا مـرة أخرى إلى الموقع المختـار لقيادة الكتيبـة.. حيث راح النقيب سمير يحدد مكان كل عربة من عربات مركز القيادة الثابت.. وأماكن مطبخ الجنود ومخازن التعيين والوقود والسلاح.. والميس.. ومطبخ الضباط.. وما شابه ذلك..

كان فى بقعـة خضراء نسبياً.. تنـاثرت بها أشجـار الخروع والتوت البرى.. وبضع

شجيرات من العنب.. بالإضافة إلى شجرة نبق وأربع نخلات شاهقة الارتفاع..

قفزت إلى سيارة مد السلك التليفونى.. ومعى طاقم مد السلك بالصندوق الخلفى وأخذنا نسير على هدى الخريطة إلى المواقع لمد الخطوط التليفونية..

فى الثانية ظهراً أتممت الاتصال بجميع السرايا.. وكذا بمراكز القيادة ثم بدئنا الحفر.. لإخفاء السيارات تحت الأرض.. كان مستحيلاً إتمام هذا الحفر اللعين.. حيث التربة من الرمال الناعمة ذات الحبيبات الصغيرة الملساء فإذا ما نجح الكوريك فى إمساك حفنة منها.. وإلقائها خارج الحفرة.. فإن ثقلها الضاغط على جانب الحفرة قليلة العمق.. يجعل أجنابها تنهار.. فتتسع.. ويقل عمقها.. وهكذا.. تركنا الكواريك جانباً.. وبدأت أرتكز عى أربع لتشجيع الجنود ليحذون حذوى.. نحاول الحفر بالأيدى.. كالأرانب.. إلا أننا لم نصل إلا لنتيجة أسوأ مما كانت عليه.. عملنا بهمة ونشاط وبلا يأس.. حتى تصبب منا العرق.. الذى اختلط مع حبات الرمل الناعمة.. فتماسك مع نسيج الملابس وأحالها.. إلى شيء كالسنفرة.. أعطيت الجنود فترة راحة لتناول الطعام.. الذى كان على شكل معلبات.. وتوجهت إلى خيمة الميس.. فوجدت ساندوتشات جاهزة.. أخذت نصيبى منها.. وجلست فى ظل شجرة خروع أتناولها..

حينما فرغت من الطعام.. توجهت إلى عربة القائد.. لأشكو له.. سوء طبيعة الأرض واستحالة حفرها.. كنت منزعجاً.. أكثر منى خائفاً لعدم تنفيذى الأوامر.. كانت شكواى.. لتصورى أن هناك وسيلة ما.. لا أعرفها.. فرحت أطلبها.. لكنه طمئننى وبدد مخاوفى.. وأعلن أن تلك شكوى عامة على مستوى اللواء كله.. عما قريب سيرسلون إلينا المواد المناسبة لإنشاء موقع حصين.. كذلك الذى سبق لنا إنشاؤه فى جرادة.. وما على الآن.. إلا وضع العربات فى أماكنها ونشر الشباك المموهة عليها لإخفائها.. مع الاستعانة بفروع الأشجار.. أثناء مخاطبتى القائد.. أتت سيارة.. تبينت فى سحنة راكبها الملازم أول عبد الستار.. فأشحت عنه ومضيت فى طريقى عائداً إلى جنودى..

بدأت سياراتى تهدر.. ودخلت أماكنها كما كانت.. وبدأ الجنود فى معاونة السائقين لنشر شباك التمويه عليها.. وتقطيع بعض فروع الأشجار لجعلها مشابهة للبيئة المحيطة بها ما أمكن..

بعد قليل جاءنى مراسله القائد يسأل عن فاروق ضابط الشئون الإدارية.. فأشرت له إلى مكانه.. بعد لحظة كان فاروق فى صحبة الجندى يسيران إلى عربة القائد..

أتت من خلفى سيارة بها كل من عبد الستار وفاروق.. وقفت إلى جوارى تماماً.. نزل فاروق وعبد الستار.. حيث نادو على ثلة من الجنود.. فأتوا ركضا.. وأمرهم فاروق بإنزال حمولة السيارة.. على الأرض.. وما أن بدأ الجنود فى إنزالها حتى تبينت إنها ربطات بيضاء ناصعة.. فتملكنى الفضول.. فسألت عما فى تلك الربط.. فأجابنى عبد الستار بصوته المحايد بهدوء.. دى أكفان..

إلتعت صائحاً: بتاعة الميتين؟؟..

فرد بنفس اللهجة الرتيبة.. أه..

-.. وجايبها هنا ليه.. -

رد فاروق ضاحكاً: دى من مهمات الحرب..

رددت حانقاً.. إيه الفال المنيّل ده..

إلا أن عبد الستار ألقى على نظرة بنصف عين قائلاً: يبقى كويس قوى.. لو الواحد لقى حد يكفنه لما يموت فى الحرب.. ياما ناس إترمت للدياية..

كنا فى أمس الحاجة إلى مهمات التجهيزات الهندسية.. فى حاجة إلي شكاير الخيش الفارغة.. أو الأسمنت والطوب والحديد المقوس.. لإمكان إعداد موقع ملائم يصلح للدفاع.. لكن بدلاً من كل ذلك.. أتى عبد الستار من قيادة القاعدة.. بالأكفان فقط..

****

يومان أنفقناهما فى أعمال روتينية تافهة فى موقعنا الجديد.. فى انتظار وصول مهمات التجهيزات الهندسية.. مجهودنا ضائع أساساً فى تدبير سبل الحياة للضباط والجنود.. كنا نجلب الماء من العريش على مسافة سبعون كيلو متراً.. ننقل مكعبات المياه من سيارة إلى أخرى بصفة يومية لتوزيع الخسائر على أكبر عدد ممكن من السيارات.. أما الطعام فكنا نجلبه ثلاثة موات يومياً من مسافة عشرون كيلو متراً فى اتجاه الغرب..

كنا نواجه مستعمرتين إسرائيليتين.. هما مستعمرتا كرم أبو سالم.. والدنجور.. ورغم إضاءة تلك المستعمرات ليلاً.. إلا أننا كنا متيقنين أن سكانها قد غادروها بمجرد

وصولنا.. وما الإضاءة الليلية تلك إلا خداعاً وتمويهاً..

وكان مستحيلاً سماع أى محطة إذاعة عربية أو مصرية باستثناء إذاعة صوت العرب والتى لم تكن تكف عن إذاعة الأغانى الوطنية والأناشيد الحماسية.. ودعاوى الحرب والبطولة كل ساعة.. وكل دقيقة.. مع مقتطفاتٍ دائمة بصوت الرئيس.. وكلما هبطنا إلى أرض الواقع فى رفح الماسورة.. جاءنا الصوت المتحمس يرفعنا مرة أخرى إلى الفضاء.. فنتجاوز الواقع.. ويحدث لنا.. الانفصام غير المنطقى..

غالباً ما كانت تقتحم أسماعنا إذاعة إسرائيل الموجهة باللغة العربية.. واللهجة المصرية.. تذيع ما تفتقده من أغانى عاطفية.. يتخللونها بكلمات مستكينة مستضعفة.. تناشدنا السلام..

اليوم الرابع من يونيو.. وقد انتهينا تواً من تصديق قائد اللواء على قرار قتال كتيبتنا.. وصلت إلى اللورى الذى أضع به حاجياتى.. لأدس الخريطة فى الحقيبة.. تناولت كشاف الكهربائى ليساعدنى على المسير ليلاً.. كنت ضابط نوبتجى الكتيبة.. أصدر الرائد ظريف أوامره بأن يبقى في كل سرية ضابط واحد على الأقل.. والباقى يمكنهم الحضور لقيادة الكتيبة.. وذلك للتخفيف عنهم.. وطرد الوحشة من نفوسهم.. لذلك سرعان مابدأ الضباط يتوافدون إلى سيارتى فأخرجت ما أملك من بطاطين وأمرت بفرشها فى الهواء الطلق على الرمال الناعمة وجلس الزملاء يتسامرون..

وكان الملازم أول حازم قائد السرية الثانية.. هو نجم السمر بلا منازع.. فقد أطلق عليه زملاءه.. اسم «عبد المهم».. كاسم حركى هزلى.. يمثل دفاعاً فعالاً أمام تصرفاته التى لا يمكن ردعها بشكل مباشر.. وكان فعلاً شخصية طريفة وإن كانت علاقتى به.. سطحية.. وفى حدود العمل ليس إلا.. وهو أكثر ضباط الكتيبة تأنقاً فى جميع الظروف.. يحكى مفاخراً بانه يملك خمسة عشرة أفورولاً معتنى بكيهم وتنشيتهم.. بالإضافة إلى عشرون غياراً داخلياً.. وأكثر من ثلاثين زوجاً من الجوارب.. حيث يرتدى الجوارب بمعدل كل زوج فى قدم..

ولا شك أن اللواء كله.. وليست الكتيبة فقط يتندر بحفلات حلاقة ذقن حازم فإنه ينشر أدوات الحلاقة على طرف صندوق اللورى بمنتهى العناية.. ثم يضع كمية وافرة

من معجـون الحلاقة المستـورد الفـاخر على ذقنـه.. ويبلل الفرشـاة فى ميـاه سـاخنـة خصيصاً لحفل الحلاقـة.. ويروح ويغـدو ذهاباً وإياباً بالفرشـاه.. حتى يصنـع من رغاوى الصـابون ذقناً كبيرة بيضـاء كبابا نـويل.. وفى تمهل شديد يبـدأ فى الحلاقة.. مرة.. ومـرة.. ومرات.. ثم يقـوم بغسل وتنظيف الأدوات وتجفيفهـا بعنايـة.. وإعادة وضع كل شىء فى علبـة كما كـان.. ثم يتناول ملقـاط لاصطيـاد أى شعـرة قد تكـون متمردة.. هنا.. أو هناك.. فإذا ما انتهى صاح قائلاً:

-.. الفتلة..

وعلى الفور يظهـر الجندى حلاق السرية وبيـده بكرة خيط طرفها بين أسنـانه.. فى حين يجلس حازم مـوجهاً صـدغه إلى الحلاق.. الـذى يكتسح بالفتلـة أى شعيرات قد تكون هنا.. أو هناك.. ولا يترك وجه حازم إلا وقد اكتس باللون الاحمر القانى.. فيشير له بيده أن يكف.. فيغسـل وجهه.. ويضع كمية كبيرة من الكريم لتصبح بشرتـه ناعمة مصقولة.. يتبعها بحفنة فاخرة من الكولـونيا.. ثم يمسح شعره الأسود الفاحم براحة يدع وبها آثـار الكريم والكـولونيـا.. ويبدأ فى تصفيفـه إلى الخلف.. إلا أن شعره دائم.. التمرد.. منتصباً..

كان حلم حياة حازم أن يصبح ضابطاً بالمخابرات.. لذلك كان ميالاً للنقاش.. بهدف وضع ذكاء من يخاطبه فى الاختبار.. يمارس هذه الهواية مع الجميع من أصغر الجنود صعوداً بالضباط حتى القائد نفسـه.. رغم إنه ثبت للجميع أنه ذو ذكاء أقل مما ينبغى بكثير..

قاتل قتالاً ضـارياً.. ليعينه الرائد ظريف ضابطاً لأمن الكتيبة.. ولقد فهم حازم مهام عمله الإضافى هذا بأوسع كثيراً مما يعطيـه فى الحقيقة.. فقد راح يفتح خطابات الجنود والضبـاط وقـراءتها بدعـوى الأمن.. والجلـوس إلى تحويلـة التليفـون والتصنت على مكالمات زملاؤه بدعوى الأمن.. حتى إذا فاض الكيل بـالرائد ظريف منعه منعاً باتاً من استلام خطابات الكتيبـة.. أو الدخول إلى التحويلة.. و كان ذلك بـالنسبة لحازم بمثابة تحطيم لآماله تحطيماً كاملاً.. ولم يتبقى لديه عملياً من واجبات ضـابط الأمن إلا ختمـان للكتيبة.. لختم مراسلاتها مع الجهات الخـارجية..

ما أن وقعت عين حازم على مصباحي الكهربائى حتى سألنى منزعجاً:

-.. إيه ده؟؟..

-.. ده كشاف يا حضرة الضابط حازم..

صاح فجأة-.. إحنا في حالة حرب على الحد الأمامى.. قدام العدو.. وإنت معاك بطارية.. بتعمل بيها إيه؟؟.. عاوز أعرف بتعمل بيها إيه..

-.. يا سيدى بنور بيها علشان أشوف تحت رجلى..

-.. يا حضرة الضابط إنت مش عارف إن النور ده بينشاف على بعد كبير؟؟..

يعنى العدو شفنا دلوقت وعرف مكان الكتيبة..

كنت أصلاً فى حالة معنوية سيئة.. وليست لدى أى قدرة على الجدل العقيم.. فتوجهت إليه سأماً قائلاً: بقولك إيه يا حضرة الضابط حازم.. وحياة والدك أنا مش ناقصك.. شفلك حد غيرى.. سيبك منى يا أخى..

-.. وحياة والدى.. ما تتكلم كويس يا حضرة الملازم أنا أقدم منك..

-.. طيب سيبك منى يا حضرة اللواء..

-.. حضرة اللواء.. لا ياسى مختار.. أنا ملازم أول بس.. إنت بتتريق علىّ..

ماسك كشاف زى ده.. وعمال تنوره وتطفيه.. وتدى إشارات.. وإحنا قدام العدو.. وبوجهك مش عاوز تسمع الكلام.. طيب أنا حا أوريك..

-.. ورينى.. بس سيبك منى بقى..

جلست.. وأخرجت سيجارة من جيبى كى أدخن.. كان الضباط يراقبون الموقف باسمين.. فجأة.. انفجر النقيب محمد ضاحكاً.. تبعه باقى الضباط فى موجة ضحك شديدة.. وأصبح وضع حازم فى قمة الحرج.. فهب واقفاً وصاح بعصبية قائلاً:

-.. حاضر يا محمود يا مختار.. أنا رايح لقائد الكتيبة وحاأوريك..

وحث خطاه فى اتجاه.. عربة قائد الكتيبة..

من خلال الضحكات.. ظهر صوت النقيب محمد قوياً آمراً..

-.. يا حازم.. استدار حازم فأردف محمد.. تعالى هنا..

عاد حازم وأشار له محمد أن يجلس إلى جواره فجلس..

-.. شايف يا حازم العربيات اللى رايحة جاية دى فى كل حتة؟؟.. ماكلها منورة النور.. ماتروح تكلمهم..

-.. أنا ماليش دعوة بحد.. أنا لى أمن وحدتى.. وبس..

-.. بقول إيه يا حازم.. إهمد.. وبطل الخلل بتاعتك دى.. وبدال الزيطة اللى إنت عاملها.. إقعد..

جلس حازم وقد خسر خسارة كاملة.. وبعد لحظات نسى تماماً ما حدث وإندمج معنا فى حديث السمر.. وتبادل مع الجميع الضحكات.. وفجأة صاح حازم..

-.. يا مصطفى..

جاء الجندى المراسلة الخاص بحازم.. أيوه ياأفندم..

-.. هات الترمس والكباية..

اختفى مصطفى قليلاً عاد وبيده ترمس كبير وكوب نظيف.. ناولهما لحازم ومضى.. تناولهما حازم قائلاً بلا مبالاة.. ده ترمس قديم كان مرمى عندنا فى البيت.. قلت أجيبه يمكن ينفع؟؟!!

وبنظرة واحدة إلى الترمس اللامع بيد حازم تأكد كل منا.. انه كاذب.. فقد كان جديداً تماماً.. ولم نعلق على أكذوبة حازم.. طمعاً فى ارتشاف مابداخله..

-.. طول عمرك راجل شيك يا حازم..

-.. ده أنت أبو الأبهة كلها يا حازم..

فى حين راح حازم يبتسم فى سعادة.. مد يده بكوب ملىء إلى النقيب محمد. الذى أخذ يرشف رشفات طويلة لها صوت مسموع.. ونحن فى الانتظار..

نظر إلى إبراهيم قائلاً: أنا جعان..

وأيده باقى الزملاء.. نهضت أضىء مصباحى.. توجهت إلى الميس.. حيث عدت مرة أخرى وورائى جنديان يحملان صينيتان عليهما بعض الأطعمة.. على شكل كومات من الخبز والجبن والبسطرمة.. والبيض المسلوق..

أكلنا جميعاً حتى امتلأنا.. وظللنا فى جلستنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث الذى لم يخرج عن موضوع الساعة.. الحرب الوشيكة.. ولم يكن أحدنا يشك للحظة واحدة

فى النصر الفورى السريع على القوات الإسرائيلية.. والشك الـوحيد كان فقط جنون قادة إسرائيل وقيامهم أولاً بالهجوم..

أصبح كل منا محلـلاً سياسيـاً وعسكرياً.. مـرجعنا فى ذلك مقالـة جريـدة الأهرام الأسبوعية.. وإن كنا نعترض على قرار الرئيس ألا نطلق الطلقة الأولى.. ذلك إننا اعتبرنا ذلك بمثابة كرم منه لا يستحقه العدو الإسرائيلى..

فى خضم هـذه الحماسة.. أخبرنـا النقيب محمـد عن كلمات قائد اللـواء اليوم عنـد مروره على سريته حيث سأله.. كل كام طلقة من مدافعك توقع طيارة يا محمد؟؟..

-.. الكتب يافندم بتقول كل ٣٠٠.. بس أنا أوعد سيادتك كل طلقة توقع طيارة..

كلنا نحب النقيب محمد.. ذلك الرجل البسيط.. الذى هو صمام الأمان لكل منا.. نسر إليه بأسرارنا.. وخوالج أنفسنا.. فيقدم خـدماته إلينا فى صمت.. ويتقبل منا الشكر على استحياء.. ولا نشعر اتجاهه بالحرج..

انفض مجلس السمـر.. وذهب كل ضـــابط عبر الظـلام إلى مـوقعـه.. وتبقى معى إبراهيم.. قلقاً..مفكراً كعادته.. فلما خلت الصحراء إلا منا بدء الكلام همساً..

-.. تفتكر الحرب ح اتقوم؟؟..

-.. والله يا إبراهيم.. مش باين.. بس أنا عاوزها تقوم..

-.. ليه؟؟..

-.. ليه.. لأن.. انتظار الحرب فى حد ذاته أشر من قيـامها فعلاً.. على الأقل نعرف ليه إحنا هنا.. علشان فى الحرب ساعة الزمن بالنسبة لنا حاتوقف..

-.. تفتكر لو قامت حانكسبها؟؟..

-.. طبعاً يا إبراهيم.. إنت مابتسمعش الراديو؟؟..

-.. الراديـو.. جيش رايح يحارب.. يـاخد معلـوماتـه من الراديـو؟؟.. حد قـال لنا حانحارب مين؟؟.. العدو حجمـه قد إيه.. حد جاب التجهيزات الهنـدسية علشان نجهز المواقع للحرب.. اللى إنت شايفه ده.. تسميه مواقع جيش عاوز يحارب؟؟..

-.. دى مسألـة وقت.. والتجهيـزات لازم حـاتيجى.. والـريس قـال إن إحنـا مش حانضرب.. الطلقة الأولى.. يعنى مش حانهاجم.. وإسرائيـل طبعاً مش معقول حاتهجم

علينا.. يبقى الحرب مش حاتقوم دلوقت.. إلا لما نجهز ونستعد تمام التمام..

-.. إحنا موجودين هنا ليه؟؟..

-.. علشان نحارب..

-.. فيه حاجة اسمها حرب كده خلاص.. حرب إزاى؟؟..

-.. حرب زى الناس مابتحارب..

-.. لأ.. إتعلمنا فى الكلية الحربية إن الحرب اسمها عمليات مسلحة.. إما دفاع أو هجوم.. والإثنين مع بعض اسمهم حرب.. مش كده..

-.. مضبوط..

-.. سؤالى بقى.. إحنا فى الموقع ده.. حاندافع.. وللا نهاجم؟؟..

أسئلة إبراهيم أدخلت فى نفسى الريبة.. وجعلتنى أفكر.. أفكر فى أرض الواقع.. فمواقع الهجوم يجب أن تكون أكثر كثافة.. وأقل فى طول المواجهة.. وأكثر تركيزاً فى تنوع الأسلحة.. وما نحن فيه فعلاً.. لا يشكل مواقع لبداية هجوم على الإطلاق.. على مستوى معلومات ضابط مثلى برتبة الملازم.. كما أن الموقع أيضاً خالى تماماً من التجهيزات الهندسية.. كما أن جانب اللواء الأيمن عارى.. خالى من الدفاع وحتى منطقة القسيمة على بعد مائة وعشرون كيلو متراً.. وخلفنا ثغرة طولها أربعون كيلو متراً حتى موقع جرادة الحصين.. تمكن تلك الثغرات جيوش العالم كله من إختراقها وكان مستحيلاً متابعة النقاش الذى قبض صدرى.. فصحت محتجاً..

-.. إحنا مالناش دعوة.. إحنا نحارب وبس.. هجوم.. دفاع.. مش شغلتنا اللى فوق شايفين أكثر مننا..

-.. الحرب مش لعبة.. الحرب نار.. ودمار.. ناس بتموت.. وناس بتتشوه.. أنا قرأت كثير عن الحروب.. معرفش ليه يا أخى أنا خايف ومرعوب..

-.. علشان جبان..

-.. أنا جبان يا مختار؟؟.. الله يسامحك.. بس فيه ناس بتقول إننا بقى بنعمل مظاهرة بالقوات.. ولا ناويين نحارب.. ولا نهيب..

-.. ولاد كلب..

-.. بس أنا مصدقهم..

-.. علشان حمار زيهم..

-.. لأ.. المصيبة.. العملية تتقلب جد واليهود يهجموا ويكونوا محضرين خازوق زى بتاع ٥٦.. تبقى مصيبة..

-.. بقولك إيه يا إبراهيم.. قوم فز.. روح موقعك.. أنا ضابط نوبيتجى النهاردة.. حاأمر على الخدمات.. ولما تهمد وتعقل وتبطل الجنان ده.. إبقى تعالى..

نهضت كالهارب وبيدى الكشاف.. وسرت وحدى فى الظلام.. تركت إبراهيم وحيداً.. فإن كل ماعساه ينطق به.. مر برأسى.. وحفر فيه.. حفراً عميقاً.. لكنى أرفضه وألوذ بالراديو.. كى أنساه.. إن كل مايحدث وما يقال.. ماهو إلا حلم.. حلم عجيب خلال الظلام الذى يلف كل شىء اقتحمت وحدتى أطياف أمى.. وأبى.. وتحية.. وعمى شعبان.. وسحر.. وحينما مر بى طيفها تحرك رغم القلق شىء فى أعماقى.. تحدى الضغوط والملل.. والترقب والانتظار.. فوق حبات الرمال الموجودة هنا أبداً.. مثلت سحر بالنسبة لى شىء أحسسته فى عروقى ودمى.. ألهب رأسى..

حملتنى قدماى إلى موقع النقيب محمد.. تسللت من خلال شجيرات الخروع.. على هدى شعاع من ضوء ينبعث أسفل المشمع المسدل على مؤخرة لورى مبيت النقيب محمد.. رفعت المشمع قليلاً ومددت رأسى..

كان مستلقياً مرتكزاً على مرفقه يقرأ خطاباً.. عاقداً مابين حاجبيه باهتمام.. ما أن شعر بوجودى.. حتى طوى الخطاب ودسه أسفل الوسادة ودعانى للصعود..

قفزت إلى الصندوق وزحفت على أربع حتى استويت جالساً قبالته مسنداً ظهرى إلى الحائط..

-.. تشرب شاى؟؟..

-.. شكراً يافندم.. الوقت متأخر.. والظاهر سيادتك كنت حاتنام..-.. لأ.. أنا واخد ع السهر.. مالك يامحمود فيه إيه؟؟..

-.. أبداً يافندم.. متضايق شوية..

-.. إيه.. موشوع حازم؟؟.. ياراجل إنس..

-.. لا ياأفندم مش موضوع حازم..

-.. وصلك جواب من مصر؟؟..

-.. لا يافندم.. ماحدش بعت لى جوابات..

-.. آه.. يبقى لازم حاجة فى الشغل.. أحكيلى..

-.. بس موضوع التجهيزات الهندسية ده قالقنى.. وكمان حكاية الأكفان اللى جابها النهاردة عبد الستار..

قال مشجعا: كمل.. وإيه كمان؟؟..

-.. بس..

-.. شوف ياسيدى.. موضوع التجهيزات الهندسية يقلقك ليه؟؟.. مفيش أى سبب علشان تقلق مش سرية محمود مختار لوحده.. لأ.. دى القوات اللى حواليك كلها.. اللى يمشى عليهم يمشى عليك.. وأدينى عندك أهو.. قائد سرية.. عملت إيه؟؟.. زى ماقالوا بالضبط: أحفر.. حاولنا ماعرفناش.. قلنا رأينا.. قالوا استنوا لما تيجى التحصينات.. وأدينا بنستنى.. حد جاب الحديد والطوب والأسمنت وإحنا مابنيناش؟؟.. أما حكاية الأكفان دى.. حاجة زى باقى المهمات.. الأفرول.. والبيادة.. النهاردة نصيب سريتى ٢٥ كفن.. وأزعل ليه؟؟.. طبيعى لازم الحاجة دى تكون موجودة.. لما العسكرى يموت.. حاندفنه فى إيه؟؟.. ماهى الحرب كده يا محمود.. لازم ناس حاتموت وناس تنجرح.. وناس تتأسر.. وناس تعيش.. فاهم..

وكنت للأسف فاهم.. فكل شىء يمكن تبريره.. ولكن الإحساس القاهر بالانقباض كيف يمكن تبريره.. ومناقشته.. وإلغاؤه؟؟..

هبطت مرة أخرى إلى الموقع.. سائراً إلى القيادة لتفقد جنود الحراسة.. هبت نسمة رطبة.. فارتفع صدرى فى شهيق عميق.. السكون شاملاً والظلام تاماً.. ومستعمرتا العدو أمامى.. على غير العادة.. فى حالة إظلام.. تام..

ورغم ذلك إنتابنى إحساساً لا سبيل إلى مقاومته.. بالخطر.. توقفت.. أرهف سمعى لم تكن هناك جلبة.. ولكن صمت وسكون.. ورغم ذلك هناك صوت لشىء غير عادى.. شىء مكتوم.. آتياً من بعيد.. شىء كالهدير.. أو كالأزيز.. أو خليط منهما معاً.. مستمر

وفي دأب.. اهتزازات كالزلازل الخفيفة غير المحسوسة تحت أقدامي..

أوقفني جندي الحراسة.. فسألته إن كان يسمع شيئاً؟؟.. أرهف أذناه.. وعيناه تتحرك كهوائي الرادار في محجريهما.. وأكد شكوكي.. عدت أدراجي لأخبر النقيب محمد.. لكن سيارته كانت تسبح في الظلام..

شيء ماتحرك في صدري.. شيء قلق.. كطفل متمرد.. وراحت الصور تمر بخاطري منذ تركنا العريش.. وتلك الأكفان المتراصة على الأرض.. كمن تدعونا.. لتحتوينا.. وشواهد القبور في موقعي بوادي العريش.. وعبد الستار قميء المنظر كدافني الموتى.. وقلق إبراهيم والكتيبة الاحتياطي التي احتلت مواقعنا الحصينة.. ولا تفقه شيئاً يعينها على القتال.. وإن أرادت.. والهجوم على شرم الشيخ.. وأسر الرائد ظريف.. وبثق النسوة على الوجوه.. دار في رأسي احتمال الهجوم الليلي.. كما حدث مع قائدي منذ إحدى عشر عاماً.. وما أن جاء هذا الخاطر في رأسي.. حتى شددت خطاي إلى عربة القائد.. أضرب جانب صندوقها بقبضة يدي ضربات متتابعة.. محدثاً جلبة في هذا الهدوء الشامل.. وسرعان ماأتى تساؤل القائد يقظاً.. مين..

-.. أنا محمود مختار يافندم..

-.. عاوز إيه يا مختار الساعة دي..

-.. عاوز سيادتك يافندم..

-.. يابني عاوز إيه.. بس..

-..حاجة مهمة خالص يافندم..

ارتفع المشمع وقفز القائد حافي القدمين إلى جواري.. وبين أصابعه بقايا سيجارة تختنق.. رماها بين أقدامي فدستها..

-.. خير يا مختار.. فيه إيه..

-.. سامع أصوات كده غريبة جاية من جهة العدو..

-.. أصوات.. زي إيه كده؟؟..

-.. زي ماتكون جنازير دبابات.. أو دوران محركات.. أو مراوح طيارات هليكوبتر..

-.. من إمتى؟؟..

-.. من ساعة تقريباً..

أشار بيده أن أصمت.. وبدأ يرهف السمع هو الآخر.. ولقد بدت الأصوات أكثر وضوحاً هذه المرة.. هتف مطمئناً..

-.. يمكن تكون دى.. تحركات قواتنا إحنا.. على العموم نتأكد أحسن.. ومد يده إلى داخل الصندوق وجذب تليفونه الميدانى.. أدار يده..طالباً قيادة اللواء.. وعلى الطرف الآخر.. كان الرائد عزت.. استمرت المكالمة دقائق.. ووضع السماعة.. وأخذ يضرب صندوق اللورى صائحاً:

-.. سمير.. سمير.. إصحي يا سمير..

وجاءه الصوت المتثائب- أيوه يافندم.. خير..

-.. قوم يا سمير.. الظاهر الحرب حاتقوم..

على ضوء مصباحى نظرت إلى ساعة يدى.. كانت الواحدة صباحاً.. دبت فى أوصالى قوة ونشاط مفاجىء.. وشىء بداخلى متحفزاً تماماً..

-.. خير ياأفندم..

-.. معاك حق يا حضرة الضابط مختار.. إنت ضابط كويس.. التحركات دى فعلاً عند العدو.. بقالها مدة.. البلاغات وصلت قيادة اللواء من الخط الأمامى.. وفيه بلاغات فى قيادة الفرقة.. بتقول إن تحركات العدو دى.. على طول الجبهة..

.. روح التحويلة.. وإمسك التليفون وإبعت الإشارة دى ومليها لقادة السرايا بنفسك..إكتب..

-.. إتفضل سيادتك قول.. أنا مش حاأنسى حاجة خالص..

-.. يتم رفع درجة الاستعداد إلى الحالةالكاملة.. جميع الضباط في مراكز القتال وأطقم المدافع على مدافعها تشدد الملاحظة.. وأى شواهد غير عادية تبلغ فوراً يستمر ذلك.. حتى صدور أومر أخرى..

ركضت إلى عربة القيادة.. وجلست إلى التحويلة.. أطلب قادة المواقع.. وأبلغت الإشارة ثم دونتها ف السجل الخاص بها.. دب النشاط والحياة فى أرجاء اللواء مع

خيوط الفجر الأولى..

قمت بإيقاظ جميع جنود وضباط القيادة.. بتنا فى حفرة قليلة العمق.. أسلحتنا فى أيدينا.. والخوذات على رؤوسنا..

لاشك عندى إنه مع خيوط الفجر.. سوف تظهر طائراتنا تضرب ماجمعه العدو خلال الليل.. لتجهض نواياه..

نشرت الشمس أشعتها الحارقة على وجه الصحراء.. دعانى القائد إليه.. وأمرنى بالذهاب فوراً للنوم.. على أن يوقظنى جندى المراسلة إذا ماحدث شىء غير عادى..

هاهى الحرب أخيراً..

كانت رأسى تعمل كمحرك سريع الدوران.. ترى ماذا عساى أصنع إذا ماقام العدو بهجوم؟؟ إننى أتوق للإصطدام الأول مع العدو.. أراه ويرانى.. يصوب علىّ.. وأصوب بين عينيه.. إن كان العدو قد تمكن من الهجوم فى عام ٥٦ ثم الانسحاب.. فلاشك عندى إننا اليوم قاتلوه..

إن الإذاعة تقول إننا أقوى قوة ضاربة فى الشرق الأوسط.. إن القائد العام يقول إننا قادرون على تدمير الأسطول السادس إن هو تدخل فى الصراع.. ولاشك أن لدينا أسلحة سرية.. لا أعلم عنها شيئاً.. ولا يعلم عنه أحد شيئاً.. لكن الرئيس سوف يستخدمها.. إذا ما تأزمت الأمور..

صعدت إلى اللورى.. وأخفضت الغطاء المشمع.. وألقيت بنفسى على البطانية بكامل ملابسى.. وسلاحى على كتفى والخوذة على رأسى.. رحت فى سبات عميق..

****

فى أحد الأيام استيقظت بعد أرق طويل..

ارتدت ملابسها.. ووقفت تراقب الطريق.. لم ترى تحية.. لم تظهر.. مرت الدقائق مملة.. ثقيلة.. ولم تظهر الصديقة.. فكرت قليلاً.. ربما تكون مريضة..

انقبض صدرها.. حلمت أنها هرولت إلى بيت تحية.. تطرق الباب منزعجة.. تفتح تانت عليه حزينة والهة.. تحية مسجاه مريضة.. نائمة فى السرير صفراء عاصبية الجبين.. يبللها العرق الغزير.. ترتمى فى أحضانها.. تجفف العرق بشعرها.. بشفتيا..

وتعدو إلى الخارج وتعود ومعها الطبيب.. وتظل إلى جوارها.. تمرضها.. تعطيها الدواء تطعمها بيدها.. تجلس إلى جوارها طوال الليل.. حتى تشفى تحية.. بينما يربت علي راسها أونكل مختار حباً وعرفاناً.. وتكون بذلك قد قدمت دليلاً عملياً على حبها لصديقتها..

أفاقت من حلمها الجميل.. وقررت أن تحوله إلى حقيقة..

توجهت مسرعة إلى منزل تحية.. وأخذت تطرق الباب.. تود اختراقه.. تحطمه لإنقاذ صديقتها الحبيبة من براثن المرض.. سرعان مافتح الباب.. وظهرت تانت عليه.. تنظر إليها دهشة.. لم تكن حزينة باكية والهة.. لم تدعوها إلى الدخول.. وجهها يكسوه قناع جامد.. أخذت سحر المفاجأة.. فاهكذا يجب أن تسير الأمور.. خرجت كلماتها مرتعشة تعتذر:

-.. أنا كنت جاية أسأل عن تحية يا تانت..

لم تستطع أن تقول إنها جاءت لأنه يجب أن تكون تحية مريضة.. لتوهبها الحياة..

ردت عليه بصوت جاف.. ولهجة لاذعة ساخرة.. لم نسمع مثلها منها أبداً:-

-.. هما بطلوكى من المدرسة وللا إيه؟؟.. تحية فى مدرستها بدرى.. عن إذنك..

- أوصدت الباب فى وجهها.. لم يوصد الباب.. بل اسدلت ستارة سوداء..

انهمرت دموعها كالمطر.. وجرت ساقيها جراً.. إلى منزلها.. طرقت الباب طرقات ضعيفة متهالكة.. فتحت أمها.....

-..مالك ياسحر.. مارحتيش المدرسة ليه..

انفجرت فى بكاء مر.. احتضنتها عنايات بكل حنان الأمومة وعطائها..

انفلتت من بين أحضانها.. جرت إلى حجرة النوم.. ارتمت على السرير.. بينما راحت عنايات تربت ظهرها فى حنان.. تسألها عما جرى..

فجأة استوت جالسة.. ومسحت دموعها بكفيها معاً:

-.. ماما.. أنا مش عاوزة أروح المدرسة بعد كده..

كان قراراً مفاجئاً.. هابطاً.. يحل جميع المشاكل.. بدت متحفزة لمناقشة أمها فى صحة هذا القرار السريع.. إلا أن عنايات وافقت على الفور قائلة:-

-.. على كيفك يا سحر.. بلاش مدرسة.. هى البنت ليها إيه غير البيت والجواز؟!..

إقعدى معايا.. أهو نتسلى.. ونتفسح.. وأوريكى اللى عمرك ماشفتيه أبداً.. هو أنا حابسة نفسى فى البيت إلا علشان خاطرك ومدرستك؟؟..

هدأت سحر..

لم يعد هناك سبيل لإصلاح ماتصدع من علاقات مع تحية.. إلا بمعجزة.. ونحن لسنا فى زمن المعجزات..

ولن ترجع ساعة الزمن إلى الوراء.. أو التحكم فى الكون..

رن جرس الباب..

هبت عنايات تفتح الباب.. وسرعان ماارتفعت أصوات طرقعة القبلات مع صوت أونكل حسن.. وتانت شوشو.. خرجت سحر.. لتقفز بين.. أحضان شوشو.. وبحاسة شوشو الرادارية أبعدت سحر تنظر إلى وجهها.. وصاحت دهشة:

-.. إيه يا سحر.. بتعيطى ليه؟؟..

-.. أبداً يا ستى.. أصلها قررت من النهاردة إنها ماتروحش المدرسة..

-.. أحسن..مدرسة إيه.. وكلام فارغ إيه.. ده إنتى ليكى عندى يا سحر ميت عريس.. عربيات.. وفلوس.. وشياكة.. إنتى عليكى بس تختارى.. آل مدرسة.. حسن بك يقف متململاً.. يتابع الحديث الدائر.. ويمسح عرقه المنهمر من رأسه وقفاه.. ترك النسوة.. وألقى نفسه على أقرب فوتيه..

جلس يتميز غيظاً على غير عادته.. واجتمعت حوله النسوة.. وشوشو لا تكف عن الكلام.. أسكتها صائحاً: جرى إيه يا شوشو.. إحنا فى إيه.. وإنتى بتعملى إيه؟؟.. ياالله بقى.. اعترضت عنايات قائلة:

-.. مالكش حق يا حسن بك.. يا الله على فين.. انتوا لسة أختو نفسكم من السلم..

-.. عنايات إحنا جايين ناخدك ونعدى على سحر فى المدرسة ناخدها.. علشان نسافر..

-.. على فين يا حسن بك..

-.. البلد مقلوبة يا عنايات.. عساكر رايحة.. ودبابات جاية.. وبتوع الدفاع المدنى

عمالين يبنـوا فى حيطان قـدام العمارات.. وطول النهـار أوامر.. إدهنـوا الإزاز أزرق.. حطوا ورق لزق.. وعيشة بقت تقصر العمر.. وإحنا كمان جنب المطار.. قلت آخذ إجازة.. وآخدكو.. ونهج ع الفيوم.. لغاية لما الحالة تهدأ.. وأنا خلاص أخذت الإجازة..

أيدت شوشو زوجها قائلة: آه الحرب باين عليها حاتقوم..

أردف حسن بك.. تقـوم وللا تتنيل.. إحنـا مش عـاوزين نعيش فى نكد.. وآهـو كل معارفنا.. وحبايبنا بيهجوا..

اعترضت عنايـات فى دلال قائلـة: طب نأجل السفر يـوم ولا يومين.. بس لغـاية لما سحر تروق نفسها كده.. ولا إيه يا سحر..

-.. اللى تشوفيه يا ماما..

تراجع حسن بك عن موقفه سريعاً قائلاً:

-.. إذا كان علشان خاطـر سحر.. نأجلها.. يوم واحد بس.. ونسـافر بكرة.. وليكو على أروقها النهاردة آخر روقان.. ماشى؟؟..

إنبرت شوشو باسمة تقول لزوجها.. ماشى بس بشرط..

ومد حسن بك ذراعه يطوق حضرها جذبها إلى ركبتيه يجلسها كطفلة مدللة قائلاً:

-.. أشرطى يا ستو أنا..

-.. عـاوزينك النهاردة.. تسهـرنـا سهرة.. م السهـرات بتـاعتك الحلوة.. علشـان نفرفش سحر.. ومامة سر.. وخالة سحر..

ضجت النسوة بـالضحك.. غاب عن ذهن سحـر.. تحية.. وتانت عليـه.. ومحمود.. والمدرسة.. والعالم كله..

فى المساء كانت تستعد للسهرة المنتظرة.. ترتـدي فستان سهرة مطرزاً طويلا حتى الكعبين عارى الذراعين والصدر.. من مخلفات شوشو..

تحولت إبنـة السابعة عشرة عـاماً إلى امـرأة.. صورة أنثى كـاملة النضج.. تـركت شعرهـا متهدلاً على كتفيهـا.. وجلست أمها قبـالتها تضع لها لأول مـرة أحمراً للشفاه والوجنات.. وترفع بالملقاط شعيرات من حاجبيها..

على صوت بوق سيـارة حسن بك.. نزلت وأمها.. وعلى الرصيـف المقابل كان يسير

أونكل مختار مطرقاً مهموماً.. وقد تدلت كتفاه.. كمن يحمل حملاً ثقيلاً.. حينما انطلقت السيارة مالت عنايات هانم على إذن سحر قائلة:

-.. مش هو ده برضه الأسطى بتاعك..

لم تعلق سحر..

أدار حسن بك راديو السيارة فانبعث صوت أم كلثوم منشداً..

جيش العروبة يا بطل الله معك..

ماأبدعك.. ماأروعك..

مأساة فلسطين تدفعك..

نحو الحدود.. حول لها الآلام بارود..

في مدفعك..

مد يده مرة أخرى ليحول المؤشر فانبعث صوت مذيع صوت العرب المتشح يتغنى بالحرب.. فمد يده مرة ثالثة.. وأغلقه.. وتناول شريط كاسيت دسه في تسجيل السيارة.. فانبعث صوت أحد المغنيات بأغنية أفراح.. انفرجت أساريره وصاح..

-.. أهو كده.. خلى الواحد يفرفش شوية.. طول النهار حرب وضرب.. في الجرنال في الإذاعة،، في التليفزيون.. في الشارع.. حاجة تجنن..

راحت شوشو تصفق وتطرقع أصابعها مهتزة جزلة على إيقاع الأغنية وسرعان ماشاركتها عنايات في التصفيق.. ثم سحر وحسن بك.. ينقر عجلة القيادة بأصابعه..

سارت العربة في طريق صلاح سالم.. مخترقة المقابر على الجانبين.. ولم يفكر أحد من الراكبين النظر إلى الخارج..

أخيراً توقفت السيارة أمام أحد الملاهي الليلية بشارع الهرم.. قفز الجمع من السيارة.. ورفعت النسوة أزيال أثوابهن.. ومشين في خطوات وئيدة بينما استندت شوشو على ذراع حسن بك..

تساءل حسن بك قلقاً بصوت مسموع.. مابال الملهى يبدو مظلماً.. والشارع كله يبدو قفراً من السكان؟؟..

تقدم منه رجل طويل القامة عريض المنكبين.. يرتدى حلة سوداء.. وقميص أبيض

وبـابيون أسـود.. وقد وضع على رأسـه كميـة كبيرة من كريم الشعـر.. حتى عكست رأسـه.. الضوء الضعيـف الساقط عليهـا.. ومـد كلتـا ذراعيه يشـد على يـد حسن بك مرحباً..

-.. أهـلاً سعـادة البيـه.. عـاش مين شـاف سعـادتك.. حضرتك حـاتشرف المحل الليلة؟؟.. عندنا الليلة برنامج يهوس.. يجنن.. وكل أوامرك حاتلاقيها..

قاطعة حسن بك ضجراً مستمراً فى المسير..

-.. الاقى إيه؟؟.. ده باين عندكم ميتم مش بـرنامج.. إيه الضلمة دى.. إنتم خلاص شطبتم وللا إيه؟؟..

رد الرجل معتذراً.. البرنامج شغال يا بيـه.. بس نعمل إيه؟؟.. أوامر ندهن الشبابيك باللون الأزرق.. آل عشـان الحرب آل.. إحنا أسفين يابيه.. وكلها كام يـوم وترجع المية لمجاريها تانى..

توقف حسن بك أمام باب الدخول.. ومد يـده فى جيبه الداخلى وأخرج حافظة نقوده المكتظة.. وسحب منهـا ثلاثـة وريقات من فئة العشرة جنيهـات.. دسها فى يـد الرجل.. طالباً منه حجز أفضل منضدة لديهم..

استدار الرجل سريعاً.. يبعد زملاؤه بغلظـة تقبلوها بصدور رحبة.. وكأنهم يأدون أدواراً محفوظة قائلاً:

-.. وسع للبيه وللهوانم ياجدع إنت وهو..

وسرعان مـا اشترك عامل الباب فى التمثلية فـاعترض الداخلين.. فرجع إليـه الرجل خطوة وصفعة على قفاه قائلاً:

-.. إنت مش عارف دول مين.. إتفضل يا سعادة البيـه.. لمؤاخذة يا هوانم.. انتفخت أوداج حسن بك.. وأخذ ينظـر إلى مرافقيـه بفخر.. بمجرد دخـولهم إلى الصالـة المكيفة الهواء.. صفعت الموسيقى الصاخبـة آذانهم.. قادهم الرجل إلى منضـدة تطل على حلبة الرقص مباشرة.. جلس الجمع المنشرح.. بينما وقف الرجل خاشعاً ثم استأذن قائلاً:- عن إذن سيادتك اركن عربية سعادتك فأشار له حسن بك بالانصراف.. فتراجع الرجل إلى الباب..

بعد قليل ظهر مرة أخرى.. مـاداً يده إلى حسن بك بالمفاتيح.. وبعض الأوراق المالية باقى الحساب.. دفع حسن بك اليد الممدودة قائلاً:

-.. عيب.. عيب.. خللى علشانك..

تراجع الرجل شاكراً.. ليقف وقفته الأولى..

قفـزت إلى الحلبة راقصـة.. تـرتدى شيئـاً خليعـاً.. وقد وضحت آثـار التطعيم على ذراعيها وفخذيها.. فى حين حشرت ثديان ضخمان فى سوتيان صغير.. فوثبا إلى الخارج إلا قليلاً.. وأخـذت تتلوى على إيقاع طبلة يمسكهـا طبال يقف وقد رفع أحد قـدميه على كرسى.. وسرعان مـاراح الطبال يشارك الراقصة فى رقصتهـا المتبذلة.. راح حسن بك يتابع حركات الراقصة بنظرات متوحشة.. لاهثة..

أحست سحر بشىء من التقزز..

تلاقت عينـاها مع عين حسن بك.. فكـان ينظر إلى صدرهـا.. نظرات لم تتعـودها.. جعلتها تذوب خجلاً.. لا شعورياً.. مدت يدها.. تضم صدر الفستان.. إلا أن إحساسها بالعرى كان طاغياً.. فحولت نظراتها إلى الراقصة مرة أخرى.. إلا أنه لم يفارقها شعور أن حسن بك.. لازال يتفحص جسدها كله بعينيه..

طرقع حسن بك أصـابعه منادياً النـادل الذى أتى مهرولاً.. وأمره بإحضـار عشاءًا فاخراً وزجاجة من الويسكى وزجاجتان من البيرة المثلجة..

جاء طابور من الجرسونـات يحملون العشاء المطلوب.. دس حسن بك فى يد كبيرهم ورقة مالية.. وأمرهم بالانصراف.. وبدء.. حفل الطعام.. فى تلذذ.. وفى تمهل..

ملأ رأس سحر طنين تحول إلى خلية نحل..

اليوم بدأت الدخـول إلى عالم غريب.. أما العالم الذى تعرفه ويعـرفها.. فقد لفظها.. فأصبحت تائهة مابين عالمين.. وجاءها الجواب سريعاً..

فلتمضى المركب بـلا ربـان حتى تصل إلى جـزيـرة.. جزيـرتها المنفـردة.. التى لا تعرفها.. أى جزيرة أصبحت لديها الآن سواء..

وكما أتى الطعام رفع.. إلا قليلاً من القطع هنا.. أو قضمات هناك..

وانكب حسن بك يعب الخمر عباً.. وتناولت المرأتـان بضعة كؤوس.. وعرض حسن بك على سحر كأساً من الويسكى.. فتمنعت مترددة..

وبدأت تتذوق طعم البيرة..

عـزفت الفرقـة الموسيقية مقطـوعـة هادئة.. وهب السكـارى يتسانـدون كل رجل يحتضن امرأة.. راح يتمايل كالنائم..

هب حسن بك يدعو شوشو للرقص.. وعيناه تدعو سحر.. إلا أن رأس شوشو كان أثقل من أن يساعدها على الوقوف فأشارت إلى سحر قائلة:

-.. هى صاحبة الحفلة الليلة.. رقصها يا جدع.. ورنت ضحكة مستطيلة.. جاوبتها عنايـات بأعلى منها.. وضحك الجدع من أعماقه.. وامتنعـت سحر عن الرقص بـدعوى جهلها به.. فرفعها حسن بك رفعاً قائلاً بلسان ثقيل:

-.. أمال أنا هنا ليه.. علشان أعلمك.. حا أعلمك الرقص.. وكله..

نهضت فـاحتـواها حسن بـك بين ذراعيه على الفـور.. وزحف بها زحفـاً إلى وسط الحلقة.. ضغطها بشدة إلى صدره.. فانسحـق نهداها.. وراحته على ظهرها تتحسسه فى تمهل وهدوء.. فى حركـة رتيبة.. وأنفاسه المخمـورة الحارة فى أذنها مباشرة.. فإنتابها الدوار.. وتزلزلت الأرض تحت قدميها.. فتهاوت بين ذراعى الرجل.. وقد فقدت وعيها أو كادت.. تحت وطأة أكـواب البيرة.. والانفاس المخمورة الحارة.. والـدغدغة الـرتيبة المتتابعة.. وكان سبب تهاويها اللاوعى.. هو هروبها من سحر..

همس حسن بك.. انبسطتى النهاردة يا سحر؟؟..

ولم تكن سحر هناك كى تجيب.. كانت على حافة الوعى حيث لا تفكير.. ولا ذاكرة.. ولا كلام..

وأردف بنفس اللهجة.. أنا مستعد أهيصك كل يوم.. كل يوم..

توقفت الموسيقى الهادئة.. واشتـدت عاصفـة التصفيق.. وبدأت الرؤوس التـائهة الرجوع إلى هامش الوعى.. فتباعد الرجـال عن النساء.. وقاد حسن بك سحر كالنائمة إلى حيث الامرأتان.. ونهض الجميع بعد السهرة الحافلة..

عاد حسن بك إلى منزل عنايات..

فى اليوم التالى استيقظت سحر فوقعت عينيها على أمها فى كامل زينتها وملبسـها وإلى جوارها حقيبتان كبيرتان..

تثائبت وفتحت جفون حمراء قائلة:

-.. صباح الخير يا ماما.. لابسة بدرى كده ورايحة على فين؟؟..

ضحكت عنايات مداعبة ابنتها..

-.. بدرى؟؟.. بدرى من عمرك ده إحنا دلوقت الساعة إثنين الظهر.. قفزت من فراشها محتجة.. ماصحتنيش ليه يا ماما؟؟..

-.. وتصحى بدرى ليه؟؟ المدرسة وخلاص سيبناها.. والنهاردة مسافرين الفيوم مع تانت شوشو وأونكل حسن..

عادت إليها ذاكرتها.. تذكرت ليلة الأمس.. إلا أنها رفضت تصديق أن تلك كانت حقيقة.. فلابد أنه حلم..

أكد إحساسها بالحلم ذلك الشعور بالمرارة.. الشعور بالإذلال.. فقد الأمل أن يكون لها حياة طبيعية كاملة.. كحياة تحية.. لقد فقدت نصف حياتها.. ولكن هل يجب أن تسقط.. كى تضيع حياتها كلها..

تحت مياه الدش الغزيرة.. ورغاوى الصابون.. إنزاحت من روحها أى قدرة على التخطيط لشىء.. أو التفكير فى شىء..

وقفت أمام المرآة المثبتة وراء باب الحمام تجفف جسدها.. ولأول مرة تحملق فى هذا الجسد.. كأنه جسد إنسان آخر.. دائماً كان بعيداً عنها.. شىء يحتويها ولا تملكه.. أمانة لديها تردها إلى صاحبها مصونة كاملة ناضرة.. أما اليوم ولأول مرة.. لم تشك أن ذلك الجسد جزء منها.. من ذاتها.. لقد كان جزئها المفقود..

راحت تشد عضلات بطنها.. معجبة بجمال هذا الجسد البديع.. الذى لدهشتها اكتشفته فجأة..

بعد ساعة كان الجميع فى سيارة حسن بك فى طريقهم إلى الفيوم.. وضع حسن بك شريطاً فى كاسيت السيارة فانبعث الصوت ضاحكاً يغنى:

ماخدش العجوز أنا

لا أزقه يقع فى القنا

راحت النسوة الثلاث يصفقن جزلات يتراقصن.. وارتسمت على شفتى حسن بك ابتسامة عريضة..

****

الفصل الثانى

الهـــــــاوية..

ما كدت أستغرق فى النوم حتى إنتبهت فوجدتنى منبطحا على الأرض خارج السيارة وقد أطيح بالخوذة من فوق رأسى.. وسلاحى ملقى إلى جوارى..

ووجهى كله فى الرمال.. وصكت أذنانى أصوات انفجارات متتابعة.. ولفح النيران يشوى ساقاى.. فتسرى الحرارة خلال أعصابى إلى مراكز الإحساس بالألم.. فلا أصرخ.. بل.... أزحف.. وأزحف.. وأزحف.. بلا وعى.. فلم أكن قد ألمت بعد بما يدور حولى..

زحفت على أربع ورحت أركض ولا سيطرة على ساقاى المندفعة المتبادلة الموضع وقفزت إلى إحدى الحفر قليلة العمق كمن يقفز إلى حمام للسباحة.. إستويت جالسا متقطع الأنفاس أنظر حولى..

النيران مشتعلة فى سيارتى.. نيران غاضبة.. مزمجرة.. صفراء.. يعلوها ألسنة تناطح السحاب.... من الدخان الأسود الكثيف.. يصاحبها صوت فرقعة انهيار أخشاب الشاسية والصندوق.. وفجأة انفجر خزان الوقود.. فتطايرت كرات من النار على اللوارى يسار ويمين سيارتى.. وسرعان ما بدأتا فى الاحتراق وتحولت السيارات اللورى الضخمة إلى كتل من الحديد غير المحدد المعالم...

أيقنت أن هذه هى الحرب.. وأنها قد بدأت فعلا.. أدرت رأسى إلى حيث حفرة القيادة.. فكان الرائد ظريف مرتكزا فيها وإلى جواره النقيب سمير.. وإلى جوارهم تلسكوب للمراقبة..

قفزت خارجا من حفرتى أركض فى إتجاه القائد.. كانت هناك قنابل تنفجر فى كل مكان.. وأصوات الشظايا تصفر غاضبة كالسيوف المحاه فى كل إتجاه..

خلال ركضى تصورت كأن الرائد ظريف يصرخ.. ناظرا إلى مشيرا إلى السماء.. أدرت رأسى أنظر إلى السماء.. وإنبطحت فورا واضعا رأسى بين ذراعى.. فقد كانت هناك طائرة تنقض على مكانى مباشرة.. وعلى ارتفاع منخفض.. وفى لحظة إنبطاحى تماما.. أطلقت ثمانى صواريخ كالسهام النارية إلى عينى.... انتظرت أن أتمزق إربا..

لكننى سمعت صوت انفجار الصواريخ المتتابعة عن قرب منى..

ومن حسن طالعى إن الأرض هشـه.. رخوه.. احتوت الصـواريخ.. واحتوت معظم شظاياها.. نهضت مرة أخرى أعدو فى إتجاه حفرة القائد وأنا أسب سبابا متواصلا..

فى كلمات عجولـة أمرنى بـالتوجـه إلى عربـة القيادة ومحاولـة الاتصال بسرايـانا لاسلكيا.. فقد فقد الاتصال التليفونى تماما.

نهضت أثب فى خطوات قصيرة إلى عربة القيادة.. لاحظـت كم هى عالية مكشوفة لا تكـاد الحفـرة تصل إلى منتصف عجلاتها.. فكـانت كـالهودج الـذى يدعـو الطـائرات ويغريها بنا..

الجنود بـالداخل فى حالـة من الجنون الكامل.. فـالسمان جندى التحويلـة الأسمر الضاحك يدور بيد التحويلة فى حركة مستمرة نافذة الصبر.. لحوحه.. يحاول مستعيتا بث الحيـاة لأى خط من الخطـوط.. حاولت بـالصـوت إفهـامه أن الخطـوط أصبحت مقطوعة ولا فائدة من محاولة إدارة يد التحويلة.. وإن وجوده هنا فقد معناه..

فى حين وقف جندى التسجيل على قـدمية والقلم الأصفـر فى يده يدور حـول نفسه واضعـا لا يزال السماعـات على رأسه.. يتلقى البـلاغات.. وفجأة ألقى السماعـات إلى الأرض وجلس يبكى.. ولازال ينبعث منهـا صوت مذيع البـلاغات متتـابعة متـلاحقة وفجأة بـدأ صوت المذيع فى الارتفـاع.. الارتفاع بـالسبـاب موفـرا على نفسه مجهـود الإبلاغ قائلا.. ودلوقت الطيارات فى كل حته.. تلاقيها بتضربكم دلوقت..

إحنـا دلـوقت بننضرب.. بننضرب.. وصوت انفجـار مكتـوم عبر الأثير.. وصمت السماعات إلى الأبد.

جذبت أحد الأجهزة اللاسلكية إلى حافة الصندوق.. والعربة تتمايل كمركب شراعى وسط الأمواج.. وهديـر المدافع يصم الأذان.. قمت بإعداد الجهاز لـلإرسال.. ولايزال السمان فى حالته الهيسترية.. صائحا.. يا ١٠١.. يا ١٠٢.. يا ١٠٣.. يا ١٠٤.. يا قيادة.. ألو.. هنا واحد.. ردوا.. يا عويس.. يا حسن.. يـا محمود.. يا واد يا برعى.. يا فندم.. ما

ترددوا على.. أنا باخبط من الصبح.. ردوا.. إنتو ساكتين ليه.. ألو.. ما ترددوا بقى يا ولاد الكلب.. لا هم يردون على نداؤه ولا هو يكف عن إدارة يد التحويلة..

باقصى ما فى قدرتى من هدوء بدأت فى تشغيل جهاز الإرسال والاستقبال.. وضعت السماعات على أذنى.. وضبطت التردّد وأخذت أنادى على سرايانا.. واحدة فواحدة بهدوء شديد.. ومقاطع محددة.. كان الصمت شاملا.. ولا مجيب إطلاقا إلا صفارة واحدة مستمرة..

أدرت مؤشر الجهاز إلى التردد الاحتياطى ورحت أضبطه بروية.. وأخذت أنادى على محطات سرايانا.. وارتجت السيارة ارتجاجه شديدة.. سقط الجهاز اللاسلكى على الأرض.. وانزلقت التحويلة إلى أرضية الصندوق.. ولا زال السمان ممسكا بيد الإدارة.. سقط جندى التسجيل على اللوحة البلاستيك فحطمها ووقع على أرضية الصندوق.. سابحا فى بركة من الدماء.. ولا رد من السرايا إلا ذلك الصفير المتصل اللعين..

تخلصت من السماعات.. ومددت يداى أجذب جندى التسجيل من كتفية لانزله من اللورى.. حاولت رفعه كى يجلس لكن الجسد لم يستجيب للجلوس.. فأدرته وحملته فوق كتفى.. ورحت أحاول العدو إلى حفرة قليلة العمق.. انزلته إلى الحفرة.. وزحفت إلى القائد أخبرة بما تم.. ولقد كان مشغولا بالمراقبة والسباب المتواصل.. وعلى طرف الحفرة مذياع يصرخ فى هيستريا.. وخرج علينا مذيع يعلن أن قواتنا اسقطت حتى الآن خمسون طائرة.. شاكرا الله أن العدو بادرنا بالهجوم.. داعيا المستمعين إلى حفل ساهر فى تل أبيب..

صرخ القائد موجها كلامه إلى النقيب سمير:-

– ..ده مذيع ابن....بيرفع الروح المعنوية ده ولا بيهدمها.. الـ...... لما نكون أسقطنا خمسين طيارة يبقوا هجموا بكام.. والكام دول عملوا فينا إيه؟!.. الجاهل الـ....... ابن.....

أخيرا شعر بوجودى فسألنى عما فعلت.. فأخبرته بعدم إمكانية الاتصال اللاسلكى أيضا للتشويش الكامل على اللاسلكى.. وأن جهاز الاستقبال لم يعد يستقبل بلاغات.. بعد جنون المذيع الذى زعم إنهم أيضا ضربوا بالطائرات.. علق القائد بكلمة واحدة.... أحسن..

برزت من فوق شجيرات الخروع طائرتان.. تعرفت عليهما بسهولة فهى طائرات تدريب من طراز (فوجا ماجستر).. المصنعة فى إسرائيل.. لا حقتهما مدافع سرية النقيب محمد.. بإصرار..فصعدا فجأة.. والمدافع تلاحقهما..

برزت فجأة طائرة من طراز (أورجان) الفرنسية الصنع.. تخترق موقع النقيب محمد.. صاح الرائد ظريف فى غيظ وإشفاق:

- ..دى يا محمد.. دى اللى حا تضربك.. الاتنين اللى فاتوا جم يا خدوا المدافع معاهم.. لكن دى اللى حاتضربك.. إضرب يا محمد.. إضرب..

دوت من موقع محمد أصوات انفجارات متتابعة.. عنيفة.. لف الموقع بسحابه دخان سوداء كثيفة.. وصمتت مدافع سرية محمد قليلا..

أشرت إلى الجندى المسجى فى الحفرة متسائلا ماذا أفعل؟! قفز الرائد ظريف زاحفا إليه.. ثم عاد مرة أخرى وقد اختلطت فى وجهه حبات العرق مع حبات الرمل..

ثم قال... مات..

أمرنى القائد باصطحاب أحد جنود الإشارة لحمل بكرة سلك تليفون ميدانى وايصال الخط بموقع حازم مهما كان الثمن..موصيا أياى بالحذر على أن أحمل سلاحا على كتفى..

ظهر من خلف النخيل جنديا ملتاعا.. يحمل على كتفة رشاشا خفيفا.. ناداة القائد أمرا.. فجائتا كالمأخوذ.. تناول منه الرشاش وأشار له إلى شجيرات الخروع فتوجه إليها كالنائم.. وجلس تحتها يستظل..

عدت مرة أخرى إلى عربة القيادة.. ولازال السمان مستميتا على يد التحويلة يدور

بها مناديـا.. قفزت داخلهـا ودحرجت بقـدمى بكرة سلـك متوسطة الحجـم.. وأخذت أجذب السمان من ملابسه.. وهو لا يكـاد يعى وجودى.. قبضت على أصابعة المتشجة على يد الإدارة أرخيها نظر إلى كمن يصحوا من نومه.. فدفعته إلى الخارج..

ودفعت وراؤه بسلاحه وخوذته.. حملت بنـدقية الجندى الشهيد على كتفى وقفزت صحت فى السمان أن يلبس الخوذة ويحمل السلاح وبكرة السلك.. ويتبعنى..

علق سلاحه على كتفـه وحمل بكرة السلك على الكتف الآخر.. وأخذنـا فى الركض فى إتجاه موقع حازم مبتعدين عن القيادة..

وصلنا إلى إحـدى التباب وما أن وصلنا إلى قمتهـا حتى بدأنا نتدحـرج هابطين.. إن الأرض للجندى هى الصـديق المخلص إن هو استطاع فهمها.. فلـلأرض قدرات كبيرة أكبر من قدرات الجنـدى.. فيمكنها إبتـلاع وامتصاص ملايين الـرصاصـات والقنابل والشظايا.. وذلك نيابة عن الجنود.

ما كدت أصعد تبة وأنظر عبر قمتها حتى رأيت طـابورا من الدبابات.. يتقدم آتيا من جهة اليمين زاحفا خلال الكثبان فى إتجاه قلب اللواء كانت فرحتى كبرى.. فها هى قواتنا جاءت من مكـان ما.. لتقوم بهجـوم مضاد كما تقـول الكتب... أدارت إحدى الدبـابات برجها تجاهنـا.. خرج وميض من فوهة المدفع..وصفير دانة يشق الهواء بـالقرب منا.. صرخ السمان وتدحـرج إلى أسفل التبة مـرة أخرى صائحـا.. رأسى.. رأسى.. رأسى طارت يا فندم.. أنا مت خلاص..

تدحرجت نحوه.. مذعورا.. ورفعت خوذته أنظر فى رأسة.. وكان سليما تماما..

فقد مرت الدانـة من فوق رأسة مباشرة.. ونظرا لسخونتها الشـديدة وسرعتها فقد خلخت الهواء فوق رأســه.. وضغط الهواء عليها من أسفل إلى أعلى فشعـر كأنها خلعت خلعا من بين كتفية.. وجعلتـه يتحسس جسمه غير مصدق.. وصعدت مـرة أخرى أنبه الدبابات بأننى مصرى.. ولا داعى لإطلاق النار.. رفعت يدى ألوح للدبابات.. فأتى الرد فورا..على صورة سيل متصل من طلقـات رشاشات جسم الدبابـة.. لم أصاب.. لكنها

ردمت رمال التبه كلها فوق رأسى ورأس السمان.. ولم أستطع التحرك من مكانى..

عقلى أصبح نشطا جدا.. يحاول إيجاد حلول للمشاكل التى تتراكم بسرعة.. لا أرى جنودا إسرائيليين هناك لأقاتلهم ببندقيتى.. فماذا تفعل بندقية فى جسم دبابة؟!

صعدت مرة أخرى إلى قمة التبة لمراقبة خط سير الطابور المدرع.. وقررت إنه إذا كان مقتربا رأسا نحونا.. فعلينا العودة إدراجنا بأقصى سرعة إلى حيث كنا.. لكن الدبابات ابتعدت فى نصف دوره.. حتى أخفاها الغبار الكثيف.. مطلقة نيرانها فى جميع الاتجاهات وبصفة مستمرة..

أشرت إلى السمان بحمل بكرة السلك.. نظرنا يمينا ويسارا.. وأخذنا نركض بكل قوة فى اتجاه موقع حازم.. والطائرات فوق رؤوسنا تروح وتجيء تلقى بقنابلها هناك بالقرب من مركز قيادة الكتيبة..

بدأت أرى سحب الدخان الكثيف تتصاعد. وأصوات انفجارات متتالية.. لصناديق ذخيرة كاملة.. كلها صادرة من موقع حازم..

إقتربنا زاحفين إلى قمة أقرب تبة من الموقع.. وما أن أطللنا عليه حتى رأينا الجحيم ذاته مجسما على الأرض..

لم يكن هناك فى الموقع أى دليل على وجود حياة..

فأصوات جنود المدفعية خلال ضرب النار.. عالية النبرات.. وهنا صمت مطبق لا يقطعه إلا تلك الانفجارات.. وقعقعة الأخشاب المحترقة..

ألقى السمان بكرة السلك.. وعدونا معا إلى الموقع.

المفروض أن هنا ستة مدافع ومركز قيادة.. وسبعه لوريات ضخمة.. وثمانون جنديا وثلاثة ضباط.. حازم قائد السرية.. مع شكرى.. وخليل الضباط المستجدين..

مبهورين الأنفاس إقتربنا من المدفع الأول..

الدشمة الرملية البيضاء.. تحولت إلى اللون الأصفر.. وأربع بقع كبيرة سوداء..هى أثار احتراق عجلات المدفع.. على الجانبين يجب تواجد حفر الذخيرة.. ومبيت الطاقم..

ولا أثر لهم على الإطلاق.. إلا بعض الدانات الفارغة.. والأخرى الممزقة.. المدفع منكس الماسورة محترق بلا جهاز التنشين يلقى ظلا كئيبا من الوحشة والانهزام..

لم يكن هناك جنودا.. كانت هناك كومات مهترئه من الدماء والملابس المخلوطة بالرمال.. المفروض أنها ثمانى جثث.. لا توجد جثة واحدة يمكن التعرف عليها.. التمزق مريع والأشلاء مبعثرة.. والعظام منسحقه.. تماما..

تجمدت الدماء فى عروقى.. وفقدت الإحساس بالزمن.. الإحساس بالرهبة والخوف تلاشى.. فلا يمكن أن يكون ما يمر بى حقيقى.. لابد أننى أحلم.. حلما كئيبا.. سخيفا.. أو أننى أشاهد فيلما سينمائيا من أفلام الحرب.. أبطاله يمثلون أمامى.. أما أنا.. فاشاركهم.. مشاركة وجدانيه فقط.. الإحساس بالانفصام عما حولى أعطانى قدره على الحركة.. كأننى كومبارس فى المأساة الرهيبة.. والسمان إلى جوارى لا يتكلم.. وقد تعلقت عيناه بخوذة دامية.. وتدفقت من عيناه السوداوتان دموع غزيرة.. لم يكن يبكى.. لم يكن حزينا.. كان مشدوها.. لم يكن خائفا فزعا.. لكنه مصعوقا.. لا يملك إلا الحملقة.. ونظرت بدورى إلى الخوذة.. الدامية.. لم تكن فارغة.. كان بها نصف رأس.. ظهر الفك العلوى وبه الأسنان.. مملؤه بخليط من الدماء.. واللون الأبيض الشمعى.. لسائل المخ..

جذبت السمان من يده إلى حيث مركز القيادة..

لم تقابلنا الرائحة العطرة هذه المرة.. ولكن خليطا من رائحة البارود والدماء هبت كالصفعات.. صدرت من هناك حشرجه.. لجسد ينتفض وقد غطته الرمال..

خررت جاثيا على ركبتى أرفع الرمال بكلتا يدى.. ولمست يدى ياقه منشاه.. وقلبت الجريح على ظهره.. وكان حازم..

يده على بطنه المملؤه دماء.. وقد تدلت خلال أصابعة بعض أمعاؤه.. ينبثق من حولها نافورات من الدماء صغيرة... يتنفس بصعوبة.. صحت بالسمان قائلا:

– .. شيل معايا يا سمان.. شيل معايا نودية الكتيبة..

حاولت وضـع ذراعى تحت إبطة كى أرفعـه من الأرض.. ورغم إحساس المشـاهد الذى كـان يتملكنى.. إمتلاكا.. إلا أن دمـوعى.. أخذت تنهمـر بغزارة.. فها هـو حازم.. الأمل.. والطموح.. بكل ما زرع فى رأسة من أفكار يموت.. يموت بلا ثمن.. بلا مقابل هو وجنوده دون حتى أن تتاح له فرصة الدفاع عن نفسه.. يموتون جميعا دون أن يعرفوا حتى لماذا يموتون..

تحركت العينان الناشمتان الغائبتان عن الـوجود فى محجريهما.. ناظرة من بعيد على هامش الحياة.. لم تكـن نظرة حازم نظرة ألم.. أو لهفة.. أو خـوف.. أو حتى رجاء.. بل استسلاما كاملا.. وتسمرت العينان الزجاجيتان وفقدتا البريق.. مات حازم..

تـركت حازم يسقط ونهضـت وملابسى كمـلابس الجزار ملطخـة الدمـاء.. رحت أرهف السمع ولكن الصمت كان مطبقا.. فقد انتهى انفجـار كل شىء قابل للانفجار فى الموقع.. وكذلك اشتعال كل شىء قابل للاشتعال..

تصاعدت روح حازم وجنوده إلى خالقها.. دهشة..

حملنا أسلحتنا.. وقفلنا راجعين.. تاركين لفة السلك.. وراءنا.. فقد أنجزنا المهمة.. لم نكن أنا والسمان أثناء العودة.. نفس الاثنـان قبل رحلة الموت إلى موقع حازم.. لم تكن دانات المدفعية المنهمـرة كالمطر من خطوط العـدو ترهبنا.. لم يكن أزيـز الطائرات فوق رؤوسنا يخيفنا..

أخـرجت علبـة سجـائرى من جيبى وأعطيت السمان سيجـارة وأشعلت أخـرى.. ورحنا ندخن بنهم صامتون.. عائدون إلى قائد الكتيبة بالخبر اليقين..

الطائرات المنخفضة الارتفاع تغدو وتروح تصب حمولاتها هنا..وهناك.. والعربات هى الهدف..

كان الرائد ظـريف يقف منتصبا بقامتـه المديدة وقد أطاح بـالخوذة بعيدا.. يصوب مدفع رشـاش إلى طائرة.. وقـد جلس جندى المراسلـة فى الحفرة وإلى جـوارة صندوق طلقات يمشط لـه أشرطة الرشـاش.. رغم علمه تماما.. وهو قـائدا مرموقـا فى وحدات

المدفعية المضـادة للطائرات.. أن ما يقوم بـه عبثا لا طائل تحتـه.. فى وقفته تلك كما من العناد والتحدى.. كأنه يحارب حربا يائسة.. ضد اليأس ذاته..

وهناك إلى جوار النخلة انتصب رشاشا ثقيلا عاطلا..

دور المشاهد تملكنى تماما.. فركضت إلى حيث الرشاش الثقيل.. والسمان يلازمنى كظلى..

وقفت على المدفع أبحـث عن عطلـة.. فى حين جلس السمان يخرج علب الـذخيرة.. ويمشط شريطـا.. فكـانت هنـاك طلقة محشـورة فى مـاسـورة المدفع.. تنـاولت سيخ الماسورة.. ودسسته فى الفوهة.. فأخرجت الطلقة..

وبدأت أعمر المدفع استعدادا للإطلاق.. ووجهته إلى طائرة (أورجان) تقوم بالغطس علينا مبـاشرة.. وأخرجت دفعـات متصلة مـن النيران.. فصعد الطيار بها قبـل النقطة المناسبـة لإلقاء القنابل.. فسقطت قنابلـة بعيدة عنا.. لم أرفع أصـابعى عن عتلة ضرب النار إلا بعد إفراغ الشريط بالكـامل.. فنزعت العلبة وألقيتها إلى السمان.. وتناولت من يده شريط آخر.. قمت بـوضعه فى المدفع مستعدا للإطلاق.. جـاءت طائرة من اليسـار.. درت بـالمدفع لإلاحقها.. لكن المدفع مـال على جـانبه سـاقطـا على الأرض.. فقد امتـلأ جهاز.. إدارته فى الاتجاه بالـرمال.... وسقطت فوق المدفع.. نهضت محاولا رفع المدفع الممتلىء رمال.. فلمحت الرائد ظريف آتيا نحـوى زاحفا وبيده رشاشة الخفيف.. وبيده الأخرى.. يجر النقيب سمير.. وورائهم جندى المراسلة.. وهبطوا إلى جوارى..

كان النقيب سمير يصيح مهللا أننا سوف ننتصر.. وأن طائراتنا الآن فى الطريق إلينا لإنقاذنا..

سمعنا صرير جنازير الدبابـات آتية من خلفنا.. وراح القائد يراقبها فى حذر.. بينما صاح النقيب سمير فجأة..

- ..دى دباباتنا جاية من ورا تهجم.. استـوى على ركبتيه يهم بالوقوف إلا أن لكزة من مرفق القائد أقنعته بالركون إلى السكينة..

هناك على بعد أمتار منا تقف سيارة لورى محملة بمكعبات المياه..

ترنحت السيارة على أثر انفجار مكتوم.. فى حين تدفقت المياه من جانب اللورى.. وبعد انفجار آخر اشتعل خزان الوقود ورغم المياه المتدفقة إلا أن النيران اشتعلت فى السيارة.. وابتعدت الدبابات تدور بعيدا عنا..

فجأة نظر إلى النقيب سمير قائلا... جعان..

نهضت أركض إلى خيمة الميس التى ظلت حتى هذا الوقت قائمة منتصبه.. هجمت على دولاب الأطعمة هجما.. مددت يداى الاثنتان أحشو جيوبى.. حتى انتفختا وعدت راكضا مرة أخرى قافزا إلى جوارهما..

فمددت يداى إلى جيوبى وأخرجتهما مملوءتان.. واحدة إلى النقيب سمير.. والأخرى إلى الرائد ظريف.. ورحت أنا أيضا ألوك شيئا فى فمى..

تعدت الساعة الخامسة بعد الظهر.. وكان القصف قد بدأ من السابعة والنصف بتوقيت القاهرة.. وتحول الجو كله إلى اللون الأصفر.. وكأن اللواء ضرب بالغازات السامة.. وهو فى الحقيقة لم يضرب بها.. لكن الحجم الضخم من القنابل الذى ألقى على اللواء.. وكم ذخائر اللواء ذاته التى انفجرت.. كل ذلك لون الجو باللون الأصفر.. مع رائحة نفاذة للبارود..

لاحت على الأفق سيارة جيب.. آتية من الخط الأمامى..حيث قيادة اللواء.. وفى نفس الوقت برزت من وراء أحد التباب دبابة.. راحت تطلق نيران مدافعها الرشاشة عليها.. دارت السيارة الجيب مبتعدة عن نيران الدبابة.. وشقت طريقها فى اتجاهنا... يقود السيارة قائد اللواء بنفسه وإلى جواره جلس الرائد عزت وقد شحب لونيهما تماما..

توقفت السيارة قليلا وصاح قائد اللواء بلهجة سريعة مخاطبا الرائد ظريف

– .. خلى رجالتك ينسحبوا... اللى يقدر ينسحب ينسحب اللواء سقط.. رد ظريف ملتاعا.. اللواء سقط خلاص..

– .. مفيش وقت للكلام.. اللى يقدر ينسحب ينسحب..

– .. ننسحب على قيادة الفرقة فى الشيخ زويد؟!..

– .. قيادة الفرقة كمان سقطت والعدو دلوقت فى طريقة للعريش.. انتهى كل شىء.. فى ثمانى ساعات.. إذن..

أننا لم نقاتل.. إننا لم نهرب.. لم ننهزم.. أين ذلك العدو الذى قاتلناه.. وهزمنا؟!

من هذا العدو الذى هزمنا؟!

لابد أن ما يحدث حلم.. أو أكذوبة كبرى..

مضى قائد اللـواء معرضـا نفسه للموت المحقـق يقود سيارتـه.. ليحذر الـرجال.. ويزف إليهم الحقيقة المريرة.. فجأة تحول الخط الأمامى إلى قطعة من الجحيم.. سقطت عليه دفعة واحـدة مجمعة من ملايين الطلقات والـدانات والقنابل.. انفجـارات متتابعة سريعة مع ومضات متتـابعة.. وزلزال رج المنطقة رجا.. ثم رشقـة أخرى مجمعة ذات صفير متداخل.. ثم انفجارات متتالية.. وألسنة لهب احتوت موقع النقيب محمد.. انهار الرائد ظريف فجأة.. فهب واقفا.. ثم أخذ يركض فى اتجاه سيارته الجيب صائحا:

– .. مش عاوز أتأسر.. مش عاوز أتأسر..

ركض وراؤه النقيب سمير يتعلق فى مـؤخرة السيـارة.. التى قادهـا القائد فى اتجاه جراده.. ليخترق بها دروب الصحراء..

بقيت وحدى.. ومعى السمان.. ومراسلة القائد..

من خلف أشجار الخروع جائنى صوت أعرفه.. صوت باك.. ملتاع:

– .. الكتيبة راحت يا مختار.. اللواء سقط.. الناس ماتت.. كلهم ماتوا..

وكان إبـراهيم.. ولم يكن ممكنا أن نجلس كى نبكى.. ولم تكن هناك سيـارة واحدة سليمة.. كافة السيارات مدمرة محترقة..

ولم تكن هناك غير أقدامنا لتحملنا أطول مســافة ممكنة فى طريق الانسحاب الذى لا أحد يدرى أين ينتهى ومتى.. وكيف..

رحنا نسير فى اتجاه الغرب.. والغروب يلف أفق السماء بلون أحمر باهت حزين.. ما

كدنـا نصعد أحد التباب بـالقرب من مؤخرة اللـواء.. حتى قابلتنا عاصفـة من طلقات الرصـاص.. كانت هناك دبـابة تقطع طـريق الانسحاب.. لم يكن لدى إبـراهيم سلاح سوى مسـدسا لطلقـات الإشارة.... ليس سـلاحا.. إذ كل مهمتـه تحديد مكـان مطلق الإشارة فقط..

انبطحنا أرضا.. وطلقات الرصاص تصفر فـوق رؤوسنا.. العارية.. وما أن توقفت الطلقات حتى قفز إبراهيم واقفا وأطلق مسدس الإشـارة فى اتجاه الدبابة.. فردت عليه بدفعة رشاش طويلة.. أسقطته متضرجا فى دماؤه بيننا..

سمعنـا صرير الجنـزير.. فعـرفنا أن الـدبابـة.. سارت فى طـريقها.. استـدرت إلى إبـراهيم.. صـدره يعلـو ويهبط.. وقد تجمعت على وجهـه حبات العـرق الغزيـر.. ربت صـدره حانيـا.. مطمئنا إيـاه.. الـدبابـة مشيت.. حاشيلك لغـايـة العريش.. وتـدخل المستشفى وتخف وتبقى عال يابو خليل..

– .. أبو خليل إيه.. يا مخ.. ما خلاص..

– .. خلاص إيه يابو خليل.. إنت دلوقت حاتقوم وتمشى معايا..

– .. نار فى رجلى.. ودراعى.. وصدرى..

– .. اجمد يا إبراهيم.. خليك شديد..

وضعت ذراعى خلف عنق إبـراهيم.. وعـاوننى رفيقاى الجنـود.. حاول النهـوض والإستواء واقفا على قـدميه.. بذل جهدا جبـارا.. تقلصت جميع عضلات وجهه. ولكن بلا نتيجة.. انهار وسقط مرة أخرى.. صارخا من أعماقه..

– .. مالك يا إبراهيم.. ما تجمد إمال..

– .. أنا مصاب فى رجلى الاثنين.. وفى صـدرى.. وفى ذراعى.. مش قادر أقف ولا أخد نفسى.. سيبنى يا مختار.. سبنى وإمش إنت.. يمكن تلحق توصل العريش قبلهم....

– .. وإنت يا إبراهيم حا تعمل إيه؟!

– .. أنا.. حـاموت.. وإن وصلت مصر يا مختـار.. روح لأبويـا.. وأمى.. وإخواتى..

وقولهم إبراهيم بيقولكم متزعلوش..

- .. لا يا إبراهيم أنا مش حا أسيبك.. وإنت مش حاتموت.. حاقعد معاك لغاية لما تيجى أى عربية تودينا العريش مع بعض..

تحول إبراهيم إلى عضلة واحدة تختلج.. وتتمزق.. وتتألم.. صديق عمرى يموت أمام عينى وأنا عاجز عن تقديم.. المساعدة إليه.

مددت يدى أمسح وجهه وقد بلله العرق تماما.. حاولت أنسيه آلامه.. فأخذت أقص عليه بعض نوادرنا بالكلية.. عسى أن أشيع البهجة فى القلب المتهالك ليقوى على مقاومة الانهيار..

شق سكون الليل قدوم سيارة.. آتية تزحف.. وتجر خلفها مدفعا يلقى ظلا طويلا.. كان أحد مدافع الكتيبة..

صحت فرحا... ده مدفع من بتوعنا.. يا إبراهيم.. لم يتحرك إبراهيم.. فقط أشاح بيده..

نهضت أشير للسيارة أن تقف.. وعدت إلى أرض الواقع الأليم.. بكل قسوته.. حينما وقعت عيناى على النقيب محمد.. حيا يرزق.. وبشحمه ولحمه.. قفز من السيارة فألقيت بنفسى على كتفه أبكى كالطفل البائس.. وأخبرته بإصابه إبراهيم مشيرا إلى مكانه.. هرول إليه.. ثم عاد مطرقا..

إطراقته أخبرتنى أن إبراهيم قد مات.. هو أيضا قد مات.. صديق الشباب والوحدة زميل الدراسة والمعاناة.. لماذا لم أمت أنا؟! لماذا لم يمت عبدالستار؟؟ لماذا من نحبهم فقط يموتون؟؟ دفعنى النقيب محمد كى أركب اللورى.. لكنى تسمرت فى الأرض محتجا.. لأ.. حاأدفنه.. علشان أعرف مكانه وأرجع أزوره..

زجرنى النقيب محمد بلهجة آمره.. إركب.. مفيش وقت..

اللورى عبارة عن كتلة من اللحم الآدمى.. جنود مكدسين.. ومعلقين خارج الصندوق وعلى المدفع.. والرفرف.. والكل متشبث بالكل باستماته وتشنج.. العيون

هالعة والنظرات زائغة مذعـورة.. والكل صامت.. الكل في حالة انسلاخ عن الواقع.. لم يكن لي مكان غير يسـار السائق.. سـاق بالـداخل.. وساق بـالخارج.. وجسدى معلق بالباب.. سارت العربة اتجاه الغرب..

أصبحنـا نسـابق الزمن كي نصـل إلى العريش.. هـذه المدينـة الصغيرة.. أصبحت بـالنسبة لنـا أمل بعيد المنـال.. هناك نضمـد الجراح.. ونداوى الجرحى والمصـابين.. ونستعد للحرب الحقيقية.. نـواجه العدو وجها.. لوجه.. أما زملائنـا وجنودنا.. حازم وإبراهيم.. وشكرى.. وحسين.. والباقين.. فلهم بطون الذئاب والجوارح..

دخلت السيـارة إلى مدق مستـوى تحفه من جـانبه الأيسر هوه عميقـة من أخـاديد الصـحراء.. وعلى الجانب الأيمن عدة تباب متقاربة.. متباينة الإرتفاع..

عند أحد المنحنيـات.. لاحت فوق أحد التباب.. دبابة وعـربتان مصفحتان.. يقف إلى جوارهما عـدة أشباح يلبسون الخوذات.. مـا أن حازينا الـدبابة والعـربات حتى صك أسماعنا صوتا باللهجة الشامية يأمرنا بالوقوف.. فتدفق السباب من فم النقيب محمد أمرا السائق باستمرار المسير..

وفجأة فتحت النيران على السيـارة والمدفع.. على الكتلـة من لحوم البشر العـزل من السلاح العزل من الوعى.. وتعالت الصرخات.. بينما صاح النقيب محمد قائلا:

– .. دى الظاهـر عليها قـوات عراقية.. ولا د الـ... مش قادرين يميـزوا بيننا وبين العدو.. وقفز من السيارة هائجا غاضبا.. محاولا الصعود إلى الدبابة مستطردا..

– ... إحنا مصريين.. إحنا مصريين.. بتضربوا نار ليه..

خرج محمد صـائحا مهددا بقبضه يـده العزلاء.. جنودا لهم عيون ترى.. أنه أعزل.. ردوا على صـياحه بدفعات طويلة من مدافعهـم الرشاشة.. وتطايرت السيارة بمن فيها وما فيها.. أثر قصفها بدانة دبابـة من مسافة لا تتجاوز الأمتار القليلة ووجدتتنى أطير في الهواء.. ثم أسقط على مقعدتى.. شعرت لحظة أن عظـام المقعدة إندكت دكا.. في عظام الجمجمة.. ومن بعيد سمعت أحدهم يصيح قائلا:

— .. هير إز.. ماى هــاند.. هير إز.. ماى هــاند.. ردوا على صياحــة بدفعة طــويلة من
رشــاشات أسكتته.. ورويدا رويــدا رحت فى غيبوبة.. من خلال الــرحلة القصيرة بين
الشعور واللاشعور.. الوعى واللاوعى.. أحسست براحة عجيبة.. وإحساس بالسكينة
يق.. وشبح الموت يعانقنى.. ولدهشتى لم أكن جـزعا.. وأمنية تحتوينى كى أستريح
د أن ضغط على دورى كمشاهد لما أراه وواقعنــا غير المعقول الذى أطاح بى فى الهواء
! أجنحة..

رويدا رويدا بدأت أشعر بلسعة بــرد تسرى فى أوصالى.. ورطوبة تنخر عظامى.. لم
ل الظــلام يلف الكون من حولى.. ولـم يكن ظــلام القبر.. فقد سمعت صوت دحــرجه
جل تهبط إلى..

أغمضت عيناى.. سوف يأتى العدو.. ويكبلنى أسيرا.. وتحت تهديد السلاح يأمرنى
دفن الجثث.. إبــراهيم.. وحــازم.. وشكرى وجنــودنــا كلهم.. وربما أمــرنى بسكب
نزين وإشعال النيران فيهم.. ثم يــركبون سيارة متهالكــة تدور بى بين المستعمرات
هودية لتبثق النسوة والأطفال على وجهى.. ثم أساق إلى معسكر الأسرى..

رحت أتحسس ســلاحى.. وأقبض عليه.. وأوجهــه إلى صدرى وأضغط على الــزناد
خرج طلقة تمزق قلبى وأستريح مما أنا فيه.. وما ينتظرنى.. وما قبضت إلا على حفنه
، الرمال..

هنـاك أيــادى تتحسسنى.. فتحت عيناى مستسلما.. فوقعتا على الــرقيب دسوقى..
ى جواره العريف تابعى.. راحا يحتضنانى ويبكيان..

حـاولت النهــوض.. لكن عجزى كــانا قــد سحقا.. سحقــا.. ساعــدانى على الاستواء
نفا.. والنيران تشتعل فى ســاقاى.. إتكأت على ساعــد دسوقى.. ورحنــا نتسلق التبة
الية.. عادت آخر صورة إلى ذهنى.. فتســاءلت عن النقيب محمد.. فأشار إلى مكانه..
ـ الــدمــوع.. لم أكن أتصــور إن دسوقــى يمكنه البكــاء.. هــذا الجســد الضخم ذى
سوارب الكثة.. اللهجة الصعيدية الآمــرة.. كتلة الجرانيت الأسمر..تهدلت ملامحها..

وتلك العيون الثـابتة النظرات.. زاغت.. وانهمـرت منها دموع عـاجزة.. صـامتـه.. كان النقيب محمد مسجى على الأرض.. تتردد أنفـاسه ضعيفـة.. صـامتا.. ويـداه ممتده إلى جواره على الأرض وقـد مالت رأسه قليلا.. جلست إلى جـواره فلاحت نظرة بـراقة من عيناه.. تحاول الابتسام.

– .. عامل إيه يـا فندم.. سلامتك.. دلوقت حانشيلك ونـروح العريش العريش؟؟... نفس الموقف.. بنفس الكلمات.. كنت أرددهـا منذ ساعـة أو بعض ساعـة مع إبراهيم.. وإبراهيم مات.. الصديق.. والزميل.. مـات.. وهـا هو محمد الأخ والزميل.. والصديق.. والقائد.. والسند.. يحتضر..

– .. مـا طلعوش عـراقيين.. إحنا مش عـارفين حاجـه.. مش عارفين الصـاحب من العدو.. كله بيضرب فينا..

– .. ما تجهدش نفسك يافندم.. ما تتكلمش..

– .. عاوز.. أشرب.. عاوز ميه يا مختار.. ريقى ناشف..

كان الدسوقى جالسا خلف رأس محمد.. صامتا.. مستمعا إلى حديث المحتضر..

نهض ثلاثتنا.. للبحث عن الماء..

أصبح اللـورى قطعـة من الحديـد المحترق.. تنبعث منه رائحـة لحم مشـوى.. ولم يتبقى من المدفع إلا ظلا أسودا كئيبا ومـاسورة منكسة إلى الأرض.. والجثث مبعثرة فى كل مكان.. أخـذنا فى العبث بجثث الزملاء.. ذوى البطـون المبقورة والعيون الزجـاجية الهالعة المفتوحة.. وأخيرا عثرنا على زمزمية بها بعض الماء.. معلقة فى حزام أحدهـم..

قـام دسوقى بفك حـزام الشهيد.. والاستيـلاء على الـزمزميـة.. وعدنـا إلى النقيب محمـد.. جلست إلى جـواره كما كنت.. ورفعت رأسـه أضعهـا على ركبتى ووضعت الزمزمية على شفتاه الجافة.. أخذ يمتص الماء.. وأنا أسكب ما فيها إلى فمه.. حتى فرغت تماما.. فألقيتهـا جانبا.. تحركت ذراع النقيب محمـد اليمنى دفعها إلى خصرى.. وراح يصرخ فقد استيقظت الامة..

شعـرت ببروده تسرى فى ساقى اليسرى.. شىء بـارد يتدفق عليهـا.. مددت يـدى أتحسسها.. فكان شيئا لزجا.. تفوح منـه رائحة عصاره معوية كالقىء.. رفع رأسه إلى أقصى ما يستطيع قائلا:

– .. مخـتار.. لو رحت مـصر.. روح لأخويا أحمد.. ثم صـمت قليلا واستطرد.. قله محمد راح هـدر وأنتـم السـبب.. قولـه.. إنت وزمايلـك قتلتو محمـد.. قولـه محمد بيقـولك روح ألبس ميرى وحارب.. معـرفتـوش تتجسسوا على العـدو... و... و... و.. وضـاعت الكلمات.. أصبـحت حـروف متآكلـه من كتـاب اسـطورى.. فقط...... صرخات الألم كانت واضـحة..

.. جلس ثلاثتنا نبكى.. لا نملك إلا دمـوع نسكبها.. تحولنا إلى ثلاثـة عجائز خائرى القـوى معدومى الحيلـة.. لا نملك إلا العويـل.. وإن كان كل منـا.. لا يدرى فعـلا.. هل ينتحب من أجل النقيب محمد.. أم من أجل الفرقة التى دمرت تماما.. والأصدقاء اللذين ماتوا بلا ثمن.. أم من أجل أنفسنا.. ورثاء لها..

بكل ما تبقى فى محمد من قوى ووعى صاح.. تعبان.. تعبان.. قوى..

إندفع التابعى مواسيا.. شدة وحاتزول.. شدة وحاتزول يا فندم.. شد حيلك..

أردف الدسوقى.. نشيله نوديه مستشفى العريش..

من حافة الموت أرسل إلينا محمد ابتسامه ساخرة قائلا:

– .. تشيولونى إيه.. ده أنا جسمى كله رصاص..

ثم تعالت صرخاته..

– .. محمود.. محمود يا مختار..

– .. أيوه يا فندم..

– .. إنت بتحبنى؟؟

– .. باحبك قوى . قوى يا فندم..

– .. عاوزك تريحنى..

– .. خلاص يا فندم.. حا نشيلك أنا والدسوقى والتابعى.. إن شاء الله لآخر الدنيا.. بس بلاش كلام..

أشاح بيده أن أصمت.. وأردف صارخا..

– ..لأ.. إضربنى رصاصة فى دماغى.. عشان أستريح.. مش قادر أستحمل.. مش قادر أستحمل.. تعبان.. تعبان..

لم أسمع كلماته جيدا.. فلا يمكن أن يكون ذلك قد قيل وحدث فعلا.. رغم أنه حدث.. فقط تساقطت دموعى.. وصمت ضاغطا على أسنانه قليلا ثم أردف:

– .. بدال العياط.. وفر دموعك.. حا تحتاج كل نقطة ميه فى جسمك.. ريحنى وإمشى فجأة تعالى بكائى.. فى نشيج طويل.

جاء صوته أكثر ضعفا.. خايف تمسك بندقية.. أصلك جبان.. التابعى والدسوقى أرجل منك.. يا لله يا دسوقى.. يا لله يا تابعى.. ريحونى يا ولاد..

شهق الدسوقى شهقة عالية.. ومزق الصمت نواحه.. وسار بعيدا..

بدأ محمد الركون إلى السكينة.. وقد راحت خيوط الفجر تنتشر على الصحراء.. كنت مرغما على النظر إلى ما حولى.. وقد بدت المجزرة بكل تفاصيلها.. أكثر من مائة جثة متناثرة متباعدة.. أو متعانقة متكورة.. ليست جثثا فى فيلم.. لكنها منذ يوم واحد كانت نفوس يملؤها الأمل.. والثقة فيما يأتى به الغد.. الثقة فى وعود قيادة بلد.. لم تتحقق أبدا.. كانوا جنودنا.. وزملائنا.. وأحبائنا..

نظرت إلى وجه محمد الذى استكان تماما.. تحول إلى اللون الأبيض المشوب بالاصفرار كالشمع.. اختفت الملامح الساخرة الحلوة.. وحل محلها إنبساط تام.. بلا تنفس.. بلا صرخات تطلب الراحة.. بلا ألم..

ناديته باسمه.. لم يرد على ندائى أبدا..

نهضت مبلل الثياب بالدماء والعصارة المعدية.. تبعنى الدسوقى والتابعى صامتين.. تمالكت رباطه جأشى فاستدرت إلى الدسوقى قائلا:

- .. روح يا دسوقى هات لنا ثلاثة بنادق وسناكى.. وإن لقيت كام زمزمية ميه هاتهم معاك..

كان عليه أن يرفع الجثث ويفتش الزملاء.. للبحث عن الاحتياجات المطلوبة..

وعاد دسوقى معه البنادق يحملها على كتفه.. وثلاثة خوذات يحملها على ساعدة كالأساور.. وعدة زمازم تحت إبطه..

حمل كل منا بندقية منكسة إلى أسفل وعلقنا عليها الخوذات.. وتمنطقنا بالزمازم.. واتجهنا غربا.. محافظين على اتجاه ظلنا كى يكون فى مواجهتنا فى جميع الأحوال..

نظرت إلى كفى فى ضوء النهار.. كانتا ملطختان بدماء الأحباء.. ركعت على ركبتى وتناولت حفنة من الرمال الساخنة.. أحك الدماء المتجلطة.. حتى نظفت يداى.. أو خيل إلى أننى نظفتهما من دماء الأصدقاء..

اقتربنا من سهل منبسط فى وسطه مجموعة كبيرة من الجنود والضباط.. يتجمعون.. وشددنا خطانا إليهم.. نسأل عن سر توقفهم..

كانوا من كتائب مختلفة ومن نفس لواءنا.. ولم يكن معهم ضابطا قديم الخدمة.. فكل الضباط حديثى عهد بالخدمة.. أى منذ أسبوع واحد مضى.. كلنا فى نفس المأساة نعيش.. يدفعنا أمل واحد.. الوصول إلى العريش.. كى نسبق العدو إليها..

تساءلت عن سر عدم تقدمهم.. فقرر أحدهم أننا الآن فى منطقة جرادة.. فى اتجاه الجنوب.. حيث يوجد حقلا للألغام..

وإنبرى آخر مقررا أنه من المهندسين العسكريين.. ولا توجد أمامنا.. ألغام تنفجر.. لكنها ألغام مضادة للدبابات.. لم تثبت بها المفجرات بعد..

الجندى يحتاج إلى ضابط يسير وراؤه.. لاسيما فى الأوقات العصيبة.. وما مر بنا جميعا هدم ثقة كل منا فى نفسه وفى العالم..

وكان بالنسبة لهذا المكان ثلاثة احتمالات.. ليس لها رابع.. فإما به ألغاما ليس بها مفجرات.. فهى صحراء عادية.. ولا مشكلة.. فى العبور.. وإما بها ألغاما مضادة

للدبابات قابلة للانفجار فلن تنفجر إذا وطئناها بأقدامنا.. والاحتمال الثالث أن يكون به ألغام مضادة للأفراد تنفجر بمجرد اللمس.. فلا تصلح للعبور منها.. وفى جميع الأحوال لن تتأكد إلا بالتجربة.. نظرت إلى الجنود ثم إلى دسوقى والتابعى قائلا:

– .. حا أعدى لوحدى الحقل ده.. لما أوصل لغاية التبة اللى هناك دى.. وأشاور لكم.. تعدوا وراء بعض طابور كل واحد يحط قدمه على أقدامى.. وإن انفجر فى لغم.. إبقوا اتصرفوا انتم...

هب دسوقى والتابعى ينظرون شذرا إلى الجموع قائلين:

– .. إحنا حانيجى مع سيادتك.

فأشرت لهم بأن يصيمتوا.. ويتابعونى عن بعد..

رفعت السلك الشائك.. وعبرت إلى حقل الألغام..

لم تكن تلك لحظة شجاعة.. بل شيء جديد.. شيء يحتاج مسمى مبتكرا.. ففى لحظات قد تطول.. يستوى الموت والحياة.. حينما تكون الحياة مؤلمة.. لا قيمة لها.. ويكون الموت أقرب للإنسان من نبض قلبه.. لا يصبح للتفكير أو للمنطق مكانا..

عبرت رافعا قدمى إلى أعلى.. ثم ملامسة الأرض بأطراف أصابعى.. كمن يختبرها.. مع كل نقله ساق.. يملأنى الشعور بأننى لن أحرك الساق الأخرى.. فسوف انفجر وأتناثر.. وذلك لم يكن خاطرا مفزعا على أية حال..

بعد قليل كنت أرفع السلك الشائك فى الجهة المقابلة.. صاعدا إلى التبة.. رحت أشير إلى الجمع أن يتبعنى... ولم ينفذ الجنود توجيهاتى.. بل تخطوا الأسلاك الشائكة وراحو يركضون بلا نظام اتجاهى.. وسرعان ما تم التجمع بالقرب منى.. ناظرين إلى فى ترقب.. وأنا أنظر إليهم بدورى ولا أدرى ماذا أقول..

إنبرى الدسوقى قائلا.. حضره الضابط تعبان.. والظاهر عليه مكسور.. اللى عاوز يمشى يتفضل يا دفعه أنت وهو..

تحركت الأجساد.. فى تمايل وتلكؤ مبتعدين.. وبين الوقت والآخر.. يتطلعون إلينا

من طرف خفى.. حتى توارو عن الأنظار وكأن التباب قد إبتلعتهم إبتلاعا..

ظللنا جالسين ما يقرب من نصف الساعة.. تحاملت على نفسى.. ساعدنى التابعى على الاستواء واقفا على قدمى.. نظرت إلى الشمس وادرت لها ظهرى.. كانت ظلالنا قصيرة جدا.. وأخذنا نسير..

على الأفق هناك فى أقصى اليمين.. موقع جراده الحصين.. يقف حزينا.. وأثار دخان يتصاعد من بين أرجاؤه.. وقد وضح تماما لنا.. أنه سقط.. ولم يعد أمامنا إلا العريش.. علها لازالت تقاوم الجزارين..

أخرج التابعى راديو صغير من بين طيات ملابسه.. والتقط إذاعة صوت العرب.. حيث راح المذيع المتشنج يصرخ قائلا.. أن ما أسقطته قواتنا من طائرات العدو حتى صباح اليوم قد بلغ مائة وخمسون طائرة.. وأن قواتنا قد كبدت العدو خسائر فادحة... أسكت التابعى صوته.. ووضعه بين طيات ملابسه.. وتدفق السباب من فمه..

نفذت قطرات المياه من الزمازم.. وأمعائنا تتلوى جوعا.. وشفا هتا جفت ظمأ.. ولم يكن هناك إلا الشمس تذيب شحومنا.. ورمال لا نهاية لها ساخنة تحت أقدامنا.. فى أحد البقاع المنخفضة لمحنا بقعة خضراء.. لا تتجاوز الثلاثة أمتار المربعة.. نباتات برية زاحفة.. شددنا خطانا إليها.. ورحنا نقلبها رأسا على عقب.. صاح الدسوقى فرحا فجأة... ده بطيخ.. ده بطيخ يافندم.. وهب واقفا وفى يده شىء مستدير أخضر اللون كبرتقال أول الموسم.. رحت أفتش الأغصان حتى عثرت على واحدة قضمتها.. فبللت عصارتها شفتاى وحلقى.. إنبطحنا ندس رؤوسنا تحت ظلها لتحمينا من ضربة شمس محتملة..

كان البطيخ شىء وسط ما بين اللفت فى تماسك خلاياه.. والحنضل فى لزوجته لكنه كان رحمة من الله.. فى هذه البقعة القاحلة.. وعملت أمعائنا كالمضخات.. تطلب المزيد.. فأخذنا نزحف رافعين الأغصان للبحث عن المزيد.. عثر التابعى على واحدة راح يقضمها ويلتهمها إلتهاما.. ويداه تبحث عن أخرى.. بينما الدسوقى يرفع الأوراق

ورقـة فورقـة.. وأخيرا وفق إلى واحـدة.. فى حين فشلت أنـا فى الحصول على واحـدة.. رفعهـا الدسـوقى إلى فمـه.. ثم أنزلها مـرة أخـرى.. وسحب السـونكى من جانبـه.. وشطرها نصفين.. ومد إلى يده بنصف باسما..

أخذنا نطحن البطيخ طحنا كالجمال..

وتوسطت الشمس كبد السماء.. وبدأت تميل نحو الغرب..

وقفنا.. مواجهين الشمس.. وشددنا خطانا إتجاه الغرب..

بدأنا نـرهف السمع فهناك صوت سيارات تجرى مسرعة.. فايقنت أننـا على مقربه من طـريق رفح–العريش... ومن مسـافة بعيـدة أتت الينا أصوات انفجـارات وقصف مدفعية.. وقررت عبور الطريق.. والتوجه مباشرة إلى البحر.. نسير على الشاطىء تحت ظلال النخيل.. أو نختفى سباحة بين الأمواج.. لنصل إلى العريش وننضم إلى قواتنا..

كأننى أقرأ خريطة أيقنت أننا الآن فى الكيلو ١٤ طريق العريش رفح.. بل أن هذا التل يطل مباشرة على نقطة جمارك العريش.. المواجهه لمعسكرات الأمم المتحدة..

زحفنا نصعـد التل.. الذى خلفـه الطريق مبـاشرة.. مع كل متر نصعده تتضـح لنا أصوات بشر يتكلمون.. بالقرب من القمة.. وضـحت كلمات باللغة العبرية.. كانوا جنوداً إسرائيليين من الأعداء..

خلعت الخوذة.. وأومأت إلى التـابعى والدسوقـى بالتوقف.. أطللـت حتى مستوى العينين فقط.. كـانت هناك دبابـة.. تقف على الجانب القـريب.. وعلى الجهة المقابلـة من الطريق.. سيارتين مدرعتين ذوات جنازير.. وقف إلى جـوار الدبابة عدة جنود يحملون مـدافع رشـاشـة.. فى حين اصطف على الأرض طـابـورا من الأسرى.. منبطحين على بطونهم.. وأيديهم أعلى رؤوسهم.. متجاورين.. بدأ محرك الدبابة فى الهدير.. والجنزير يصدر صريـرا عاليـا.. واتجهت مباشرة نحـو طابور الأسرى المنبطـح أرضا.. ارتفعت الصرخات فـوق صوت هديـر الدبابـة.. وتعالت أصـوات لعظام تتهشم.. وتختلط مع اللحم والدماء والملابس.. والرمال..

سحبت بندقيتى وصـوبتها إلى الجنـود حاملى الرشـاشات.. وضغطت الـزناد.. لم

تخرج الطلقات.. غمرت أجزاؤها الداخلية بالرمال تماما وتعطلت..

تلك الوحشية التى لم أستطع تبريرها.. أفقدتنى الوعى..

شعرت بأيدى تمسك قدمى وتسحبنى إلى أسفل.. جلست بينهما لا أقوى على النطق فقط أسمع دسوقى يتساءل.. إيه الدبابة دى؟؟

ويستطرد التابعى معلقا.. أنا سمعت ناس بتصرخ..

رويت لهما ما شاهدته بعينى رأسى.. فراحوا يصبون لعناتهم على العالم..

عدنا أدراجنا إلى الصحراء الواسعة.. فالعدو أصبح هنا.. وفى كل مكان يمكن أن تسير عليه سيار أو دبابة..

مالت الشمس إلى المغيب.. وكنت مرهقا.. فخذى يؤلمانى بشدة.. ظمأنا.. جائعا.. ضائعا..

على الأفق القريب.. لاحت بعض رؤوس الأشجار.. جررنا أقدامنا إليها جراً وصلناها بعد حلول الظلام..

إرتميت على الأرض تعبا..

طلب الدسوقى أخذ التابعى معه.. للبحث عن شىء يؤكل.. تركانى وحيدا.. رحت فى نوم عميق..

****

كالسهام النارية اخترقت أشعة الشمس رؤوس الأشجار وسقطت على وجهى.. صحوت من نومى.. وأوشكت المناداة على الجندى المراسلة.. كأننى صحوت توا.. من حلم مفزع.. بمجرد فتح عيناى صفعتنيي الحقيقة.. فكل ما مر بى.. وما يمر بى الآن حقيقة..

استويت جالسا.. ألحت على فى وحدتى الكاملة صورة المجزرة الرهيبة.. وأطياف محمد وإبراهيم وحازم وشكرى أصبحت تلازمنى.. أنصاف أجساد تهيم حولى.. باسمه.. لا أدرى لماذا هى باسمه.. محمد بابتسامته الحلوة المشجعة.. وإبراهيم

وابتسامته الخجلى وحازم بابتسامته الصفراء ما بين أسنانه.. كلها ابتسامات..

نهضت أجر أقدامى.. أبحث عن شىء يؤكل.. أو ماء يشرب.. ولازالت أطيافهم حولى تناديني باسمه.. ثم ضاحكه.. ضحكات مرحة.. فرحة.. فى إيقاع واحد..

– .. على فين يا مختار.. شويه ونبقى كلنا مع بعض..

كالباحث عنهم.. أخذت أدور بين الأشجار..

على الجانب البعيد من الرقعة أبصرت شجيرة ممتدة على مسافة طويلة.. كالأفعى تتلوى على الأرض.. رحت أفحصها كانت ذات أوراق خماسية نجمية مدبب الأركان.. انتزعت إحدى الوريقات ووضعتها فى فمى ألوكها بين أسنانى.. فإنسال منها عصير لاذع.. اكتشفت فيه طعم العنب.. جثوت على أربع.. باحثا بين الوريقات عن أحد العناقيد..

واكتشفت عدة عناقيد برعمية ذات حبات خضراء لا تتجاوز الواحدة حجم حبه الحمص الصغيرة دسستها فى جيوبى.. وفى داخل سترتى.. مستمرا فى قطع أوراق العنب وأكلها بشراهه..

ورغم عصارتها الملحية.. أكلت منها كما كبيرا..

وعدت مرة أخرى إلى مكانى.. أملا.. أن يعود التابعى ودسوقى..

كانت وحدتى كاملة.. فى هذه الصحراء المترامية..

بدأت تنتابنى الهواجس.. ماذا لو هاجمنى ضبعا أو ذئبا.. وأنا فى حالة من الضعف شديدة.. تناولت البندقية..وانتزعت غطاء جيب سترتى.. وأخذت أمزقة بأسنانى ويداى.. فككت البندقية إلى أجزائها.. وأفرغت الرصاصات من الخزينة ورحت أنظفها بدقة.. قطعة.. قطعة.. وطلقة.. طلقة.. ثم أعدت تجميع البندقية.. واختبرت عملها.. ووضعت بها الخزينة مرة أخرى.. وجذبت الزراع لتكون جاهزة للإطلاق على الفور.. وحركت ذراع التأمين.. وسددت فوهتها بقطعة صغيرة من القماش..

أصبحت مرهف الحواس.. كل خلايا جسمى أصبحت عيون ترى وآذان تسمع..

وجلود تحس.. ورأس يدور ويتلفت حولى كهوائى الرادار.. فكل شىء حولى غير مطمئن.. يدعو إلى التطير والجذع.. مضى الوقت.. وما الوقت بالنسبة لى إلا ميل الشمس فى كبد السماء.. ما بين الوقت والآخر.. أتناول حفنة من حبات العنب.. ألوكها وأبتلع عصارتها الملحية..

يقطع الصمت المطبق صوت دفعات من طلقات الرشاشات أو البنادق الآلية.. ثم يعود الصمت.. ليطبق على الكون من حولى..

بدأت الشمس فى المغيب.. ولم يعد إلى لا الدسوقى.. ولا التابعى.. ولازلت قابعا فى مكانى منذ صباح اليوم لا أفعل شيئا.. فقط الظمأ يقتلنى ويبعث فى أعضائى الأعياء والخوار.. والجوع يلوى أمعائى ليا.. فلم تعد حبات العنب بكافية لإسكات هذا الشعور القاهر بالجوع..

التقطت أذنانى أصوات أقدام تقترب..

نهضت مختبئا وراء شجرة.. ممسكا ببندقيتى حركت ذراع التأمين.. وأصبحت جاهزة للإطلاق على أى شىء يتحرك..

أبصرت ثلاثة يلبسون الكاكى على شاكلتى.. ممزقى الثياب.. وقد نبتت لحاهم.. صحت بهم.. وكأننى أسمع صوت نفسى لأول مرة فى حياتى.. شاهرا البندقية فى وجوههم.... إنتم مين..

سويا.. رفعوا أيديهم إلى أعلى.. وتبادلوا نظرات وجله.. ردوا بصوت ضعيف.. إحنا ضباط مصريين..

أخفضت البندقية وأرجعت ذراع الأمان.. إلى مكانه.. لقد كان لحركة بندقيتى تأثير قاتل عليهم.. فقد علت وجوههم صفرة الموت فوق صفرة الإعياء.. وتبللت وجوههم بالعرق الغزير.. ما أن ألقيت بالسلاح جانبا.. حتى تهاووا ساقطين على الأرض فى نحيب مر..

استطعت التعرف على أكبرهم سنا.. هذا الوجه العجوز رأيته.. لكنه الآن أصبح عجوزا جدا.. وكهلا جدا.. بل إبيضت باقى شعيرات رأسه.. فلم يكن غير قائد الكتيبة

الذى تسلم منا موقع جرادة الحصين.. وقد غادرت شفتاه ابتسامته الدائمة..

والبساطة والتفكة.. لم يعد ذلك الرجل الذى ترك لدى انطباعا إنه فى حالة انفصام مع الواقع فلا يدرى ما يقول.. ذلك الإنسان الذى جاؤا به من فوق مكتبة بوزارة الزراعة.. وقالوا له:

– ..أذهب فأنت قائد كتيبة.. وهؤلاء جنودك.. فحارب!!

شعرت بالرثاء له.. أكثر مما أرثى لنفسى.. فأنا رغم كل شىء قد اخترت الجندية مهنة دربت عليها.. وعركتها.. هى مستقبلى.. وتكوينى.. وغير مطلوب منى شىء آخر غير إتقانها أما هو.. فقد فرضت عليه فرضا.. فجاة.. بعد انفصال استمر عشرة أعوام.. ولم يعد هناك وجه تشابه بين الجيش وقت خدمته..والجيش الآن.. لم يستدعيه أحد.. أو يدربه.. أو يعده لمثل هذا اليوم.. لذلك فقد بدأ عامل من عمال السخرة أكثر منه قائدا لكتيبة وضابط..

ما قام به الجيش بالنسبة لهذا الرجل وأمثاله هو أقرب إلى المصادرة.. مصادرة نفوس بشرية.. غير ملائمة.. للانتفاع بها فى شىء لا يجيدونه.. بدعوى لا يمكن رفضها.. الدفاع عن الوطن.. وتلك الدعوى التى أثبت الواقع أنها ليست أكثر من غيرها صدقا وشعارات أوصلتنا إلى هنا.. إلى ما نحن فيه الآن..

جلست قبالته.. وسألته.. إيه جاب سيادتك هنا يافندم؟؟

نظر إلى طويلا صامتا.. ثم اندفع متدفقا:

– ..أفندم إيه.. وزفت إيه.. أنا لا عاوز أبقى سيادتك.. ولا أفندم ولا حاجة.. أنا عاوز أروح لولادى.. لبيتى.. لمراتى.. ومكتبى..

كلماته كانت تحمل يقينا غريبا.. لا أدرى كيف جاء به.. فالتفكير فى بيتى وأمى وأبى وأختى.. هو أبعد ما يكون الآن عن دائرة المعقول.. أو المطروح..

فتساءلت... سيادتك كنت قريب من العريش ليه ما انضمتش للقوات اللى هناك.. فجأة.. انفجر ضاحكا.. ضحكات هيسترية مجنونة.. ومن خلال الضحكات استطرد..

– ..سيادتى؟؟ بقولك.. أنا لا عاوز أسمع.. سيادتك.. ولا يافندم.. ولا أى حاجة من

دى خالص.. واستمـر فى الضـحك.. حتى اغرورقت عينـاه بالـدموع.. دمـوع حقيقية.. بكاء.. ضاحك.. يحمل مأسـاة عرضها ما بين رفح والقاهـرة.. ثم أردف.. العريش.. ما سقطت هى كمان العريش..

كان زملاؤه الضباط الصغار.. يتابعون نقاشنا هذا.. واجمين..

كأنها صـاعقة انقضت على رأسى.. بـالإضـافة للصـواعق السـابقة.. لقـد سقطت العريش!!

ماذا بعد... راح السؤال يتردد فى رأسى.. وفى قلبى.. أكـاد أصرخ.. إن العدو يسابقنا ويسبقنا..ونحن جـوعى.. عطشى.. ضائعـون.. وتردد السـؤال مرة.. ومـرات.. ماذا أفعل..

إنشق صدرى عن صرخه متسائلة.. وحا نعمل إيه دلوقت..

ولم تكن هناك إجابة.. بل صمت.. وصمت مطبق يائس.. بائس..

أصبحنا كالحيوانات الأسيرة.. يجب أن نحطم قيود هذا الأسر وبأى شكل..

– ..يعنى حانقعد كده.. لازم نتصرف..

ظلوا جـالسين فى صمت كامل.. كأنهم لا يسمعـوننى.. فقط يحملقون.. فى.. وفجأة إنبرى الرائد العجوز قائلا.. وبمنتهى الجدية..

– .. بقى أسمع يا اسمك إيه..

– ..محمود.. مختار.. يافندم..

– ..شوف برضه بيقول أفندم؟؟ ما علينا.. شوف ياسى محمود.. بقى أنت بقى دى شغلتك.. وأنت برضه مهما كان حاتعرف نتصرف أحسن منا.. إحنا معاك.. اللى يمشى عليك.. يمشى علينا.. وليك علينا.. إحنا مـن إيدك دى.. لإيدك دى.. بس لازم تطلعنا من الورطة دى.. ماشى..

لم أفهم جيدا ما قاله الرائد العجوز.. فعدت أصيح..

– ..قاعدين ليه.. ما تقوموا نشوف لينا صرفه..

أخيرا سمعت صوت أحد الملازمين..

- ..جعانين.. وعطشانين.. بقالنا يومين من غير أكل وميه..

دسست يدى فى جيوبى وأفرغت عناقيد العنب.. تلقفتها أيديهم..

وقذفوها فورا إلى أفواههم.. وراحو يسحقون الحبات ويستحلبونها..

ذهبت معهم إلى حيث شجيرة العنب.. فملأ كل منا جيوبه.. وسترتة.. بالعناقيد والأوراق وهكذا اطمئن كل منهم أنه لن يهلك جوعا أو عطشا لمدة يوم آخر.. وعدنا أدراجنا إلى ظلال الأشجار..

أخرج الضابط الأصغر سنا علبة سجائر من بين طيات ملابسة.. وأخرج سيجارة.. وأنا أنظر لا أصدق عينى.. فمد يده بها إلى.. وتناول أخرى.. ودس العلبة فى ملابسة.. ثم تناول ثقابا من جيب سترته.. وأشعل لفافته.. ولفافتى.. كنت أدخن بشراهه ليدخل الدخان إلى أعماق رئتى.. ليدخل النيكوتين إلى دمائى وخلاياى.. فأشعر بالسكينة والهدوء.. تعالت دقات قلبى من شدة الانفعال.. عدة دقائق وشعرت بالأسى لانتهاء السيجارة... سرى شىء كالمخدر فى أوصالى.. ورغم ذلك.. هببت واقفا والبندقية على كتفى.. دعوتهم للنهوض.. للبحث عن صرفه..

اعترض ثلاثتهم على مغادرة هذا الظل الظليل.. ومبارحة شجيرة العنب الصغيرة فهى تقيم الأود.. على الأقل..

أصبح للشمس الحارقة آثارا على الأعماق فقد سرنا تحت لظاهان بغير هدف محدد.. والخوف من الموت جوعا.. أو ظمأ.. بطلقة نارية من مكان ما الححت عليهم للنهوض.. ذكرت الرائد العجوز بوعده.. أن يتركنى أتصرف.. فوافق على النهوض بشرط العودة مرة أخرى.. إذا ضاقت بنا السبل.. ووعدته..

وعدت زملاء الضياع.. واثقا بأننى لن أصدق الوعد.. حتى وإن أردت.. فلن أسير أبدا فى اتجاه الشرق.. بل الغرب.. والغرب دائما.. ولن يكون لنا هدف مطلقا.. غير قناة السويس.. على الأقل..

أصبحت السماء أرجوانية.. أوشك الليل على إسدال أستاره.. أمامنا مباشرة اتجاه الغرب.. حيث فى المدى اللامعقول.. قناة السويس.. هناك على بعد مائة وثمانون كيلو

مترا بمقياس الطـرق الأسفلتية.. وألف وثمانمائة كيلو متر بمقاييس رمـال الصحراء.. ولكن العريش قريبة.. فلندخلها تسللا.. ولتكن هى الهدف..

أخذنا نشد خطانا بجهد كبير عبر الرمـال الناعمة.. والتى تغوص فيها أقدامناً حتى مستوى الركبة.. لنخرجها من الرمال بصعوبة.. لندفعها مرة أخرى.. لخطوة جديدة.. كنا نشـد خطانا مطـرقين.. وكل منا يمد يده لـلأخر.. وكأنه يستعين بـه على مشوارة الطويل..

من بعيد جدا سمعنا كلاب تنبح.. ولم تظهر أشباح ساكنى العريش بعد..

هبط الظلام يلف كل شىء.. تخترقة أربعة أشباح.. لديها أمل فى الحياة.. أمل غامض ينبع من أعماق النفس كالقبس يشدها إلى الحياة.. بلا تفكير.. مجرد أمل يشع من غرائز إبقائنا أحياء.. ولم نعد نرى أصـابعنا.. إلا بصعوبة.. على ضوء النجوم البعيدة فى أعماق الكون اللانهائى الإتساع.. الضيق حولنـا.. لا يتعدى جلودنا.. وكان الهدف هذه المرة.. صوت الكلاب..

بعد سـاعات طويلـة.. وصلنا إلى حيث تنبح الكلاب.. فكـان أمامنا جـرف.. غائر فى باطـن الأرض.. وفى صحن الجرف برزت نتـوءات سوداء كـالقبور.. تـدحرجنـا إليها نهبط.. نتماسك وقد تصلبت سيقاننـا.. ونرتكز على مرافقنا حتى لا تنـزلق على الرمال الناعمة.. فنسحل أثناء الهبوط..

أمامنا عدة خيـام مهترئه.. خاصة بالبدو الرحل اللذين هجروهـا هربا من العمليات الحربية.. رفعت سلاحى وتقدمت إلى الخيـام والثلاثة ورائى نفتش وننبش.. ولم تكن هناك ثمة حياة.. فقط الكلاب.. التى فرت بعيدا..

التعب نال منا حتى هلكنا.. فسقطنا فى أخر خيمة متجاورين..

أضجعنا على ظهورنا نحملق فى الظلام.. نشاهد نجوم السماء خلال فتحات الخيش الممزق.. وفجأة جلس الضـابط الصغير صـائحا... أنا شامم.. ريحة بصل..

هببنا جالسين متسـائلين.. بصل؟؟

إبتدره الرائد مشككا حتى يطمئن نفسه.. متأكد يا عبدالمنعم... بصل؟؟

فى حين أخذ الثالث يتابع الحديث مرسلا من عيناه ومضات كالبرقيات.. لاشك كانت ترجمتها.. ياليت.. فأنا جوعان..

أخذ عبدالمنعم.. وقد اكتشفت اسمه منذ قليل.. يقسم أنه يشمها..

فقمنا نحن الأربعة.. نقلب الخيام رأسا على عقب وننبش الأرض..وأخيرا حصلنا على كيس مملؤ بالبصل العطن العفن.. وعدنا أدراجنا إلى مرقدنا الأول..

جلس الرائد العجوز يفرغ الكيس فى كومه صغيرة.. وأخذ كل منا واحدة يمضغها.. اقترح الضابط الرابع.. أن نشعل نيرانا نشوى البصل.. فنهرته منبها أن النيران ترى من مسافة كبيرة.. ويمكن للعدو اكتشافنا دون أن نراه ومن ثم يطلقون علينا النيران.. فاقتنع الزملاء.. إلا أنه أصبح لى ولعبدالمنعم..

بالمرصاد حتى لا نشعل سيجارة.. وما هى إلا ثلاث بصلات حتى إلتهبت حلوقنا وشعرنا بالشبع.. فقام الرائد يجمع باقى البصل ووضعه فى الكيس بعناية شديدة وحملة إلى جواره.. واستلقينا نائمين..

ما بين اليقظة والنوم.. صك أسماعنا.. صرير جنزير دبابة أو سيارة مدرعة.. صحونا معا مذعورين.. فرغم أننا نحيا حياة تافهة.. لا قيمة لها.. يتضاءل العمر فيها.. والموت صديق.. مرغوب.. لم نعد نخش وجوده.. لست أدرى لماذا ذعرنا كل هذا الذعر.. ولماذا تثلجت أطرافنا.. فتحنا عيوننا نحملق.. رأينا نورا لكشافان كهربائيان قويان لعربة مدرعة.. فوق حافة الجرف تماما.. ما أن ومض الكشافان حتى تبعها دفعات طويلة من مدافع رشاشة تصفر.. تقصف أغصان الخيام قصفا.. بدون إتفاق وضع كل منا كفة على فمة.. ليكتم صرخة إن اخترقت عظامة رصاصة.. حتى لا تكون الصرخة.. دعوى للسفاحين أننا هنا.. كأن كل منا يخاطب الأخر قائلا..

- ..لا تخف يا زميلى.. لو أصابونى إصابة مؤلمة.. فلن أصرخ.. حتى لا تموت فأرجوك إحذو حذوى.. إن أصابوك إصابة مؤلمة.. فلا تصرخ.. حتى لا أموت..

سيول الرصاص قريبة منا جدا.. تكاد تمس أنوفنا.. تحولنا فعلا إلى كتل صماء.. لا حركة فيها.. كلها ترقب غير واع.. وإحساس مطرد بالضعف..

لم أشعر بمغادرة العربة المدرعة للمكان.. فقد نمت نوما عميقا..

مع خيوط الفجر نهضنا.. ورحنا نعيد تفتيش الخيام.. تفتيشا دقيقا.. وخرجنا بحصيلة جيدة.. قطعة من العجوة.. وبيضتان.. وإناء به ماء عطن رسب فى قاعة بقايا إخراج دجاج.. وشربنا الماء العطن الحمض المذاق.. فقلب أمعاؤنا.. ولواها.. ليا.. تقاسم كل منا مع زميل بيضه يشرب نصفها.. وكان نصيب كل منا ثلاثة تمرات من البلح.. وبدئنا المسير على الفور.. اتجاه الغرب أيضا..

الشمس تكوى ظهورنا.. من جديد.. على الأفق لمحنا أجساد تتمايل آتية اتجاهنا.. فإنبطحنا أرضا.. نتطلع إليهم..

جاء جنديان متهالكان.. من جنودنا.. تنزف منهم الدماء بغزارة.. بمجرد مشاهدتهم لنا.. سقطوا على الأرض.. يصرخون..

رغم جروحهم البليغة إلا أنهم منذ لحظة كانوا يسيرون.. وبمجرد تواجدهم مع بنى أوطانهم سمحوا لمشاعرهم بالإنطلاق.. بل أهم مشاعر الإنسان على الإطلاق.. التعبير عن الألم.. ولم يكن فى قدراتنا ما نفعله لهم.. اللهم إلا سماع تأوهاتهم..

من خلال التأوهات والصرخات المتألمة.. استطعنا الإلمام بما حدث لهم..

كانوا مجموعة كبيرة من الجنود والضباط.. قرروا الدخول إلى العريش متسللين وقد لمحتهم إحدى دوريات العدو.. على حدود معسكرات العريش..فرفع كل منهم يداه عاليا مستسلما.. ردت عليهم الداورية بوابل من الرصاص.. حيث قتلوا جميعا.. إلا الجريحان.. فقد أصيبا إصابات شديدة.. ورغم النزيف.. فإنهم كروا عائدين إلى الصحراء.. على أمل النجاة!!!

لم يكن معنا شىء يمكن مساعدتهم به.. لا أربطة توقف النزيف.. حتى ملابسنا أقذر من أن تضمد جرح.. ولا ماء يطفىء ظمأهم.. ولا طعام يأكلونه.. لم يكن معنا إلا مشاعر باردة.. لم تعد تتأثر بمشاهده الموتى والمحتضرين.. لم يكن لدينا إلا آذان تسمع.. ورؤوسا لا تعى.. وبداخل كل منا رغبة عارمة فى الحياة.. التى لا تعرف كيف يمكن أن تستمر.. والآن.. قضى على آخر أمل لنا فى الحياة.

لمح الرائد العجوز راديو فى جيب أحدهم.. فمد يده جاذبا إياه.. وكأنه يجذب ورقة شجر من غصن جاف.. أعمل أصابعة فيه قائلا:

نشوف أخبار الدنيا.. يمكن يوقفوا إطلاق النار.. وينسحبو.. ونرجع بقى.. قبل ما نموت.. ولم نعلق.. جلست على الأرض مرتكزا على كفى أراقب وأستمع.. وآمل أن يحدث ذلك.. فكما دخلوا كالزوبعة فى ثلاثة أيام... كنت أحلم أن يتم انسحابهم فى يوم واحد..

وتأتى قواتنا هنا سريعا.. تغسل معاناتنا.. وأذهب إلى حيث مات زملائى لأدفنهم كما يجب أن يدفن الأموات.. فى باطن الأرض..

صك أسماعنا الصوت المتشنج.. الذى فقدنا الثقة فيه.. فما ردده لنا من أكاذيب كانت منذ عدة أيام فقط تسكب نيران الحماسة فى دمائنا.. قد فضحة الواقع المؤلم الذى يحيط بنا من كل اتجاه.. قائلا إننا نكبد العدو خسائر فادحة ثقيلة فى الأرواح!! والمعدات.. وأن قواتنا تقاتل بضراوة على خط الدفاع الثانى بسيناء...

لم أكن ضابطا كبيرا.. أو مخططا عسكريا خطيرا.. لكننى ضابط صغير خدمت فى سيناء عام ونصف العام فقط.. وجبتها شرقا وغربا.. شمالا وجنوبا.. لم أكن قد سمعت قبلا أن لنا موقع دفاع أول.. اللهم إلا عدة مواقع دفاعية فى أم قطف والقسيمة وجرادة.. وما شابه ذلك.. دفاعات هى كالجزر فى صحراء مترامية جرداء.. أما خط الدفاع الثانى فهو كاذبا.. مضلل.. رحت أصب لعناتى على هذا المذيع ومن أمره بالإذاعة.. ومن يسمعه.. راجيا من الله أن يقذف به قذفا إلينا..لنسكب فى شدقية حفنات من الرمال اللافحة..

أدار المؤشر إلى محطة أخرى.. فتدفق الصوت العربى ذى اللكنة الشامية يردد نداء تتبعه موسيقى عسكرية صاخبة يقول....

أيها الجنود المصريون البواسل.. لقد انتهت المعركة بالنسبة إليكم الآن.. إبتعدوا عن الأسلحة الثقيلة.. وإلقوا أسلحتكم الخفيفة.. إن لدى جنودنا أوامر بعدم إطلاق النار على كل من ألقى سلاحه.. إلقوا سلاحكم.. تحقنوا دمائكم.. ثم تعود الموسيقى

العسكرية مرة أخرى.. ليكرر النداء..

كان الصوت هادئا.. عميقا.. محايدا.. لم يكن ما يذيعه نداء إنسانى.. إنما كان دعوة إلى تحلل جيش.. دعوى إلى رحلة مجهولة.. أبسطها الموت.. وأقل منهـا بساطة الأسر.. وهدفها انهيار أمة..

كان يخدعنـا.. فأمامنا المثل المحتضر لكـذبة علينـا.. فها هم رفعوا أيـديهم عزلا من السلاح.. وأطلق جنودهم النيران من داخل دباباتهم يحصدونهم.. دون منطق أو مبرر كلهم كاذبون.. بل كلنـا كاذبون.. مخادعون.. منافقون.. كل يكـذب على الآخر وينافقه وفى النهاية يخدعه.. وقت الشدة والاحتياج نتخلى عن بعضنا البعض الآخر..

من أرسلونا.. قالوا لنا سوف تنتصرون وقد أعددنا لكل شىء عدته.. وكانوا كاذبين فلم يعدوا لأى شىء أى عـدة.. وتركونا نلقى حتفنـا بالقنابل والرصـاص.. من عدو لا نراه.. عـدوا محصنا دائما داخل دبـابة أو عربـة مدرعـة أو طائرة.. ونحن مكشـوفوا الصدور أو تقتلنا الطبيعة ظمئا وجوعا.. وانهيارا.. ونحن خدعنا جنودنا.. ببريق النصر السريع.. وتركناهم يموتون أمـام أعيننا ولم نجديهم شيئا وهم فى لحظات الاحتضار.. كلهم قاتيلنا.. قادتنـا بهذا الإهمال والضعف الفاضح.. والهزر فى مواقع الجد والقتال.. قاتلينا بـإطلاق النار على العزل من السلاح.. كلهـم ملطخ الأيدى بدمائنـا.. فليذهبون جميعا إلى الجحيم ونحن قبلهم نسبقهم بخطوات.. فحياتنا تافهة..

إنهار زملاء الطريق إلى جوارى.. والشمس فوق رؤوسنا تصيبنا بالدوار.. وكل منا يفكر.. ماذا بعد.. ولم يكن صعبا لاكتشف موتالجنديان المصابان..

راح الرائد العجوز يصرخ.... وبعدين... حانعمل إيه.. حانروح فين..

تركنا جثث الجنود وقفلنا نهيم على وجوهنا..منجذبون كالفراشات إلى مجموعة من الشجيرات لمحناها على بعـد.. هنا.. وهناك.. كان السراب يخدعنا.. ويستنزف مـا لدينا من قوى وهى قليلة.. اعترضتنا تبة عاليـة.. ووقف الجمع ينظر إلى.. أمسكت بالبندق أنـزع من فم مسورتها قطعـة القماش لأكون مستعـدا للإطـلاق.. وأخذت فى الـز صاعـدا.. لم أرى خلفها شيئـا.. فقط.. صحراء مترامية.. وهناك ظل حقيقـى لبـ

شجيرات.. وسيارة لورى.. تقف كالشبح.. لوحت لزملائى بالصعود.. فوصلوا إلى جوارى.. الرائد العجوز فى حالة من الإرهاق شديدة.. حيث تقطعت منه الأنفاس..وصدره يعلو ويهبط محدثا صفيرا كمنفاخ الحداد..

عدنا نتدحرج هابطين متوجسين.. شاهرا بندقيتى.. مستعدا للإطلاق إن ظهر إلى جوارها إنسان مهما كان.. واقتربنا من اللورى.. الذى كان مكدسا بالصناديق.. وقد فتح غطاء المحرك وبابا كبينة القيادة.. لم يكن ثمة أثر لإنسان..

جلس الرائد العجوز فى ظل إحدى العجلات الخلفية.. بينما تحامل ثلاثتنا قافزين إلى الصندوق لنرى محتوياته.. دهشت حينما وجدت أن كافة الصناديق ما هى إلا صناديق سجائر.. والثقاب تلك التى كانت مخصصة للترفية عن الجنود ولم تصل إليهم أبدا.. ولم يكن هناك شىء يؤكل.. أو يشرب.. فقط.. سجائر..

حملت أربعة خراطيش من السجائر وصندوقا للثقاب.. وحذى عبدالمنعم حذوى.. وهبطنا.. فجأة صاح الرائد العجوز.. عطشان.. حاموت م العطش.. هاتو لى ميه أشرب!!!

تركناه ومضينا فى اتجاه الشجيرات.. راح يقذفنا بقبضات الرمال منتحبا قائلا.. حاتسيبونى تأكلنى الغربان.. استنونى.. استنونى.

أصبح على شفا الجنون.. إلى أين نذهب ونتركك أيها القائد الهمام؟؟

نهض فجأة وسار إلى مقدمة اللورى.. وإنبطح أرضا يعالج شيئا أسفل اللورى.. صائحا.. ميه.. فيه هنا ميه..

ورغم كل ما مر بى.. فلم تزل بقايا لعقل يفكر.. يفكر لدرء الموت ظمأ على الأقل.. ولم تكن وصلنا بعد حتى منتصف طريق الموت ظمأ.. كان شرب ماء الردياتير هو أقصر طريق للموت.. ليس موتا كموت طلقات الرصاص والشظايا.. ولكنه موتا بالسم.. الذى يمزق الأحشاء تمزيقا.. مع آلاما رهيبة.. لمدة طويلة..

درت على عقبى أعدو وزميلاى فى أعقابى.. نجذبه من قدميه ونبعد فمة المستميت على صنبور الردياتير يرتشف منه رشفات الموت.. قاومنا مقاومة عنيفة.. بدفعات

متتالية قوية من قدمية.. ويرى الماء يتدفق مهدرا على الأرض..كاد يجن تماما.. حتى فرغ الماء.. فتركناه... يصب فوق رأسى سيل من السباب بعد قليل هدأ... جلس كما كان فى ظل إطار السيارة كالمنتظر.. ثم بدأ يتلوى من الألم.. واضعا يده على بطنه.. يمنعها من الانفجار.. قاذفا بالقىء الأصفر إلى صدره..

رحنا نعدو هنا وهناك.. ننظر إلى الأفق البعيد ثم إلى السماء ونعود للرجل مرة أخرى.. عدوت إلى الأشجار الصغيرة.. أقلب أوراقها باحثا عن لا شىء يمكنه تخفيف آلام الرجل فكره أن يموت أحدنا أمام أعيننا بطلق نارى.. أمر وارد.. أما أن يموت أمامنا هكذا مسموما.. كانت فكرة مروعة.. وكأن الموت مستحيلا دون نزف دماء..

وهدأ جسد الرجل وصمت الأنين.. وكأننى أمام ميت.. ميت فعلا.. كالأموات فى الدنيا كلها.

عدت إليه مترددا أفحصه.. فكان أصفر الوجه شاحبا تماما.. تجمعت على جبهته قطرات من العرق كبيرة.. باردة.. وصدرة يعلو.. ويهبط كالنائم..

جلس ثلاثتنا حول النائم صامتين.. مالت الشمس اتجاه الغرب.. تبادلنا كلمات متناثرة لا معنى لها.. الصمت هو السيد الذى ينقل الحوار بين عيون شارده.. والسن جافة.. وأمعاء خاوية.. مضى علينا يومان.. نحيا معا.. نكافح من أجل أن يمتد بنا العمر دقائق أخرى.. لم يفكر أحدنا أن يسأل الآخر عن شىء.. فكل منا بالنسبة للآخر.. كالجزيئى.. يحاول التجمع مع جزيئات أخرى.. لصنع جسم متماسك متعاون.. لم يكن لأى منا اسم.. أو هوية..

كان عبدالمنعم أصغرنا سنا.. وأكثرنا ابتساما.. رغم ظروفنا المستحيلة.. يذكرنى بإحساس المشاهد الذى عشته طويلا.. وأعيشه كل يوم ساعات.. ما بين اليقظة والحلم أما عبدالمنعم فقد كان هذا الإحساس يحتوية.. فيتصرف ويسلك سلوكا غير منتمى إلى المأساة.. التى تدور داخلها..

تخرج من الكلية الحربية قبل اشتعال الحرب بأربعة أيام.. وصل إلى وحدته مساء يوم الحرب.. لم يكن قد أسند إليه عملا.. وجد نفسه فجأة يقصف بالقنابل والناس من

حولـه يتساقطـون.. لم يكن يعلم لماذا..أو ماذا عليـه أن يفعل.. بل لا يـدرى أصلا لماذا قذف به إلى هنا.. وبالتالى فلم يسأل نفسه ماذا بعد..

أما ثالثنا كان فيصل.. تخرج من عدة شهـور مضت.. يبدو ذو حياة مرفهة.. بأكثر مهما تحتمله حيـاة الضباط.. يـدل خاتم فى يـده اليمنى أنه مـرتبط بخطوبـة إحداهن بالقاهـرة الإحساس بالضياع المصحـوب بالدهشة مع الرفض الكـامل لما نحن فيه من تشرد.. يعتصره ويحتويه معا.

مح شعوره الطاغى بالضعف منفردا.. يدفعه إلى السير ورائنا غير مشارك.. فأصبح لنا كالظل..

انفجر فيصل فى نحيب طويل فجأة.. عينان عسليتان ذات أهـداب طويلة.. مرتعشة وفم مـزمـوم.. يخرج من خـلال الأسنــان صـوت بكـاء كـالأزيـز.. دارت عينـاه فى محجريهما.. لتستقر على النائم المحتضر.. صرخ ناظرا إلى الأفق اللانهائى..

- ..إيه اللى جابنا هنا؟؟... بنعمل إيه دلـوقت؟؟.. وحانعمل إيه فى المصيبة دى؟؟.. حا نفضل قـاعدين لما نمـوت وتاكلنا الغـربان؟؟.. مش حـاأرجع مصر تانى؟؟.. مـش حا أشوف أمى.. وخطيبتى؟؟..

قطع نحيب فيصل كلمات عبـدالمنعم اللامنتميـة- آه.. فكـرتنى بأمى.. يامـا نفسى دلوقت فى أكله بط من أيديها.. وكباية ميه ساقعة.. وأنام فى حضنها..

توجـه إليه فيصل بكل الغضب... إنـت دلوقت فى البط.. ولـلا فى المصيبة دى.. مش كفاية اللى إحنا فيه.. ده وقت تهريج..

استطرد عبدالمنعم فى بساطـة.. أموت أحلم بحاجة باحبها..أحسن مـاموت متنكد يا أخى؟؟.. هلع فيصل صائحا:

-..نمـوت.. لأ.. مش ممكن أموت.. دى أمى مـا لهاش حد غيرى..وكمان أختى أنـا راجل البيت.. لو مت حايتبهدلـو.. الناس حاتاكلهم.. كمان أسيب خطيبتى لمين؟؟؟.. رد عبدالمنعم باسما:

- ... خلاص يـاسيدى.. ماتـزعلش.. نموت إحنـا.. وأنت خليك عايش.. حقك على..

كان هذا الحديث ومن كلا طرفيه تحديدا يدور فى أعماق نفسى.. أكافح ضد هذه النفس كى لا أسترسل فى أحلام اليقظة.. كم كنت أتمنى أن يكون حلما.. مجرد حلم.. بأمى.. وصدرها الحنون.. حتى ذلك الحلم.. كان بعيدا.. بعيدا..

عم الدنيا سكون وظلام.. وتحرك الرائد العجوز.. بهجت بيه.. من رقدته الطويلة.. الجوع يكوينا.. والظمأ يفتك بنا.. والتعب نال منا كل منال.. ولكن ماذا نفعل.. غير أن نزحف متوارين بين أغصان الشجيرات.. تساندنا.. وجررنا أرجلنا.. وتحت الشجيرات.. ألقينا أجسادنا.. فقد مر يوما.. من أيام لا تحسب من العمر..

مع خيوط الفجر.. صحونا.. جلسنا أنا وعبدالمنعم ندخن.. والرائد بهجت وفيصل يرقبوننا.. لمعت عينا بهجت فجأة.. وصاح:

– ..بس.. خلاص.. أنا حاأسقيكم ميه..

هتفنا معا... ميه..

– ..أيوه..

– .. إزاى..

– ..نروح على ورق الشجر..عليه نقط ميه.. من النتح.. نمصها ورقه.. ورقه.. وقد كانت فكرة عبقرية تماما..

لم نترك ورقة واحدة دون أن نمسح بها شفاهنا.. وألسنتنا.. وللعجب.. بدأ النشاط يدب فى أوصالنا.. وبدأنا البحث عن أى شىء يؤكل.. فعثرنا على كنز من البطيخ.. جلسنا أمام محصولنا من بطيخ الصحراء.. كومه تجاوزت الخمسة عشرة حبة.. ما كدنا نمد أيدينا حتى نهرنا بهجت بيه قائلا:

– ..الأكل مش مشكلة.. نقدر نعيش من غير أكل أسبوعين.. لكن الميه هى اللى حاتجيب أجلنا.. نخلى البطيخ ده.. لما الحر يشد علينا..

اعترض فيصل قائلا.. يعنى ماناكلش؟؟..

قاطعته حاسما... إخرس..

وعدت أجلس صامتا أدخن.. لكذنى عبدالمنعم مشيرا إلى نقطة تتحرك قائلا:

– ... بص..

كانت هناك حرباء كبيرة جدا.. فى حجم التمساح الصغير.. ذات قوائم أمامية طويلة.. ورأس كالديناصور المنقرض.. تناولت بندقيتى.. وحركت ذراع الأمان.. وأطلقت النار..

هجم فيصل على البندقية يجذبها من يدى صائحا:

– ..دلوقت حايسمعونا.. وحاييجوا علينا.. يقتلونا..

جذبه بهجت بيه وعبدالمنعم بعيدا.. يحاولون تهدأته.. النار أطلقت.. ويحدث ما يحدث.. أمنت البندقية ووضعتها جانبا.. ونهضت لأرى الغنيمة.. ممدده على الأرض وقد تناثرت رأسها أشلاء.. رفعتها وعدت بها.... وألقيتها بين زملائى ممددة كالقتيل.

– ..أسلخها.. صاح عبدالمنعم.. مددت يدى إليه بالسونكى..

دب النشاط واقترح فيصل أن نشويها.. بشرط.. مغادرة المكان فور شيها.. فوافقنا على الفور..

هببنا نحن الأربعة نبحث عن بعض الشجيرات الجافة.. وعدنا ومعنا كومة كبيرة.. قمنا بعمل حفرة فى الأرض.. وضعنا بها العشب الجاف.. لازال عبدالمنعم يكافح لعزل جلد الحرباء عن لحمها..

أخرجت أحد الرصاصات من خزينة البندقية.. ونزعت المقذوف.. ثم سكبت البارود على الأعواد الجافة.. وأشعلت عود ثقاب ألقيته عليها.. فارتفعت ألسنه اللهب.. وألقينا فيها اللحم الحيوانى.. بدأت رائحة الشواء تصك أنوفنا.. ولازال فيصل قلقا.. يردد دون ملل.. يالله.. يالله نمشى.. قبل ما تيجى دبابة.. ولا يبعتولنا طيارة.. ترمى علينا قنابل.. وسرعان ما هدأت النيران.. فأخرجنا الغنيمة.. وضعناها على الرمال.. ومزقناها بالسونكى إلى أربع قطع.. لازالت تقطر دما.. حملنا اللحم والبطيخ فى طيات ملابسنا.. وأسرعنا الخطى اتجاه الغرب.. على الأفق البعيد بدأت ماذن العريش فى الظهور.. جلسنا إلى جوار عدة كوديات من الحشائش.. نتدارس الوضع.. وكان من المستحيل محاولة اختراق المدينة التى يقطع شوارعها مدرعات العدو الإسرائيلى.. الذى يطلق النار على

الجنود العزل.. مرفوعى الأيدى..

لم يكن هناك بدا من الدوران حول العريش.. اتجاه الصحراء.. هناك جنوب المطار.. لتصبح الصحراء أمامنا واسعة.. حتى قناة السويس.. ولقد علمتنا التجربة.. إنه يمكننا الحياة رغم كل شيء.. فى أتون العدم..

لم يكن لدى الرفاق حل بديل.. فحولنا اتجاهنا إلى الجنوب.. حتى بدأ الليل يرخى سدوله.. لاح على الأفق البعيد ضوء منتظم.. يلوح ويخبو.. وكلما لاح انطلقت دفعات متصلة من مدفع رشاش.. كانت إحدى دوريات العدو وكمائنة المكلفة بإطلاق النار على كل ما يتحرك.. رحت أحصى على أصابعى فترة الضوء التى يطلقون فيها النيران.. ومده الظلام الآمنة.. أحاطتنا.. روائح نتنه متحلله تقلب الأمعاء..

همست بأن نعدو بمجرد الإظلام.. فإذا ما ألقيت بنفس على الأرض.. عليهم الإنبطاح مثلى.. ومن يصاب منا.. علينا تركه.. والتحرك بدونه.. حتى نعبر الجهة الأخرى لخط سير هذا الكمين أو الداورية..القاتلة..

نهضنا نركض كالقطط البرية.. المدافعة عن حياتها.. قذفنا بأنفسنا إلى الأرض فى الوقت الملائم تماما.. اصطدمت يدى برأس بشرية.. نظرت.. كنت إلى جوار جثة قد انتفخت ثم انفجرت.. فإرتعدت.. وشعرت بأمعائى كلها تقذف إلى الخارج..

كنت فى لحظة الإعياء فيها ترفا.. لا أستطيع التمتع به..

فبمجرد حلول الإظلام.. نهضت وورائى الزملاء.. نركض مرة أخرى.. وهكذا.. حتى أصبحت الأنوار تجيء من خلقنا... فبدئنا الركض مائلين إلى اتجاه اليمين.. إلى الغرب.. على هدى النجوم صديقة الجنود الأزلية..

اختفينا وراء إحدى التباب التى حجبت عنا أنوار الكشافات بشكل كامل..

بدى لنا شريط الاسفلت اللامع قريبا.. قربا مفاجئا.. ذلك الطريق الذى يربط مدينة العريش.. بمنطقة الحسنة فى وسط سيناء.. فأخذنا نركض فى اتجاه الطريق.. وما أن اقتربنا.. حتى فوجئنا بطابور طويل من السيارات قادمة من العريش فى اتجاهه الحسنة،، فانبطحنا متجاورين كقطع الحجارة..

وبدأت كشافات السيارات فى المروق أمام رؤوسنا كالبرق.. ومرت دقائق ثقيلة حتى عاد الهدوء والظلام مـرة أخرى إلى الطريق.. وفى خطوات واسعة قليلـة عبرنا الطريق.. وأصبحنا وجهاً لـوجه أمام الصحراء المترامية.. الواسعة.. والتى لا يمـر بها أية طرق حتى قناة السويس..

****

منذ يوم القبض على شعبان.. جثم على صـدر الأسطى مختار وجل.. وتطير.. وبات أهل الـدار فى انتظار شرمـا.. يحيق بهم شر ما من اتجاه مجهـول.. فأصبحت الوجـوه تتلاقى فى ابتسامة مرسومة.. غادرتها الدعة.. وسكنها القلق.. كابتسامات التعزية.

لم يكن فى رأس مختار وعليه وتحية إلا مشكلة شعبان وأسرته وسجنـه الذى طال والسؤال الحذر.. لماذا ذجوا به إلى السجن؟؟..

الكل حائر.. لم يكن لشعبان أى أفكار خاصة.. عن أى شىء.. خارج أسرته.. وعمله.. صحيح أنـه يهوى تدخين الشيشـة فى القهوة ولعب الطـاولـة مع الأصدقـاء.. لم يكن مواظباً على الصلاة.. ولم يتدخل يوماً فيما لا يعنيه..

لقد أرهبـه ضابط المخابرات.. شككـه فى معرفة أخيه.. بل أصبح يشك حقـاً إن كان مذنبـاً يستحق السجن.. رغم السبب الذى قيل له.. لم يقنعه أبـداً.. ولكن لابد أنهم على حق.. وإلا فكيف لإنســان الزج بآخـر بريئـاً إلى السجن؟؟.. أن يحرم أسرة من عائلهـا ويحيطها بأيام سوداء..

إن لم يكن بريئاً.. فلماذا سجنوه.. ويهددونه فى ابنه محمود؟؟..

ابنـه.. ذلك الأمل الحلو.. الـذى عاش مختـار من أجله يـرعاه.. كـالنبت الصغير فى صحراء حياته القاحلة.. حتى أصبح رجلاً يملأ السمع والبصر.. ويرى فيه أمله الذى لم يستطع تحقيقه.. كان التلويح بإيذائه.. وإضاعة مستقبله.. أكبر من قدرته على التحمل.. فنسى شعبان.. أو تناساه.. نزولاً على نصيحة ضابط المخابرات..

رغم ذلك.. فإنـه يعيش لحظات الترقب والانتظـار لشر ما.. يـراه يحوم على رأسه.. يرسل ظلالاً كئيبة من الصمت على جدران المنزل..

بمرور الايـام.. أصبح يرى كل عين تنظر إليـه خنجراً يغوص فى وجدانـه.. نظرات الحب تخفى خلفها تشفياً مما ينتظره من تعاسـة.. تحولت الدنيا من حوله.. إلى عيون.. أضبحت الأيام سلسلة طويلة متصلـة من الترقب والانتظار.. حتى النوم تقطعه أحلام فزعـة.. لتتصل بواقع كله تحفز وتـرقب.. وانتظار.. انهزام بلا معركـة.. وسقوط على الركبتين.. بغير قضية..

أما يوم بدأ شبح الحرب ظاهراً.. فقد تحول الواقع ليقترب أكثر من القلوب والعقول والمنطق بدى كل شىء متماشياً مع حالة الحرب التى توشك البلد خوض غمارها..

عاش حالـة ترقب الحرب.. كشىء سر مدى عظيم يهز وجدانـه.. وتسكب الحماسة سكباً فى شرايينه.. لا يـدرى ماهى الحرب.. إلا أنه يحس البشر حولـه يشتعلون.. مسه الاشتعال من الداخل كأن النـاس قد أصابتهم الحمى فراحـو يصرخون.. مع صرخات الإذاعة والصحافة والتليفزيون.. مع انفعـال الأناشيد الحماسية.. فوجد نفسه يصرخ معهم.. عليه أيضـاً راحت تصرخ فرحـة.. وتبتسم مرددة إن الانتصـار سيريح هؤلاء الناس جميعاً.. تحول إيمانهم بالنصر إلى يقين.. إنها حـرب صغيرة.. أيام قليلة.. يرجع إليهم محمود يحمل إكليل الغار مزهواً بالنصر السريع..

بات يحلم بابنه محمود نائماً ويقظاً..

جسوراً.. يحمل على كتفيـه نجومـه.. وبيده بندقيـة يقتحم العدو مكشراً عن أنيـابه كالأسد الهصور.. أبـازيد الهلالى سلامة.. رجع حياً فى صورة ابنـه.. لوحته الشمس.. وتهدلت على جبينه خصلة شعر.. مبللة بالعرق.. يركض وراؤه جنوده شاهرى السلاح شجعانـاً.. تتساقـط حولهم القنابـل.. ولا يهابون.. يشقون طـريقهم عبر ألسنـة النار والدخان.. لايصـابون.. بل يمطرون عـدوهم رصاصاً من بنادقهم.. فيستسلمون لابنه خاشعين..

يعود إليه.. وقد تدلت من عنقه أربطة الشـاش ترفع ذراعه المصابة إصابة صغيرة.. كالـوسـام.. لن يحزن مختـار.. بل سيكون فـرحاً.. فخـوراً بجرح ابنـه.. سيأخذه بين أحضـانه.. ويجلسه فى سريره.. ويجلسون إلى جواره.. يحكى لهم ويقص.. ماقام به من

عمل مجيد..

اللوريات الضخمة.. التى تجر ورائها المدافع الجبارة.. تخرق شوارع المدينة.. وقد تسمر فوقها الجنود الأشداء.. على رؤوسهم خوذات الصلب تلمع.. والناس تنشق حناجرهم حماسة.. هاتفة بالنصر القريب.. كان مختار يتطلع إليهم فرحاً.. وكأنه يصيح قائلاً:

.. إن لى ابناً اسمه محمود.. ضابطاً صغيراً.. إنه الآن فى سيناء كى يحارب مثلكم تماماً..

وسقط شعبان نهائياً.. من دائرة وعى الأسرة.. حاول مختار الربط مابين القبض على شعبان.. وحالة الحرب التى تلف البلاد لفاً.. فلا شك إن هذا القبض ماهو إلا إجراء لمساندة الجيش فى حربه الظافرة.. مساندة لمحمود.. ومحمد.. وإبراهيم.. وحازم.. وآلاف الضباط والجنود الذين لايعرفهم.. فلا بأس أن يكون شعبان أحد الضحايا.. لتحكم الدولة قبضتها على الأمور.. لتحقق النصر.. ذات صباح.. أعلن الراديو.. أن الحرب قد استعل أوارها..

هاهى الحرب أخيراً قد وقعت لم تشعر أسرة مختار بالوجل.. كان إيمانهم بسهولة الأمر.. بسرعة الانتصار أكبر من أى توجس.. هتف مختار بزوجته قائلاً:

-.. تعرفى يا عليه.. ياما نفسى أرجع صغير تانى.. علشان أروح الجيش وأحارب مع الأولاد..

جاوبته عليه ضاحكة:

-.. وليه يابو محمود؟؟.. ما كفاية عليهم ابننا محمود.. راجل ولا كل الرجالة.. أهو بيحارب بدالنا كلنا.. واستطردت قائلة:

-.. والله ما أنا عارفة إحنا عاملين الظيطة دى كلها ليه؟؟.. هو العدو ده ياخد فى إيد رجالتنا غلوة؟؟..

الحديث المتفائل.. والشعور بالسلاسة.. هو السيد.. فلم تكن الحرب لديها إلا بطولة أبو زيد الهلالى.. والزير سالم.. وعنترة بن شداد.. كر.. وفر.. وقرقعة سلاح.. تنتهى

سريعاً بالانتصار.. على عدو مذعور سلفاً.. خائفاً مسبقاً.. لا يملك إلا العويل.. امام ثقة الزعيم..

الجميع وكأنهم يعيشون فى غيبوبة طويلة.. لمخدر قوى المفعول..

مرت الأيام .. وبدأت شائعات هنـا.. وهناك.. تتردد.. الأصوات المتشنجة فى الإذاعة والتليفزيون.. بدأت تتحول.. تتخبط..

أبداً.. لا يمكـن أن يهزم محمود.. لا يمكن أن ينسحب أبـداً.. هل يمكن بعد هجـومه الجسور ووراثه الجنود وفرار العدو خـوفاً هلعاً.. يهزم.. كيف؟؟.. فجاة بدأت تختلط الأحلام بالحقائق فى رأس الرجل..

لم تعد تحية تضحك.. لم تعد عليه باسمة.. وجـوماً عاما.. وجزعاً مقيما.. وتوجساً مستمـراً.. حتي صـوت المذيـاع الذى كـان يهز وجـدانهم منـذ أيـام.. أصبح يبعث فى نفوسهم القشعريرة والترقب..

بدأت عليه تقضى أيامها ولياليها فى الشباك تنتظر الغائب..

أصبحت تحية لا ترى من طيات صفحات كتبها إلا صورة أخيها يبتسم..

يدلـف مختار إلى المنـزل على أطراف أصابعـه.. فى هدوء.. والقلـق يعتصره ينظر فى عينى زوجته وابنته بلا كلام.. يسأل هل عاد محمود؟؟

الانتظار.. فقط.. الانتظـار.. والوقـوف فى الشباك.. ربما تقع عيـونهم على خطوات محمود..

وعلى الرصيـف المقابل لمنـزلهم كانت سيـارة حسن بك.. بداخلهـا النسوة الثـلاثة يتضاحكن فى نشوة وسعادة.. بعد العـودة السالمة من رحلة الهروب إلى الفيوم.. في كل ساعـة تتدفق أخبـار من الأهل والأصدقاء.. عن عـودة أحد الغـائبين فى سيناء لازالت الأسرة تنتظر.. ولم يصل الغائب.. وطال الانتظار..

****

غابت الشمس وأشرقت مـرات كثيرة.. ولازلنا أحيـاء.. فقط نسير.. ولا نتوقف عن السير.. إلا أذا سقطنـا نيام.. عـرفنـا الطريق إلى امتصـاص النـدى من فوق أى نبـات

أخضر.. فى تلك الصحراء اللانهائية.. مع ساعات الفجر الأولى..

لم تكن هناك ثمة علامات تدل على وجود مياه قريبة.. أو حتى احتمال وجود مياه فى ذلك الليل الطويل.. وتلك الرمال الممتدة.. ولم يكن هناك حساباً للوقت أو حساباً للمسافات.. فقط.. الاتجاه غرباً..

لم يفكر أحد منا أو يتساءل.. إلى أين؟؟.. كنا كالفراشات المنجذبة بحكم الغريزة إلى الضوء.. وكان ضوئنا هو اتجاه الغرب.. قناة السويس.. كان حلماً أن نصل إليها.. فالمنطق يقول مؤيداً للواقع.. بأننا أصبحنا أكثر ضعفاً وتهالكاً.. وبأننا نزداد ضعفاً وتهالكاً كل يوم.. بل كل ساعة.. ولن نتحمل الجوع والظما أكثر مما تحملنا فقد تشققت الشفاه والجباه.. والوجنات والأنوف.. ولن تتحمل خلايانا الصبر على فقد المياه بأكثر مافقدت فعلاً..

ورغم ذلك كنا نسير.. متقاربين.. صامتين.. وقد فقدت عضلاتنا الإحساس بالتعب.. هذا الإحساس الإنسانى البناء.. الذى يدفع الإنسان إلى الراحة والاسترخاء.. والنوم العميق لتتجدد قواه.. ويصحو نشطاً ذى ذهن صاف.. يمكنه التفكير والإبداع.. هذا الإحساس لم يكن ينتابنا.. ليس عن قوة.. ولكن اليأ.. يدافع الإصرار على استمرار التنفس وضربات القلب..

بدأت الشمس فى إلقاء لظاها على أجسادنا المرهقة..

أصبحت الأرض أكثر حرارة.. وأقل تماسكاً.. أصبح جهد نقل أرجلنا لخطوة واحدة عملية شاقة.. نبذل فيها جهداً فوق قدرة الاحتمال.. فأصبحت أكثر تمهلاً وأقل انتظاماً.. تتأرجح ذت اليمين.. وذات اليسار.. نسير متشابكى الأيادى كالسكارى بلا خمر.. سكريين.. بما فيه من ترنح.. وخيالات.. وأحلام يقظة..

تثاقلت خطانا.. أكثر.. وأكثر.. وكأننا لا نتحرك.. بل الأرض هى التى تتحرك وتدور.. والصحراء حولنا صامتة.. صامتة كصمت القبور.. فى كل اتجاه ألف فم يطلبنا كي يحتوينا.. أصبحت حلوقنا لزجة.. لم تكن حلوقاً جافة.. فقد مضت فترة الجفاف منذ ساعات طويلة لزوجة كالغراء.. تلصق اللسان فى سقف الحلق.. وتحول القصبة

الهوائية إلى مجرد ماسورة يتحرك خلالها الهواء ساخناً ملتهباً.. وفقدنا القدرة تماماً على النطق تراخت أيدينا.. وضاعت البندقية.. ورحنا نجر أرجلنا جراً.. وأصبحت حملاً ثقيلاً.. نحمله أكثر مما يحملنا.. تمنيت أن أقتل.. برصاصة تأتى من حيث لا أدرى..
سقط فيصل.. انهار منكفئاً على وجهه.. وساقاه منثنيتان تحت جسده.. حرك رأسه.. وجحظت عينان شاخصتان فى تضرع.. يحاول يائساً فتح فمه.. كى يتكلم فى رسالة تقول لنا فى رجاء..

-.. يا أصدقائى لا أريد أن أموت.. فقد نجوت من براثن الموت حتى الآن.. ولا أعرف كيف.. إننى لن أستطيع السير.. فقد خارت قواى.. لا تتركونى وحيداً.. حتى لا تأكلنى الغربان.. إن لى أماً وأختاً لا أحد يرعاهما فى هذا العالم سواى.. وكنت سأتزوج خطيبتى.. فلا تدعونى أزف.. إلى الموت..

ثم أغمض عيناه، ليموت فى هدوء وبدون ألم.. فى غيبة الموت ظما.. تركناه.. فكيف يمكن أن ننتظر.. كل ثانية فى هذا القيظ.. تقصف سنوات من العمر.. وتقربنا بخطى واسعة.. لملاقاة مصيره..

مالت الشمس اتجاه الغرب فى مواجهتنا..

لاحت على الأفق النباتات الشيطانية.. انبثق فى نفوسنا أمل جديد.. على أول كرة ألقى الرائد بهجت برأسه أسفل الوريقات الحارة.. ليستظل ظلاً لا يتجاوز أم رأسه..

حذونا حذوه نحن أيضاً.. ورحت فى غيبوبة أشبه بالنوم.. أو نوماً أشبه بالغيبوبة وحينما عدت من رحلة النوم.. كان الجو بارداً.. والظلام يلف كل شىء.. والقمر هناك يلقى بأشعته الفضية على الصحراء.. فيعطيها لوناً كبريق الذهب..

عبد المنعم جالساً يدخن.. جلست أنا الآخر.. وأشعلت سيجارة أدخنها.. وكان علينا مواصلة السير..

نهضت متثاقلاً.. ونهض عبد المنعم.. وتوجهنا إلى الرائد بهجت..

كانت عيناه جاحظة..أن نفس نظرة فيصل المطحونة.. الراجية.. ولم يكن ممكناً أن نتركه ونمضى.. فلابد أن هناك خطأ ما.. فلا يمكن أن يكون ملك الموت متربصاً بنا

يحصدنا واحداً يلي الآخر ظمأ..

بدأ بهجت يرفع يداً مرتعشة إلى أزرار بنطلونه..

قمت بحل الأزرار.. كي أخفف عنه ضغط ملابسه.. فأشار إلى الـزمزمية الفارغة إلى جانبي.. فـانتزعتها من نطاقي وفتحتهـا أقلبها كي يرى أنها فارغة تمامـاً.. ثبت نظرة رجاء ضارعة إلى الغطاء في يدي.. فمددته إليه..

تناول الغطـاء الصغير.. وحاول محاولات مستميتة التبـول فيه.. ولم يكن لـديه إلا قطرات ذات رائحـة نفاذة.. في لـون العسل الأسود.. رفعها إلى فمـه ودفعها إلى جـوفه وكرر المحاولة مرات..

دبت الحياة في الجسد المسجى.. فنهض متهالكاً..

وكررت أنـا وعبد المنعم تجربته.. وكان للبـول طعم لاذع رهيب.. لكن تلك القطرات الثمينة أعطتنا قدرة على مواصلة المسير عـدة كيلو مترات أخرى.. في جوف الليل شديد البرودة..

مع أول خيوط الفجـر.. كأن الأرض انشقت فجأة عن مجموعـة من النخيل القزمي الصغير.. فبدأنا في العدو كالظباء القوية..

كانت الأرض بين النخيـلات.. رطبة منداه.. فأخذنـا في الحفر بأيدينا.. نـرفع رمالاً هشة.. لم نتجاوز الربع متر عمقاً.. حتى امتلأت الحفـرة بالماء المخلوط بالرمل.. مددت يدي أملـؤها فرحـاً وأرتشف.. وكان المذاق مراً كالصبر مخلـوطاً بصودا كـاوية.. غير محتمل.. بل زاد إحساسنا بالظمأ.. وتقلصت أفواهنا..

هببت أفحص النخيلات.. لم يكن هناك شيء من التمر..

أمسكت بـالسـونكي أضرب أصل فـرع من أفـرع الزعف ضربـات متتـاليـة حتى فصلتـه.. قمت بنزع الـوريقات الإبـرية منـه.. فحصلت على فرع من الجريـد الأخضر اليانع.. وضعت طرفها في فمي أعضها بقوة.. ماصاً عصارتها وكأنها عوداً من القصب وتبادل زميلاي السونكي يحذون حذوي..

امتلأت بطوننـا الخاوية بعصارة الجريد.. ذات الطعم اللذيـذ والماء الوفير.. جددت

خلايانا ودبت فى أوصالنا الحياة .

الشمس تضرب الصحراء بقسوة.. أغرتنا بالركون إلى [illegible]
الظليلة.. بدأ الاهتمام يعلو وجه الرائد بهجت.. وهو ينظر إلى [illegible]
لأول مرة..

ثم قال.. النهاردة إحنا وقعنا على كنز.. عندنا أكل يكفينا [illegible] سنة..
قاطعناه معاً.. إلحقنا بيه..

-.. جوة النخلة فيه حاجة اسمها اللحاء.. اللحاء ده [illegible]
القصب.. كله غذا هايل.. ومية..

-.. يعنى مش بيتاكل..

-.. طبعاً.. وممكن نطلع منه كميات زى ما إحنا عاوزين [illegible]

-.. نطلعه إزاى ده..

-.. من قلب النخلة..

وقع اختيارنا على أطول النخيلات وأكثرها استواء.. وتحلقنا [illegible]
بالسونكى.. كل منا يضرب عدة ضربات [illegible]
نجحنا فى عزل وتمزيق جدار الليف الخارجى وظهرت أمامنا [illegible]
بهجت أنها اللحاء.. وأمسك بالسونكى ودفعه دفعة قوية إلى قلب [illegible]
إلى الخارج ومعه مخروط [illegible] أبيض [illegible]
منا قطعة.. ظللنا طوال النهار لا عمل لنا إلا الحصول على [illegible]
بطوننا تماماً..

لأول مرة منذ قيام هذه الحرب الملعونة [illegible]
جيوبنا باللحاء.. وحمل كل [illegible] وبدأنا السير فى اتجاه [illegible]
مرت.. وهاجمنا الظمأ [illegible] الإنسانية [illegible]
كالطمع. فما أن امتلأت [illegible] والحاء [illegible]
القراح؟؟..

لف العـالم ظلام.. ولازالت فى الأبـدان قـوة دافعة.. تـدفعنا للمسير الطـويل المصر إصراراً لا هوادة فيـه.. فى صمت لا يقطعه إلا مضغ اللحـاء.. وزفرات أنفـاس السجائر المشتعلة دائماً بين أصابعى.. وأصابع عبد المنعم..

قبل بزوغ الفجر ترامت إلى أسماعنا أصوات بشرية متداخلة.. غيرواضحة النبرات.. شددنا الخطى اتجاهها.. دون حذر فقد أصبح لا شيء يهم..

أصبحنا فجأة وسط مجموعة هائلة مـن الجنود والضباط.. آتية من أطراف سيناء الأربعة.. فسألنا ما الخبر.. قيل لنا.. إن هناك بئر مياه!!..

توجهت إلى البئر ركضـاً.. كان هناك حبلاً طـويلاً مربوط فى نهايته صفيحـة فارغة صدأة.. أدليتها إلى البئر حتى أحسست بثقلها فأخذت فى رفعها ببطء..

صفيحة كاملة من الماء العذب البارد.. رفعتها بين ذراعى إلى فمى فتدفق الماء مباشرة إلى أمعـائى ووجهى ومـلابسى.. فأصبحت شرايين كالمضخـات.. تسحب الماء سحبـاً وحينما هممت بخفضها مرة أخـرى.. ضغطت أمعائى ضغطاً قوياً.. فقـذفت بالماء مرة أخرى إلى الخارج فى قيء واحـد متصل.. حتى فرغت تمامـاً.. ورغم تمزق أحشائى إلا أننى أدليت الصفيحة مرة أخرى.. لأعب الماء عباً.. وأعـود مرة أخرى فأتقيأ ماشربت.. حتى خارت قواى.. وتداعيت إلى جوار البئر نائماً..

حينما فتحت عينـاى.. كانت الشمس تتـوسط السماء.. تلقى بلواظهـا الحارقة على جسدى المسجى.. وحيداً وسط الصـحراء.. فلم يكن حـولى ثمة إنسان.. حتى عبد المنعم وبهجت غـادرونى.. كانت الصفيحـة قابعة إلى جـوارى.. والحبل ملقى إلى جـوارها.. فأحسست بـالظمأ الشـديـد.. نهضت متثـاقلاً.. وأدليـت الصفيحة.. إلى قـاع البئـر.. وجـذبتها مـرة أخرى خلعت زمـزميتى من نطـاقى أنظفها وأغسلهـا من آثار البـول.. مـلأتها.. وبللت غطائهـا ووضعتها فى نطـاقى مـرة أخرى.. ثم شربت حتى ارتـويت.. وسكبت باقى الصفيحة على رأسى أرطبها..

جلست أفكـر.. لماذا أنا وحيـد هكذا وسط الصحـراء.. لماذا تـركنى زميلا الطـريق عبدالمنعم وبهجت.. ولم يكن الرد عسيرا.. فقد تصوروا أننى أحتضر.. فتركونى ومضوا

فلا وقت لأحد للنواح أو للمراسم الجنائزية..

وكان وجود الزمزمية مليئة بالماء فى نطاقى يدرء عنى الخوف من الموت ظمأ لمدة يومين على الأقل فى هذا المناخ اللافح.. القاتل.. نهضت أشد خطاى اتجاه الغرب.. وجودى وحيدا فى هذا الإتساع والرتابة والتشابه اللانهائى يملؤنى إحساسا بالضآله.. والوحشة الشديدة.. لا أراديا ورغم غوص أقدامى فى الرمال مع كل خطوة أعدو عدوا أقرب إلى الهرولة..

كل عدة ساعات أرفع الزمزمية إلى شفتى أبللهما بقطرات الماء الثمينة.. وعندما كادت الشمس تميل إلى المغيب.. كان يلوح على الأفق مجموعات كبيرة من الجنود والضباط أكثر كثيرا جدا مما كان موجودا إلى جوار البئر ليلة الأمس.. والجميع مشدودون إلى اتجاه الغرب شدا..

وصلت إلى مجموعات الزملاء.. ولم تكن تلك النظرات الشاردة اللامركزة هى السائدة.. بل تحولت إلى نظرات أكثر تحديدا وتركيزا.. يشع منها الأمل.. دسست نفسى وسط مجموعة تتهامس فى جد واهتمام وتساءلت ما الخبر؟؟..

تطوع أحدهم بشرح سر هذا التحول فقال هناك من يقول إن محافظ سيناء موجود فى مكان ما قريب من هنا.. ومعه عدد كبير جدا من البدو وسكان بئر العبد وأن هناك ما يشبه السوق به طعام وشراب.. كما يزعمون.. أنه سوف يساعدنا فى الهروب من سيناء عن طريق البحر إلى بورسعيد..

ووجدتنى أسير ضمن مجموعة لا أعرفها.. ولا يعرفوننى.. ولا يعرف بعضهم البعض الآخر.. هذا التجمع بطبيعته كالتجمع البللورى الجزئى.. لطرد الوحشة والهواجس..

مع آخر خيوط النهار.. لاحت على الأفق خيام.. خيام كثيرة منخفضة الارتفاع مهترئه يبدو أن الشق الأول من الشائعة كان صحيحا.. فدب فى الأمل.. أن يصدق أيضا الشق الثانى..

وجدت نفسى داخل سوق كبيرة ومجتمع إنسانى يعيش وسط الهلاك..

مع صوت نقنقه الدجاج وصياح الديكة تذكرت أننى مازلت حيا.. رغم كل تلك المعاناة مازالت حيا.. وتدفق فى قلبى الأمل.. أن أعود إلى أهلى.. وبدت لى صورة أمى حية مجسدة ترنو إلى بعيون مملوءة بالحب والحنان.. أكاد ألمسها بيدى.. أحسست كأن عضلات وجهى تتحرك.. وكأنى أبتسم..

الجنود والضباط فى كل مكان حولى.. مضجعون.. يأكلون..أو يشربون..يدخنون أو ينامون نوما عميقا ملء الجفون..

شعرت بالجوع.. ليس ما تعودت عليه من جوع خلال الأسابيع الماضية.. والذى يمكن إسكاته بعصارة الجريد.. أو حبيبات العنب البرى.. بل.. جوعا حقيقيا جشعا يطلب الطعام الحقيقى..

توجهت إلى إحدى الخيام.. إلى جوارها أحد البدو المعمّمين.. فى حين جلست على الأرض.. امرأة حبلى أسدلت على وجهها خمارا أسود.. لم يظهر فيها إلا عينان سوداوتان جميلتان.. وعلى قرب منها طفلة صغيرة تلهو.. كانت أسرة وحياة فى هذا الخضم القاتل من الموت والتهديد بالموت..

تقدمت إلى الرجل قائلا فى رجاء.. جعان.. عاوز أكل..

رمانى الرجل بنظره عطوفه قائلا.. عسكرى وللا ضابط؟؟..

ألقيت على نفسى نظره.. سريعة.. كنت أرتدى أثمالا حقيقية.. ظهرت خلالها سيقانى وأفخاذى..وذراعى وصدرى.. وملابس الداخلية سوداء كالحة ممزقة.. ملأنى شعورا قاهرا بالخجل.. وكان عجبا أن أخجل.. فالموتى لا يخجلون..

كنت على حافة الحياة.. ورددت باستيحاء.. ضابط!..

ربت الرجل كتفى فى حنان وصدق وأردف.. الحمدلله على السلامة.. شدة وتزول ياحضرة الضابط.. صمت قليلا وأردف.. يا ترى معاك فلوس؟؟..

منذ بدأت المأساة لم يكن للمال معنى.. أو ضرورة.. فلو كان معى أموال قارون لم تكن تجدينى نفعا.. أو تمنع عنى الموت جوعا.. أو ظمأ.. أو برصاصة.. فلم أسأل هل معى نقودا أم لا..

تحسست جيوبى.. ثم رفعت يـدى إلى صدرى.. إلى جيب سترتى الصغير.. الـوحيد الذى لم أنـزعه.. كـان مغلقا بـواسطة زر كبير..ولشـدة دهشتى كان منتفخـا.. فتحته و دسست أطراف أصابعي وأخـرجتها تمسك بأوراق مالية.. تذكـرت فجأة أنه مرتبى كاملا.. قـدمت يدى إلى الرجل بالأوراق الماليـة يختار من بينها ما يشـاء..قلبها فى يدى وجذب ورقة مالية واحدة من فئة الجنيه..

لا أدرى كيف لم أكتشف وجـود تلك الأوراق مسبقـا؟؟.. فقطعـا كنـت لكتهـا بين أسنانى فهى شىء قد يؤكل.. على أى حال..

اعتذر الرجل قائلا.. أقعد هنا شـوية لغاية لما أروح اشترى أكل.. أصل هنا فيه تجار من بئر العبد لوما باعوش حاتنخرب بيوتهم..

جلست إلى جوار الخيمة حيث كان الرجل..وشـىء كالنوم يداعب جفونى.. وشىء كالقلق.. يدفعنى كى أنهض وأسير فى اتجاه الغرب!!..

عاد البدوى بعد قليل ومعه فطيرة حقيقية.. مصنوعة من السمن والسكر والدقيق.. وعدة بيضات.. وشاى وسكر.. وسجائر.. وثقاب.. مادا إلى يده بباقى الجنيه!!

تركت يده معلقة.. هاجما على الفطيرة بكلتا يدى أقضم منها قضمات كبيرة..

كان ذلك أول طعام حقيقى يدخل أمعائى منـذ عدة أسابيع.. وبالتالى لم أكن أتناول طعاما كما يتناول البشر طعاما.. بل كنت ألتهمه إلتهاما.. دون مضغ..

فى لحظات انتهيت من معركـة الطعام.. وتركت أمامى ورقة بها آثـار السمن وكومة من قشر البيض.. وكان الرجل يعد لنا كوبان من الشاى البدوى الثقيل..

بدأت أميل على جـانبى مضجعا مستنـدا على راحه يـدى اليسرى.. ألقى الرجل على نظرة سريعة وقـام يتبادل مع زوجته عبارات أمره.. فنهضت حاملـه طفلتها وخرجت من الخيمة ودارت حولها لتجلس بعيدا متوارية عن الأنظار..

مد إلى الرجل يدا بها كـوبا من الشاى.. تناولته شاكـرا.. وجلس القرفصاء قبالتى.. أعطيته سيجارة ورحنـا ندخن مع رشفات طويلـة من الشاى.. سرى فى جسدى شىء كالتيار الكهربائى.. تبعه شىء كـالخدر.. وثقلت جفونى.. وشىء كالألم بدأ إلى مراكز

الإحساس بالمخ ينبانى بأن ساقـاى تؤلمانى.. همس الرجل فى أذنى أن أدخل إلى خيمته كى أستريح..

لم أستو على قدمى.. بل زحفت إلى داخل الخيمة.. وعلى سجادة باليه.. رحت فى نوم عميق..

مدة لا يمكن حسابها.. أحسسـت بيد تهزنى برفق.. فتحت عيناى.. فجـائنى صوتا هامسـا.. مش حاتقوم تمشى ياحضرة الضـابط.. علشان تروح بورسعيـد؟؟.. قفزت أحداث الأمس كلها إلى رأسى دفعـة واحدة.. ها هى الشائعة الثـانية سوف تتحقق هى الأخرى.. قفـزت واقفا.. لكننى تداعيت مرة أخـرى.. فقد كانت هناك الامـا مبرحة.. فى سـاقاى.. وفخـذاى.. وأسفل ظهـرى.. ولم تستطع.. تلك السـاقان العجيبتـان.. التى حملتنى فى رحلة طويلة.. مرهقة.. أن تحملنى مستريحا؟؟!..

تضرعت إلى الرجل قائلا.. مش قادر أقف.. مش قادر.. أنـا مصاب... مد الرجل يداه تحت إبطى محاولا معاونتى على الوقوف قائلا:

– .. منصاب إيه.. أنت إمبارح كنت كويس..

فحاولت التماسك.. مستويا واقفا.. أجر قدمى كطفل يحبو.. فكانت الصـحراء خارج الخيمة تموج بالحركة وإن لم تكن هناك أى أضواء تنبعث على الإطلاق..

همس الرجل فى أذنى.. لو تعبان.. أروح أشوف ركوبه..

رجوته أن يحاول.. فإننى لن أستطيع المسير خطوة واحدة..

بدأ ركب كبير فى المسير اتجاه الشمال.. اتجاه البحر.. بينما ظللت واقفـا أنتظر.. عاد الـرجل ومعه آخـر الـذى إبتدرنى قـائلا.. كل الجمال اللى عنـدنا إتأجـرت.. مفيش إلا حمار.. إيه رأيك..

– .. موافق.. إنشاء الله أشترية.. أنا مش قادر أمشـى ولا خطوة..

– ..عشرين جنيه..

كاد صديقى البدوى يمسك بتلابيبه.. لاعنا إياه.. متهمة بالإفتراء والاستغلال.. وإنه رجل لا يراعى الله.. فـالمشوار كله «دعكة فخذ».. إلا أن الرجل أصر على مـوقفه قائلا..

الحمار يمكن يموت.. لو اليهود طلعوا عليهم وضربوا النار..

ناولت الرجل عشرون جنيها دسها فى جيبه.. ومضى.. وبعد قليل عاد ومعه حمار أعجف.. وعصا صغيرة.. وحملنى الرجلين حملا ووضعانى مستويا على ظهر الحمار.. وكانت المرة الأولى فى حياتى التى أركب فيها حمار.. وسرعان ما اكتشفت أن قيادته أصعب من قيادة طائرة.. والتعامل معه أشد تعقيدا من التعامل مع الشيطان ذاته..

وتحركت ضمن الركب الكبير الصامت.. الضارع..

اخترق إذنى صوتا كنت أعرفه.. فهتفت بفرح حقيقى.. دسوقى.. إرتجف جسد ضخم فى الظلام.. ثم هرول ناحيتى صائحا من الأعماق:

- ..حضرة الضابط محمود.. حمدلله على السلامة..

ولم تكن هناك كلمات تقال..لم يكن هناك معنى لأى سؤال.. فكل شىء واضح.. ونحن فى بؤرة المأساة صور مكررة.. فى حجم المعاناة.. والسير على خيط الحياة الرفيع..

- ..رجليك أخبارها إيه دلوقت يافندم؟؟..

- ..لغاية إمبارح كنت ماشى مش حاسس بيهم.. كنت ماشى على طول.. ولما استرحت.. وأكلت ونمت.. مش قادر أحركهم.. علشان كدة أجرت الحمار ده..

أمسك الدسوقى بمقود الحمار.. بينما جسدى متصلبا متخشبا فوق ظهره الجامد.. ومع كل حركة منه يمينا ويسارا.. أبذل جهدا جبارا.. حتى لا أسقط من فوق ظهره..

لم يترك حمارى كومه من الحشائش إلا ويخفض رأسه كى يأكل منها.. ولم تكن تجدى معه ضربات دسوقى المتتابعة بالعصا.. فلا يتحرك قيد أنمله إلا بعد تحقيق رغبته كاملة.. ورغم أننا بدأنا السير فى أول الركب.. فإننا وبعدقليل أصبحنا فى المؤخرة تماما..

حاول الدسوقى مداهنة الحمار وملاينته بالرتب على عنقة.. كى يقوده.. إلا أنه فشل فشلا ذريعا..

بعد عدة كيلو مترات رأينا مجموعة من الحمير ترجع من حيث أتينا دون راكبيها.. وما أن وقع بصر حمارنا عليهم حتى تسمر فى مكانه.. رافضا السير خطوة..

حاول الدسوقى دفعة بكل قوته إلى الأمام.. أو جذبه من المقود.. فكان يحرك جسمة فى اتجاه مضاد لدفعات الدسوقى.. ليثبت لنا عمليا أنه لن يتحرك..

وجه الدسوقى إلى رأس الحمار لكمة قوية معلنا:

.. ابن الكلب ده معلمينه يمشى لغاية هنا بس.. ويرجع تانى لوحدة.. مافيش فايدة مش حايتحرك.. ولو قتلناه..

كان حمارا منضبطا ملتزما.. وفيا لأوامر صاحبه.. دون رقابة منه..ترجلت من فوق ظهره.. وما أن تخلص منى.. حتى دار على عقيبية يجرى مبرطعا كالجواد..

جررت ساقى وفجأة أصبحنا فوق الطريق المرصوف.. ولم يكن غير الطريق الوحيد الموجود فى شمال سيناء العريش- القنطرة..

بلا إتفاق تمثل فى رأسينا خطر السير على الطريق.. ركضنا.. ركضا سريعا.. حتى طوتنا رمال الصحراء.. ولم نتوقف عن الركض إلا بعد سماعنا هدير البحر..

سرنا متماسكى الأيدى حتى وصلنا إلى الشاطىء.. فجلسنا متساندى الظهور.. نقطع ملل الانتظار وقلقه بالتدخين المستمر..

مع خيوط الفجر الأولى لمحنا زورقا أتيا من بعيد يشق سكون الماء.. نهضت الأجساد المتضجعة على حافة المياه متحفزة.. للقفز إلى البحر.. وللوصول أولا إلى الزورق وما أن بدأت محركات الزورق فى الخفوت أخذا فى الدوران البطىء للرسو.. حتى كانت الأجساد تغوص فى ماء البحر.. نتسابق للتعلق بحوافه.. وكنت والدسوقى من السباقين وما هى إلا لحظات حتى كان الدسوقى منبطحا على ظهر الزورق.. ومد يده إلى أمسكها.. وأكافح بدورى للاستواء إلى جانبه.. ثوان معدوده.. وكان الزورق مكتظا بالراكبين.. وراحت حركاته تهدر مبتعدا عن الشاطىء.. ومئات من الزملاء يلوحون غاضبين..

وهناك من لايزال معلقا متشبثا بحافة الزورق.. فخف البحارة إليهم يجذبون أيديهم يساعدونهم على الصعود إلى السطح.. وتبرم أحدهم محتجا قائلا:

- ..إحنا هنا علشان ننقلكم جزيرة البردويل.. كل اللى هنا حايروح بورسعيد.. بس بالشكل ده.. اللنش حا يغرق..

كان يتكلم بمنطق العقل السليم..لكنها كلمات ليس لها أية معنى بالنسبة لمن ظفر بركوب الزورق..أو من هناك على الشاطىء يلوحون بقبضاتهم غاضبين.. فلا شىء يعنينا الآن إلا الانتقال من جحيم الصحراء.. إلى أى مكان آخر.. حتى ولو كان أعماق البحر..

بدت لنا على الأفق عدة أكواخ مستوية على شريط أصفر من الأرض..

اقترب الزورق من الشاطىء.. ثم دار فى دورة هادئة.. وتوقف فقفزنا مرة أخرى إلى الشاطىء وصاح أحد البحارة مشيرا إلى الأكواخ..

– ..بعد شوية حاتيجى مراكب صيد تنقلكم على بورسعيد..

شددنا الخطى اتجاه الأكواخ..

عند أحد الأكواخ الكبيرة.. كان هناك طابورا طويلا من زملائنا يقف.. فتساءلنا عن ذلك الطابور.. فقيل لنا أنهم يوزعون طعاما..

مرة أخرى شعرت بجوع الأمس.. تراجعت حيث وقفتُ فى ذيل الطابور وورائى الدسوقى.. وانضم خلفنا آخرين.. أصبح الطابور أكثر طولا.. وبدأ فى الحركة الزاحفة الحثيثة إلى الأمام.. حتى حل دورى.. فمد لى أحدهم يدا بها رغيف وقطعة من الجبن وخيارة خضراء يانعه..

جلسنا فى ظل مركب صيد صغيرة نتناول الطعام.. كانت كمية.. لا تكفى لإسكات أنين معدة متمردة.. تبادلت مع الدسوقى نظرة.. قد تكون باسمه.. ونهضنا نقف مرة أخرى فى ذيل الطابور.. وبعد مدة طويلة.. حان دورى.. ومد الرجل يده بالرغيف والجبن والخيارة ناظرا إلى وجهى.. ثم أعادها مرة أخرى زاجرا إياى قائلا:

–..إنت لسه واخذ من شوية.. يا أخى غور وخلى عندكم دم!!..

شعورا قاسيا بالمرارة والمهانة.. ودرت خارجا من الصف.. أتصبب عرقا.. وكلمات الرجل تلاحقنى كالخناجر.. وسرعان ما كرر نفس الألفاظ مرّة أخرى إلى الدسوقى..

سرنا بعيدا عن الكوخ والمجموعة الكبيرة من الزملاء.. وانتحينا ركنا جانبيا بين المراكب الصغيرة والأكواخ المتهالكة.. وبين المراكب كان هناك أحد الزوارق الآلية الجديدة تماما.. وقد قبع فوقه اثنان من البحارة ذوى ملابس نظيفة يعدون العدة

لتناول الطعام..

ما أن اقتربنـا منـهم حتى إكفهرت وجوهـهـم.. عابسين.. ألقينا عليهم التحيـة.. فرد علينا أحدهم عابسا قائلا:

– ..لو سمحتم إبعدوا من هنا.. لما تيجى المراكب إبقوا تعالوا تانى..

– ..طيب يا أخى رد السلام..

– ..أرد السلام.. تقومـوا تيجوا تقعدوا.. وبعدين تاكلوا أكلنـا زى المساريع وإحنا مانلاقيش أكل.. وورانا شغل..

رد الدسوقى محتجـا.. إحنا واكلين والحمدلله.... وحضره الضـابط بيدورعلى حتة ظل يقعد فيها.. أصلة ياريس منصاب..

بدأ البحارة يتطلعون إلى شيء على كتفى كالح باهت لا لون له ولا معالم.. كالنجوم.. الخيطية التى توضع على الأفرولات.. ظهر الاهتمام على وجوههم قائلين معا:

– ..منصاب.. أقعد!.. أقعد ياحضرة الضابط استريح..

مـد كل واحد منهم يـده إلى والـدسوقى لـركـوب زورقهم الظليل.. ورحنا نتبـادل التعارف.. وكـانوا بحـارة من بورسعيد خـلال لهجتهم المعروفـة المرحة الصـادقة.. وأصروا إصرارا كـامـلا.. أن نشاركهم طعـامهم.. المكـون من السمك المملح.. والخبـز والبصل الأخضر.. تناولت عـدة لقيمات.. فشعرت بـالعطش فسألتهم على استحياء إن كان معهم قليلا من الماء..

رفع أحدهم قطعة من القماش لاح تحتها قلة.. مدها إلى قائلا:

– ..أشرب.. أشرب ياحضرة الضابط.. دى ميه النيل..

تبادلت مع الدسوقى نظرة طويلة صامتـه.. إنسابت على أثرها دموعنا.. لقد عرفت الدمـوع طريقها إلى عيـوننا أخيرا بعد أسـابيع من جفاف ينابيع الإحسـاس والتأثر.. والحزن.. والألم.. رفعت القلة إلى فمى أشرب من ماء النيل.. فسرى فى وجدانى إحساس متزايد بالقرب من الأهل والأصدقاء.. فكلنا الآن نشرب من نبع واحد.. من ماء النيل..

على أفق البحر الأزرق.. لاحت أشرع مراكب بيضاء كالأمواج..

هتف أحد البحارة مشيرا إليها قائلا:

- ..دى المراكب اللى حاتوصلكم بورسعيد.. بعد ساعتين زمن بإذن الله تـوصلوا الميناء..

فى حين بدأ الآخر يرفع يداه مشيرا إلى جموع الجنود يدعوهم إليه للركوب.. قائلا:

- ..يا لله يا رجاله.. عشرة.. عشرة..

وسرعان ما بدأ الجنود يركضون إلينا.. وقف البحاران مواجهين الجنود فى حسم قائلين:

- ..القارب بيشيل عشرة.. الزحمة.. حاتغرقة.. عاوز ثمانية بس.. يـالله.. أصبح هناك شعورا عاما.. بالأمان النسبى.. جعل الجنود يطيعون صوت المنطق.. حيث تقبلوا قفز اقرب ثمانية منهم إلى القارب.. وتراجع الباقون..

هدر محرك الزورق السريع..وتحرك بعيدا عن الشـاطىء صوب عرض البحر حيث .مركب الصيد الكبيرة ذات الشراع تقف (كالـرخ) الأسطورى لخطف مئـات البشر من براثن الموت.. امتدت سواعد سمراء من فوق سطح المركب تساعدنا على الصعود..

قفزنـا إلى المركب.. أجلسونى والـدسوقى فوق سطح كـابينة القيـادة.. استند على الحبال القوية.. التى تشد الشراع..

أصبحت المركب كالأرجوحة.. صاعدة هـابطة.. متمايله.. مع موجات البحر.. فتملك الدوار جميع الراكبين الجدد.. وأصبح صوت القيء المستمر المنبعث من هنا وهناك هو الصوت الأكثر انتشارا على سطح المركب..

ورغم شعورى بالأمـان.. الذى يفرض نفسه على فـرضا.. إلا أن القلق قد تحول فى أعماقى إلى ما يشبه المرض.. كيف ياترى تركنـا اليهود نتكدس بالمئات.. ونعبر الطريق ونجتمع مرة أخرى فى جزيرة البردويـل.. ثم فى عرض البحر دون أن يحاولوا قتلنا؟؟.. هل نجحنـا فى خداعهم؟؟.. كيف.. لابـد أنهم رأونا.. فلم يـاترى تـركونـا نفلت من بين أصابعهم..هنا..وهنا بالذات.. ولم يفعلـوها فى العريش.. حيث كانوا يقتلون من يحاول الفرار.. وكأنهم يدفعوننا دفعا إلى رحلة الصحراء القاسية!!.. ثم بعد ذلك يسمحون لنا بالهروب الفزع!!!..

كان الزورق جم النشاط.. سريعا امتلأت المركب بالبشر.. فرفع بحارتها مرساتها.. وبدأت تشق سطح الماء بسرعة كبيرة..

الإحساس قاهر بالترقب والانتظار.. انتظار أن نصل إلى الوطن؟؟.. بورسعيد.. وانتظار أن تأتى إلينا طائرة ترسلنا إلى أعماق البحر..

عينى أصبحت آله لتقدير المسافة فى كل وقت ما بين الشاطىء والمركب.. لاطمئن نفسى هل يمكننى السباحة حتى الشاطىء.. ومعاوده المسير.. غربا.. إذا ما ضربت المركب...

لكن سرعان ما احتوى عرض البحر المركب كلها.. واختفى الشاطىء تماما.. تعالت أصوات من أرجاء المركب هادره فرحه...

– ..طيور البحر أهى.. وصلنا بورسعيد.. وصلنا بورسعيد.. أرسلت بصرى إلى الأفق الغربى.. كانت هناك أسرابا لامعه.. فضية ازددت إنكماشا.. كنت أراها طائرات جائت ترسلنا إلى أعماق البحر.. لكزنى الدسوقى فرحا قائلا:

– ..بورسعيد يافندم.. بورسعيد.. إحنا وصلنا..

نظرت مرة أخرى.. لأرى مآذن المساجد.. وأسطح المبانى..

مع كل لحظة اقتراب من الميناء.. أحس بأن هناك تحولا.. يحدث فى نفسى.. يقترب بى رويدا رويدا إلى صورة الإنسان..

رست المركب على الرصيف.. وهناك.. عشرات ينتظروننا.. نساء فى ملابس بيضاء وضعن على أذرعتهن شرائط بيضاء يتوسطهما هلالا أحمر.. وبضعه ضباط يلبسون الأفرولات.. النظيفة.. المنشاه..

أود أن أقذف بنفسى إلى مياه القناة.. أو أجثو على ركبتى أقبل تراب الأرض.. التى لم أكن أحلم بأننى سوف أراها مرة أخرى..

لكن إحساسا بلا إنتماء إلى الواقع عاد يتملكنى.. فلا يمكن حقيقة أن يكون ذلك الشريط المفزع الذى يدور فى رأسى قد قمت به أنا فى الأيام السابقة.. ممثلا فعليا على رمال مسرح عمليات سيناء..لابد أننى كنت أشاهد آخر يشبهنى تماما فى تمثيل هذا الدور غير المعقول.. وبدأت مرة أخرى أغوص فى دور المتفرج من جديد.. هبطت إلى الأرض.. وها هم بشر يرتدون الثياب النظيفة.. بطونهم مليئة بالطعام والشراب..

وأنا ما دخلت إلى عالم الآدميين الأحياء إلا منذ ساعات قليلة.. قد واجهت معركة ضارية ضد النفس أقهرها.. وضد الطبيعة تسحقنى.. صابرا.. حتى لا أموت وتأكلنى

الغربان.. هناك إلى جوار فيصل جثة بـلا حياة.. فلم أكن فى حالة تسمح لى بالكلام.. أو الرد على سؤال..

إنبعث صوت مذياع صائحا...... عبر الاثير..

البترول يدخل المعركة.. ثم.. صوت موسيقى وبعضهم يرفع عقيرته بالغناء:-

- ..البترول يا عربى فى يدك ملكك ملكك وحدك..

أحـاط بنـا جمع كبير.. كل منهم يسأل عن ابن غـائب.. أو زوج لم يعـود.. أو كيف وصلنا إلى هنا ومن أين جئنا..وأين كنا يوم قامت الحرب..

لا أدرى ماذا كـانت ردود زملاء الشقاء.. فكلنـا عشنا نفس الظروف.. وكلنـا واجه معركة غير مفهومة.. وكلنا عائد من رحلة الموت بدون مقابل.. ولم يكن لأحد منا فضل على جسده فى إبقـاؤه حيا.. لم يعيش منـا الشجاع فقط أو الجبـان.. ولم يمت هناك كل بطل صنديد!!! شىء أمام الميناء كالحصار.. أخرجونا من خـلاله إلى سيارات أتوبيس مسدلـه الستائر بعـد سير قليل وقفت وراء بعضها البعض أمـام مبنى كبير.. قيل أننا داخل مبنى الاتحاد الاشتراكى.. طـالعتنى صـورة الـرئيس.. تمثال كبير فى مـواجهـة المدخل..

توقفت أمامه طويلا.. ولم تكن تلك هى الصورة التى تركتها منذ شهر..

فى أحد الأركان وقفت سيدة وقور تلف رأسها بطـرحة.. كأمى تماما.. وإلى جوارها فتاة خجلى.. اقتربن منـى على إستحياء.. يسألننى عن ابنهم الضـابط الصغير الغائب.. ولم أكن أدرى ماذا أقول لهم.. غير الأسف..

ظهر الانهزام على وجـه المرأة.. فتحت حقيبة يـدها ومـدت يدا تحمل علبـة سجائر قائلة:

- ..كنت جايباها علشان ابنى.. وأدام لسه ما جاش.. خذها أنت.. زى ابنى برضـه..

تناولت السجائر من السيدة.. التى راحت تتطلع إلى الوجوه الشاحبة.. عسـى أن تشاهد الغائب العزيز..

أدرت للسيدة ظهرى.. وسرت مبتعدا مقهورا ذبيحـا.. لابد أن أمى الآن فى مكان ما.. تبحث عنى بين آلاف الوجوه..

تعالت صيحـات تعلن وصول الأتوبيسـات كى تنقلنا إلى القطـار الحربى المتجة إلى

القاهرة.. عدت القهقرى وإلى جانبى الدسوقى إلى الباب.. حيث كان هناك زحاما من الجنود الزملاء.. يمنعهم من الخروج عملاقان من الشرطة العسكرية..

وسرعان ما نشب عراك أثر مشادة حامية الوطيس بين أحد الضباط العائدين وزملاء المأساة من الجنود فى جانب.. وضابط وجنود الشرطة العسكرية فى الجانب الآخر..

فقد حاول الضابط الخروج ومعه حشد من الجنود.. عبر العملاقين فنهره.. ضابط الشرطة العسكرية قائلا.. إن القطار الآن كامل العدد.. وممنوع الخروج..

فرد عليه الآخر قائلا.. مش مهم.. حانركب على الشبابيك أو على السطح..

نظر إليه ضابط الشرطة شذرا قائلا... أنا هنا علشان أدى أوامر..

رد عليه الآخر حانقه.. إنت هنا علشان تخرس وبس..

أمسكه من تلابيبه قائلا.. أنا مش حاسيبك.. أنا حاأحاكمك..

وقبض الآخر على عنقة صائحا.. حاكمنى يا حيوان..

وقد أخطأ ضابط الشرطة العسكرية.. خطأ.. فادحا حينما صاح حانقا:

– مش كفاية إنكم سبتم سلاحكم وجريتوا.. كمان مش عاوزين تسمعوا الكلام..

تحول الجنود والضباط رثى الثياب إلى حيوانات جريحة.. مظلومة.. فسرعان ماطرح العملاقين أرضاً.. وإلى جوارهم ضابطهم وراحوا يوسعونهم ضرباً مبرحاً وركلا.. إنسللت من الباب وإلى جوارى الدسوقى.. ورحنا نتجول فى أنحاء المدينة.. نسأل عن محطة السكة الحديد.. فأشاروا لنا على مبنى كبير يطل على ميدان واسع..

على الرصيف القطار الحربى.. سألنا عن موعد قيامه.. قيل بعد ساعة ونصف جلسنا على بوفيه المحطة.. نشرب فى تلذذ ومتعة مثلجات مخلوطة بنيكوتين السجائر.. ولم يشعر أى منا برغبة فى الطعام.. فقط نشرب.. ونشرب.. ونشرب.. وتوجهنا إلى القطار.. واستطعنا اقتناص كرسيان وثيران..

سار القطار.. بالقرب من القناة.. وهناك على الضفة الأخرى.. يرتفع علم إسرائيل.. ذى النجمة السداسية.. فرحت فى نوم عميق..

مع توقف القطار.. صحوت.. حيث انتشر الضوء يملأ الدنيا.. نظرت عبر الشباك كانت هناك عدة سيارات أتوبيس.. وعدة لوارى على مسافة ليست بالبعيدة.. ثمة تكنات

عسكرية..

وشيء كمكبر الصوت يدعونا إلى الهبوط من القطار..

هبطت والدسوقي متماسكي الأيدي.. وفوق أحد اللوريات وقف ضابطاً بيده مكبر صوت.. يحثنا على الانفصال.. جنوداً وصف ضباط في ناحية.. وضباطاً في ناحية أخرى.. ترك الدسوقي يدي مبتعداً عني..

توجهت مع بعض الزملاء إلى الأتوبيسات.. ركبناها.. اتجهت بنا مسرعة مسدلة الستائر إلى مبنى الكلية الحربية بالقاهرة.. ولم يكن هناك حديثاً جانبياً يدور فقط صمت.. صمت مطبق..

توقفت الأتوبيسات في الفناء الكبير.. في أرض الطابور. التي تعلمنا فيها أول خطوة على درب الجندية نزلنا.. سرنا حتى ميس الضباط..

في الميس كانت هناك عدة تليفونات بدأ الزملاء يصرخون فيها.. كل يحدث ذويه.. أنه قد عاد.. قمت أنا بدوري.. اتصل.. برقم التليفون الوحيد الذي لازلت أتذكره.. رقم تليفون سحر.. الخط مشغولاً دائماً فتركت الرقم مع أحد الجنود راجياً إياه أن يتصل به ويخبرهم بأن محمود مختار قد عاد وعما قليل سيصل إلى الدار..

كنا نجلس صامتين.. وفجأة إرتج المكان بصوت أزيز طائرة.. قفز كل منا لا شعورياً لينبطح على الأرض.. واضعاً رأسه بين ذراعيه.. مزق الصمت صوتاً يصرخ فينا:

.. انتباه حضرات الضباط..

انتبهنا مندهشين.. وعدنا نجلس مرة أخرى استطرد نفس الصوت قائلاً:

.. إيه.. أعصابكم خلاص اتهزت ولالإيه.. أنتم نسيتم أننا جنب المطار؟؟ حته طيارة مدنية صوتها ينزلكم تحت الكراسي.. والله عيب..

رفعنا رؤوسنا إلى المتكلم صامتين في انكسار.. كان ضابطاً برتبة عقيد.. لكنه مطلقاً لم يكن يشبه أحد منا.. فقد كان حليق الذقن.. مهندم الثياب.. يشع محياه صحة ونضارة..

أصدر لنا أمراً بالتوجه إلى الأتوبيسات كل حسب سلاحه.. للتوجه إلى قيادات الأسلحة.. لتلقي الأوامر؟؟..

توجهنا إلى الاتوبيسات.. حيث كان هناك أحد المساعدين ينادى:

.. المشاه الاتوبيس ده.. المدرعات الأتوبيس ده.. الـــ.. وتوجهت إلى أتوبيس ضباط المدفعية.. جلسنا مجموعة لا تتجاوز السبعة ضبـاط كلنا متشابهى السحن.. والملبس الممزق.. والذقـون الطويلة.. والجلود العجفاء.. جحظت منـا العيون ولاحت جماجمنا.. تحت طبقة من الجلد الرقيق.. كانت يوماً.. ما.. شحماً ولحماً..

بعد قليل كنا نقف فى مكتب قائد السلاح.. الذى ابتدرنا قائلاً:

... حمد لله على السلامة.. وأرجو أن تكونوا قد استمتعتم!! برحلة طيبة!! المهم لازم تعرفوا إنــه مفيش وقت.. للحزن.. والدلع!! العدو بيهدد يعبر القناة ويـوصل القاهرة.. طبعاً ده مش معقول.. وماحدش يقبل كده.. عاوز يعدى.. يعدى.. بس على جثتنا كلنا..

كل واحد منكم دلوقت يكون موجود هنـا بكرة الصبح.. علشان يعرف وحدته فين ويروح لها.. الجيش عاوزكم.. والبلد محتاجاكم.. والقيادة كلها ثقة فيكم!!..

إنبريت أقاطع سيادته قائلاً:

-.. بس زمايلنا لسة فى الصحرا.. بيموتوا.. لازم نعمل لهم حاجة..

-.. ده مش شغلك.. زى ماعرفت إنت تتصرف.. هما كمان حـايعرفوا يتصرفوا أظن واضح.. كل واحد فى حاله.. مالوش دعوة بحاجة.. ومالوش دعوة بحد.. دلوقت بقى.. اتفضلوا..

رفع أحد الزملاء يده متململاً قائلاً:

-.. لازم يافندم نسافر لأهـاليناً.. بكرة الصبح مش ممكن نلحق نرجع من السفر.. عاوزين فرصة.. نشوف أهالينا.. ونشترى لوازمنا.. ونرجع..

ارتفع صوتاً أخر مؤيداً قائلاً:-

-.. كأننـا مارجعنـاش.. أو متنا.. يعنى هـو إحنا أحسن من اللى مـاتوا؟؟.. يـومين ثلاثة.. الواحد ياخد نفسه..

اردف القائد قائلاً ليقطع المزيد من الاعتراضات:

-.. خلاص.. وليكن ٤٨ ساعة.. وده أقصى مافى سلطتى.. واضح.. كان أمراً قاطعاً لا يحتمل أى نقاش.. ورغم ذلك رفع أخر يده قائلاً:

-.. مامعناش فلـوس.. علشان تكاليف السفر.. عـاوزين سلفة وللا حـاجة علشان

نجهز نفسنا.. وعربية توصلنا لأهالينا..

كان ترجمة ذلك الطلب العادى جداً.. المنطقى جداً.. الإنسانى جداً.. على وجه قائد المدفعية.. عبارة عن قطرات من العرق.. وإحمرار فى الوجه.. فرد آسفاً:-

-.. والله مفيش إمكانيات عندى.. علشان كده.. وأقصى مايمكن عمله.. إننا نديلكم تذاكر سفر ذهاب وإياب مجانية لغاية أى حتة عاوزنها.. والأتوبيس يوصلكم لغاية محطة مصر..

كان منزلى قريباً..

فخرجت من معسكر القيادة أشد خطاى إلى الطريق..

فكان الناس ينظرون إلىّ شذراً.. نظرات الاتهام توجه إلىّ من كل مكان.. والنكات الساخرة تصك أذنى..

رحت أتوارى خجلاً من أسمالى البالية.. وأغوص مرة أخرى فى إحساس الحلم اللامنتمى إلى الواقع..

فى حين انبعث صوت مذياع ينشد الأغانى الحماسية التى تحرض الناس على القتال!!

وبائع يصيح مناوياً على بضاعته من أخر الأخبار..

وسرعان ما ذبت فى الخضم أحاول جمع شتات نفسى المبعثرة.. لأحاول أن أجد إجابة عن سؤالى.. وماذا بعد..

تم الظل الأول

رقم الإيداع ٣١٩١ / ٩٨

الترقيم الدولى I.S .B.N

977 - 19 -5430- X

التجهيزات الفنية

الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

ت: ٣٩٢٧٣٦١

الإخراج الفنى

صبرى عبد الحميد صادق